سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٦١)



تفسير القرآن الكريم

سورة يس

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

تفسير

القرآن الكريم

سورة يس

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة (يس). / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ٧ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٤٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ٦١)
ردمك: ٤ ـ ٦٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة (يس) ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧,٦   ١٤٣٦/٩٠٥٢

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٩٠٥٢
ردمك: ٤ ـ ٦٣ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة السابعة
١٤٣٧ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية



المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

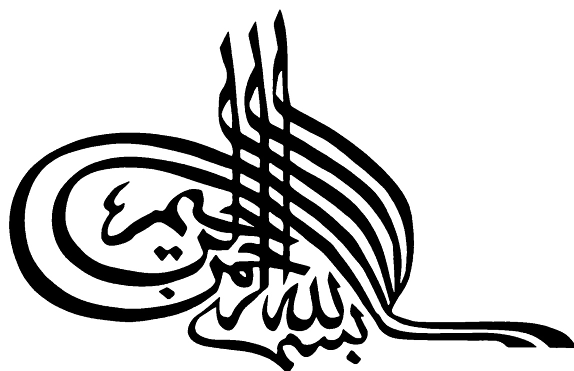
سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٦١)

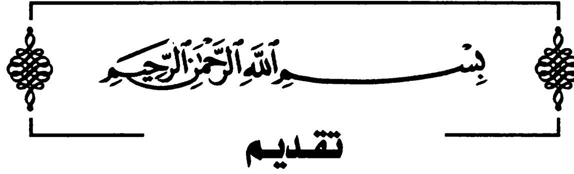
تفسير القرآن الكريم

سورة يس

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

•••

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[١]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِقِ الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)(١). تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خيرَ الجزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ الله تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخِ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِهِ الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ



(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه ونَستعينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذ بالله من شُرورِ أَنْفُسِنا وسَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَنْ يَهْدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وأَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وأصْحابِهِ ومن تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تَسْليمًا كثيرًا. أمَّا بعد:

فإنَّ من توفيقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يسَّر لفَضيلَةِ شَيْخِنا -تَغَمَّدَهُ الله بواسِعِ رَحْمَته ورِضْوانِه- تَفْسيرَ سُورَةِ (يس) في دُرُوسِهِ العِلْمِيَّةِ التي كان يَعْقِدُها رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالجامِعِ الكَبيرِ في مَدِينَةِ عُنَيْزَةَ.

وقَدْ عَهِدَتْ مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّة إلى فَضيلَةِ الشَّيْخِ فَهْدِ بْنِ ناصِرِ بْنِ إبْراهيمَ السُّلَيْمان، أثابَهُ الله، بالعَمَلِ لإِعْدادِ هذا الكِتابِ للنَّشْرِ، وتَخْريجِ أَحادِيثِهِ وآثارِهِ، فجزاه الله خيرًا.

نسأَلُ الله تعالى أنْ يَجْعَلَ هذا العَمَلَ خالِصًا لوَجْهِه الكريمِ، مُوافِقًا لمَرْضاتِهِ، نافعًا لعِبادِهِ، وأن يَجْزِيَ فَضيلَةَ شَيْخِنا عن الإسلامِ والمُسْلمينَ خَيْرَ الجزاءِ، ويُضاعِفَ له المثوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَه في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَميعٌ قَريبٌ.

وصلَّى الله وسلَّمَ وبارَكَ على نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وأصحابِهِ والتَّابعينَ لَهُم بإحسانٍ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

في مُؤَسَّسَةِ مُحَمَّدِ بْنِ صالِحِ العُثَيْمين الخَيْرِيَّة



إنَّ الحَمْدَ لله، نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستَغْفِرُه، ونَعُوذُ بالله مِنْ شُرورِ أنفُسِنَا وسيِّئاتِ أعمالِنَا، من يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له، وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشْهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تبِعَهُم بإحْسَانٍ إلى يومِ الدِّينِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أمَّا بَعْدُ:

قال المُفسِّر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سورة (يس) مكِّيَّة، أو إلا قولَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ﴾ الآية، أو مدنِيَّة].

المَكِّيُّ ما نزل قَبْلَ الهِجرةِ، وليس ما نَزَلَ بمكَّةَ؛ إذ قد ينزِلُ بمكَّةَ بعد الهجْرَةِ ويكونُ مدنيًّا، فما نزل قبلَ الهِجْرة فهو مَكِّيٌّ، وما نزل بعدها فهو مَدَنِيٌّ، وهذا القولُ هو الرَّاجِحُ من أقوالِ أهلِ العِلمِ، والأقوالُ في هذه السُّورَةِ ثلاثةٌ:

الأوَّل: أنَّها مَكِّيَّة.

الثَّانِي: أنَّها مَدَنِيَّة.

الثالث: أنَّها مَكِّيَّة إلا قَوْلَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ﴾.

والذي يظْهَرُ أنَّها مَكِّيَّة؛ لأنَّ أُسلُوبَهَا أُسلوبُ المَكِّيِّ، والسُّور المَكِّيَّة تمتاز عن

---

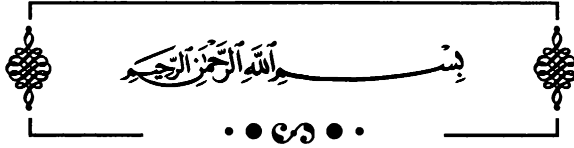
(١) أخي الكريم: إذا مر بك: (قال المُفسِّر)، فالمراد به جلال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد المحلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة ٨٦٤هـ. في تفسيره المسمى (تفسير الجلالين) وقد جعلت كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين معقوفتين هكذا [].

السُّور المَدَنِيَّة: بقوَّة الأُسْلُوبِ، وجَزَالة اللَّفْظ، بخلاف السُّورَة المَدَنِيَّة؛ فإنَّه أُسْلُوبُها أَلْيَنُ؛ لأنَّه يُخاطِبَ قومًا آمَنُوا، ويخاطِبُ أيضًا قومًا فِيهِم أهلُ كتابٍ، ليس عندهم مِنَ البلاغَةِ في اللُّغَة العَرَبِيَّة ما عند العرب.

فالظَّاهِرُ -والله أعلم- أنَّها مَكِّيَّة، وإذا جعلنَاهَا مَكِّيَّة فإنَّنَا لا نقول باستثناءِ شيءٍ منها؛ لأنَّ الأصل في السُّورَة المَكِّيَّة أنها كلها مَكِّيَّة، وأنَّ السُّورَة المَدَنِيَّة كُلَّها مَدَنِيَّةٌ، فمَنِ ادَّعى استثناءَ آيةٍ أو آيتَينِ أو أكثرَ، فعليه الدَّليلُ، أمَّا مجرَّد أنَّ المَعْنَى يليقُ بأهْلِ المدينةِ في آيةٍ مثلًا، فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأنَّ الله تعالى قد يذكر معنًى يليقُ بأهل المدينَةِ توطئةً وتمهيدًا حتى يكونَ النَّاسُ على بَصِيرة.

ولهـذا يَذْكُرُ الله تعالى في الآياتِ المَكِّيَّـة قَصَصَ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع أنَّ العِنَايَةَ بقَصَصِ موسى في المدينة أولَى؛ لأنَّ فيها اليهودَ، أمَّا مكَّةُ فليس فيها يَهُـود، فبعضُ العُلَمَاءِ إذا نظَرَ إلى أنَّ المعنَى يليقُ بالسُّوَر المَدَنِيَّة، أو بالأحكام المَدَنِيَّة ذهب يستثنِي ويقول: إلا آية كذا، إلا آية كذا، وهذا غيرُ مُسَلَّمٍ.





❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

•••

البسملةُ آيةٌ من كتابِ اللهِ مستقِلَّة، يُؤتَى بها في ابْتِدَاءِ كُلِّ سُورةٍ، ما عدا سورةَ براءةٍ، وليستِ البَسْملَةُ من الفاتِحَة ولا مِنْ غَيرِهَا، هذا هو القَولُ الرَّاجِحُ، وأمَّا مَنْ قال: إنَّهَا من الفاتِحَة وليسَتْ مِنْ غَيْرِها، فقوله ضعيفٌ لوجهَينِ:

الأوَّلُ: للتَّفريقِ بدون دليلٍ.

والثَّاني: أنَّ حديث أبي هُريرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الثَّابتَ في الصَّحيحِ، وهو قولُ الله تعالى: «**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَينِي وبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»[1]، يدلُّ على أنَّ البَسْمَلَةَ لَيْسَت من الفاتحة؛ لأنَّها لم تُذكَرْ في هذا الحَدِيثِ؛ ولأنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان لا يَجهَر بالبسمَلَةِ في صَلَاتِهِ، وهذا يدلُّ على أنَّها ليسَتْ من الفَاتِحَة، وإلا لَجَهَرَ بها كما يَجْهَر في بقية الآياتِ.

أمَّا إعرَابُها فهي: جارٌّ ومجرورٌ، وصِفَة ومَوْصُوف، وهذا الجارُّ والمَجْرُور متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وهذا المحذُوفُ يقدَّرُ فعلًا متأخِّرًا مُناسِبًا، وقدَّرناه فعلًا؛ لأنَّ الأصْلَ في العَوَامِلِ الأفعَالُ؛ ولذلك تَعمَلُ الأفعالُ فِعْلَها بدون شَرْطٍ، والأسماءُ التي تعمَلُ عَمَلَ الفعلِ لا بُدَّ فيها من شُروطٍ، وقدَّرناه مُناسبًا أو خاصًّا؛ لأنَّه أدَلُّ على المقصودِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقدَّرناه متأخِّرًا لفائدتَينِ:

الأولى: التَّبَرُّك بتقديمِ اسم الله عَزَّوَجَلَّ.

الثَّانِيَة: إفادةُ الحَصْر، فعندما تُسَمِّي على الوُضُوء فالتَّقديرُ: باسم الله أتوَضَّأ، ولو قلتَ: باسم الله أبتدئُ فيصِحُّ، لكنَّ ابتدائي عامٌّ، وأتوضَّأ أخصُّ، والإتيانُ بالأَخصِّ أدلُّ على المقصودِ، ولو قُلتَ: أبتدئُ بسم الله، صحَّ لكن فاتك التَّأخيرُ، والتَّخْصِيص، والفعليَّة؛ لأنَّكَ قلت: أبتدئ، وإذا قلتَ: (أبتدئ باسمِ الله) فاتَكَ التَّأخيرُ والتَّخْصِيص، وإذا قلتَ: (أتوضَّأ باسمِ الله) فاتَكَ التَّأخيرُ فقط.

ولو قال قائلٌ: هل يُمكِنُ أنْ نستدِلَّ لِهَذا القَولِ بشيءٍ منَ النَّصِّ؟

نقول: نعم، قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يخطُبُ النَّاسَ في عيد الأَضْحَى: «**مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِاسْمِ اللهِ**»(١)، أو: «**فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ**»(٢)، فخَصَّ الفِعْلَ.

لفظُ الجلالةِ: (الله) اسمٌ لله ربِّ العالَمِين، وهو أعلمُ الأعلامِ، أعلَمُ حتى من الضَّمير؛ لأنَّه اسمٌ يختَصُّ بالله لا يُمكنُ أن يشارِكَه فيه أحدٌ؛ ولِهَذا قالُوا: أعْرَفُ المعارِفِ على الإطلاقِ اسمُ الله؛ لأنَّه لا يُشارِكُهُ فيه أحَدٌ، والضَّميرُ إذا قلتَ (قُمْتُ) فلا يشارِكُنِي أحدٌ فيه، لكنْ صالِحٌ أنْ يستعْمِلَه غيري، أمَّا (الله) فلا تَصلُح الشَّرِكَةُ فيه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صِفتانِ لله، والرَّحمنُ والرَّحيم معناهما ذو الرَّحمةِ، لكن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، رقم (٩٨٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب قوله ﷺ: «**فليذبح على اسم الله**»، رقم (٥٥٠٠)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرَّحْمن باعتبَارِهَا وصفًا لله، والرَّحِيم باعتبارِهَا فعلًا له؛ ولِهَـذا كان الرَّحمنُ عامًّا، والرَّحيم خاصًّا، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] فالرَّحْمنُ لُوحِظَ فيه الوَصْفُ، والرَّحيم لُوحِظَ فيه الفِعْلُ؛ ولِهَذا لمَّا لُوحِظَ في الرَّحْمَن الوصْفُ جاء على الأَوْزانِ التي تدلُّ على الامتلاءِ والسَّعَة، فصارت على وزن (فَعْلان).

والرَّحْمَة صفةٌ من صِفَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحقيقيَّةِ الثَّابِتَة له على وَجْه الحقيقَةِ لا المَجَازِ.

وقد أنكـرَهَا أهلُ التَّعطيلِ، ومنهُمُ الأشاعِـرَة، وقالوا: إنَّه ليسَ لله صفةٌ هي الرَّحمة؛ لأنَّ الرَّحمة رِقَّة ولِينٌ، وهذا لا يَليقُ بالله عَزَّوَجَلَّ، وفسَّروها إمَّا بالإرادة؛ لأنَّهم يؤمِنُـون بالإرَادَة، وإمَّا بالفِعْل؛ لأنَّ الفِعْلَ منفصِـلٌ عن الفَاعِل -يعني: المفعـولُ منفصلٌ عن الفاعل- فهم يفسِّرونَها: إمَّا بالإحسان وهو مَخْلوق منفَصِل، وإمَّا بإرادة الإحسانِ؛ لأنَّهُم يُقِرُّون بالإرَادَةِ، ولا شَكَّ أنَّ قولَهم هذا باطلٌ، وأنَّه إنكارُ صِفَةٍ من أعظَمِ صفاتِ الله عَزَّوَجَلَّ وهي من أبرزِ صفاتِهِ؛ فقد قال الله تعالى: «**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١).

والعَجَبُ كلُّ العَجَبِ أنَّهُم يَقُولون: إنَّ الإرَادَةَ دلَّ عليها العَقْلُ، والرَّحمَة دلَّ العقلُ على انتفائِهَا، قالوا: لأنَّ التَّخْصِيص دالٌّ على الإرادة، فمثلًا هذه سَماء، وهذه أرْضٌ، وهذه شمـس، وهذا قمـر؛ إلى آخِـرِه، يدلُّ على الإرَادَةِ؛ لأنَّه لا مُخَصِّـص إلا بإرادَةٍ، أمَّا الرَّحْمة فيقولون: إنَّ العَقْلَ لا يدلُّ عليها، بل يدلُّ على انتفائِهَا.

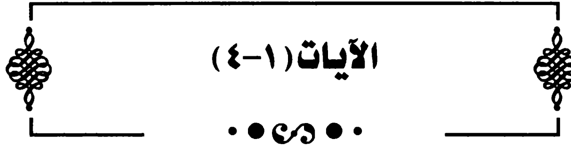
---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٧٤٥٣)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فنقول: عَجَبًا لكم، دلالةُ العقْلِ على الرَّحْمةِ أبلغُ وأظْهرُ وأوضحُ من دَلالتِهِ على الإرَادةِ؛ ولِهَذا جعلْتُم دَلالةَ العَقْلِ على الإرَادَةِ بالتَّخْصِيص، وهذا لا يفهَمُه إلَّا خَوَاصُّ النَّاسِ.

فلو سألْتَ طالبَ العلمِ بدون أن يَعْرِفَ البحثَ ما استدَلَّ بالتَّخْصِيص على الإرَادَة وهو طالبُ علمٍ، لكنِ الرَّحمةُ كُلٌّ يعرفُ أنَّ لله تعالى رحمةً، ويستدِلُّ عليها بالعَقْل، تأتِي العامِّيَّ في السُّوق فتقول: نزلَ المطَرُ، واخضَرَّتِ الأرضُ، ورَوِيَتِ الزُّروع، وما أَشْبَهَ ذلك، من أينَ هذا؟ فيقولُ لك مباشرةً: مِنْ رحمةِ الله، فيستدِلُّ بالنِّعَمِ التي هي من آثارِ الرَّحمة على الرَّحمة، ولكنْ نسأَلُ اللهَ لنا ولهم الهِدَاية، مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ.





الآيات (١-٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس:١-٤].

• • • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يسٓ﴾ الله أعلم بمراده به]، ولا شَكَّ أنَّ الله أعلمُ بمراده ومُرادِ غيره، وأعْلَمُ بكلِّ شيءٍ، ولكنْ ما المُرادُ بهذينِ الحَرْفَينِ الهجائِيَّينِ؟

في هذا خلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ:

القول الأول: ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الله أعلم بمُرادِهِ به] أي: لا ندري ما أرادَ الله عَزَّوَجَلَّ.

القول الثَّانِي: أنَّ معنَى (يس) يا إنسانُ فـ(يا) حَرْفُ نداءٍ على زَعْمِهم، و(س) كلمَةٌ يُعبَّر بها عنِ الإنْسانِ.

وبعضُهُم أتى بغيرِ ذلك أيضًا ممَّا لا طائِلَ تحته ولا دَليلَ عليه.

لكنْ يبقَى النَّظَر، هل نقول كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الله أعلم بمراده] لجميع الحُرُوفِ الهِجَائِيَّة التي ابتدأَتْ بها السُّورُ، أو نقول: إنَّه لا معنَى لها بمقتَضَى قولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥]، فإنَّ مُقتضَى اللِّسانِ العربِيِّ المُبِينِ أنَّ هذه الحروفَ ليس لها معنًى،

فإذا حكَمْنَا بهذه القَضِيَّة العامَّة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ على كلِّ كلِمَة أو حرفٍ في القُرآنِ الكريم فإنَّنا نعلمُ أنَّ (يس) ليس لها معنًى بمقتَضَى اللِّسانِ العربيِّ المُبينِ، فـ(يا) حرفُ هجاءٍ ليس له معنًى، و(س) حرفُ هِجَاءٍ ليس له معنًى أيضًا، وهـذا القَوْلُ ذَكَـره ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مجاهِدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1] وهو قولٌ قَوِيٌّ، ويشهَدُ له الآيَةُ التي استَشْهَدْتُ بها.

إذَنْ نقولُ: لا معنَى لهذه الحُروفِ. فيَرِدُ علينا إشكالٌ: إذا قُلْنا لا معنَى لها، فكيفَ يأتي الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابِهِ العظيمِ بكلامٍ لَغْوٍ لا مَعنى له؟

والجوابُ على هـذا أن يُقالَ: إنَّ له مَغْزًى عَظِيمًـا، هـذا المغْزَى هو أنَّكُم أيُّها العَرَبُ، الذين عَجَزْتُم عن معارَضَةِ القُرْآن والإتيانِ بمثْلِهِ عَجَزْتُم عن ذلك، لا لأنَّ القُرآنَ أتى بحروفٍ جديدة، أو كلماتٍ جديدة، بل هو من الكَلِمات التي تُكَوِّنُون منها كلامَكُم؛ حروف هـجائِيَّة؛ ولِهَذا قلَّ أنْ تَجِدَ سورةً مبدوءةً بهذه الحروفِ الهـجائيَّةِ إلا وبعدها ذِكْرُ القُرآنِ؛ مما يدلُّ على أنَّ هذا هو المرادُ بها، وهذا ما ذهب إليه شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] وقبله الزَّمَخْشَرِيُّ أيضًا في تفسيره[3]، وغيرُهُما من العُلَماء، على أنَّ هذه حروفٌ هـجائيَّة جِيءَ بها لأجل إظهارِ عَجْزِ العَرَبِ عن معارَضَةِ هذا القُرْآن، مع أنَّه لم يأتِ بجديدٍ في كلامِهِم.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الواوُ للقَسَم فلها معنًى، ولها عملٌ؛ عملُها الجرُّ، ومعناها التَّأكيدُ؛ والقَسَم: تأكيدُ الشَّيء بذكْرِ معظَّمٍ على صورةٍ مخصوصةٍ، ولا بُدَّ أن يكون

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).
(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧١).
(٣) الكشاف (١/ ٢٦).

المحلُوفُ به معظَّمًا ولو تقديرًا في ذِهْن المُقْسِم، كأنَّ المُقْسِمَ المُعظِّمَ يقولُ: بقدْرِ تعظيمِي لِهَذا الشَّيء وتأكُّدِي منه وإثباتِي له أُؤَكِّدُ المحلوفَ عليه؛ ولِهَذا لا بدَّ أن يكونَ المحلُوفُ به معظَّمًا، وإلَّا لكان الحَلِفُ لا فائدةَ منه.

ثُمَّ قد يكونُ عظيمًا في ذاتِهِ حقيقةً، وقد يكون معظَّمًا باعتبارِ المُقْسِمِ به؛ فالذين يحلفونَ باللَّاتِ والعُزَّى يَحْلفون بمُعَظَّم لا بعظيمٍ؛ لأنَّه معظَّمٌ عندهم، لكنَّه ليس بعظيمٍ في نفسه، والذين يقْسِمُون باللهِ وآياتِهِ، يحلفون بعظيمٍ وبمُعَظَّم في قلوبِهِم، وهو معظَّمٌ في نفسه. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾.

والقرآنِ: المرادُ هذا القرآنُ الذي نقرَؤُه كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو مشتَقٌّ من قَرَأَ بمعنَى تلا؛ لأنَّه مَتْلُوٌّ، أو من قَرِيَ بمعنى جَمَع؛ لأنَّه مجموعٌ وجامعٌ، فهو مُشتَقٌّ من المعنَيَينِ، من القراءة بمعنى التِّلاوَة، ومن قَرِيَ بمعنى جمع، ومنه القَرْيَة؛ لأنَّها مُجتَمَع النَّاس، فالقُرْآن جامِعٌ بين المعنَيينِ فهو مَتْلُوٌّ، وجامِعٌ ومجموعٌ، كلماتٌ مجموعةٌ بعضُها إلى بعضٍ، كلامٌ جامِعٌ لكلِّ ما فيه الخيرُ والصَّلاح.

قوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ صفةٌ للقُرْآن وهي بمعنَى مُحكَم، أو بمعنى مُحكِم، أو بمعنى حاكِم؛ كلُّها تُحتَمَل، فالقُرْآن حاكمٌ؛ لأنَّه يجب الرُّجُوعُ إليه ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] على القول بأنَّ القُرْآن مُحكِم؛ لأنَّه متقِنٌ للأشياءِ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وكذلك أيضًا مُحكَم؛ لأنَّ الله تعالى أحكَمَه وأتقَنَه، فليس فيه تناقُضٌ ولا تَعارُضٌ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، وهو أيضًا مُشْتمِلٌ على الحِكْمَة؛ ففيه معنى الحِكْمة والحُكْم، وإذا كان حكيمًا فإنَّنا نعلَمُ أنَّه:

أَوَّلًا: حكيمٌ في ترتِيبِهِ؛ فكلُّ آيةٍ إلى جَنْبِ الأخرى حتَّى وإن ظنَنَّا أَنَّه لا ارتبَاطَ بينهُمَا، فإِنَّما ذلك إمَّا لقُصُورنا أو لتَقْصِيرنا.

فمثلًا لو قال قائلٌ: قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] جاء في سياق آياتِ العِدَدِ، فما هو الارتباطُ؟

نقول: إنَّه لا بدَّ أنَّ هناك حكمَةً، لكنْ قَصُرَتْ أفهامُنا عنها، أو قَصُرْنا في التدبُّر لطَلَبِها ومراجَعَةِ كُتُب أهلِ العِلْم.

ثانيًا: حَكِيمٌ في أحكامه؛ فأحكامُه كلُّها عَدْلٌ، موافِقَة للفِطْرَة وللعَقْلِ الصَّرِيح؛ ولِهَذا لا تَجِدُ شيئًا من أحكَامِ القُرْآنِ مناقضًا للفِطْرَة أبدًا، بل هو مُوافِقٌ للفِطْـرَة، ولا تَجِدُ شيئًا في القُرْآن يُكذِّبه العقْلُ، أو يُحِيلُه أبدًا، بل إنَّ العقْلَ يُقَرِّر في الجمْلَة ما جاء به القُرْآنُ.

ثالثًا: حكيمٌ في أُسْلُوبه يشتَدُّ في مواضِعِ الشِّدَّة، ويلينُ في مواضِعِ اللِّينِ، ويأتي بأساليبَ غريبةٍ ما كانت معروفةً في أساليبِ العَربِ، فبينما الآيةُ سِياقُهَا خبرِيٌّ إذا بها تَنْتَقِل إلى سياقٍ إنشائِيٍّ مِنِ استفهامٍ، أو نَهْيٍ، أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكلُّ هذا من الحِكْمة، بينما القُرْآنُ يتحدَّث بصيغة الغائِـبِ إذا به ينتقِلُ إلى صيغَةِ الحاضِـرِ، فينتقِلُ من أُسْلوبٍ إلى آخَرَ، وهو ما يسمَّى بالالتفاتِ، وأنواعُ هذا كثيرةٌ في القُرْآنِ.

فالقُرْآنُ حكيمٌ بكلِّ معنى الحِكْمَة، وبكلِّ معنى الإِحْكَامِ، وبكل معنَى الحُكْم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ -مقتصرًا على واحدٍ منها-: [المُحْكَم بعَجِيبِ النَّظْمِ، وبديعِ المعانِي]، فأتى بمعنًى واحدٍ من معاني الحكيم، ونحن ذكَرْنَا أشياءَ: ذو حكمة، ومُحكِم، ومُحكَم، وحاكِم، فذكَرْنا أنَّه حاكِمٌ، وذو حِكْمةٍ وحُكْمٍ وإحكامٍ، فيشملُ أعمَّ مِمَّا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإقسامُ الله تعالى بكِتَابِهِ العظِيمِ أو بكِتَابِهِ الحكيم يدُلُّ على عِظَم هذا القُرْآنِ وعلى عِظَم ما جاء به من الأحْكامِ والحِكْمَة والحُكْم، ثم ذَكَر المقسَمَ عليه، فقال: ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يا محمدُ، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فأقسَمَ الله تعالى بكتابِهِ على أنَّ محمَّدًا ﷺ من المُرْسَلِينَ، وقوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لأنَّه سبقه الرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهو خاتَمُ الرُّسُلِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأكمَلُهُم شريعةً، جاء ليُتِمَّ مَكارِمَ الأخلاقِ.

وقد شبَّه النبيُّ ﷺ رسالتَهُ برجُلٍ بنَى قصرًا وأشادَهُ وبقِيَ موضِعُ لَبِنَة، فصار النَّاس يطوفون به، ويتعجَّبُون منه إلا مَوْضِعَ هذه اللَّبِنَة قال: «**فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**»[1]، والجُمْلَة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مؤكَّدَةٌ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: القَسَمِ، وإنَّ، واللامِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ﴾ متعلِّقٌ بما قَبْلَه]: الذي قبله ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مُرسَلٌ اسمُ مفعولٍ صالحٌ للعَمَل؛ لِأَنْ يَتعلَّقَ به المعْمولُ، فالمعنَى: (إنَّكَ لَمِنَ الذين أُرسِلُوا على صراطٍ مُستقِيم) لأنَّ جميعَ الرُّسُلِ على صراطٍ مُسْتقيمٍ بلا شَكٍّ، ولكنْ يَحْتمِلُ وجهًا آخرَ أحْسنَ مِمَّا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أن تكون ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبرًا ثانيًا لـ(إنَّ)؛ أي: إنَّكَ على صراطٍ مُستقيمٍ، وهذا أنْسَبُ.

ويَشْهَدُ له قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣]، فالوَجْهُ الثَّاني في إعرابِ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّها خَبَرٌ ثانٍ لـ(إنَّ).

وقولُهُ: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي طَريق الأنْبياءِ قَبْلَكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم (٣٥٣٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم (٢٢٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

التَّوحِيد والهُدَى، والتَّأكِيدُ بالقَسَم وغيرِه رَدٌّ لقولِ الكُفَّارِ له: لسْتَ مُرسلًا]، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد:٤٣].

إذَنْ: فالكَلامُ مُطابِقٌ لمقتضى الحال؛ لأنَّه يخاطب المُنْكِرَ.

وقد سَبَقَ لنا في البلاغَةِ أنَّ للمخاطَبِ ثلاثَ مراحِلَ: أن يكون مُنكِرًا، أو أن يكون متَرَدِّدًا، أو ألَّا يكونَ في ذِهْنِه شيءٌ لا إنكار ولا تَرَدُّد، قالوا: فإن كان مُنْكِرًا وجَبَ تأكيدُ الخَبَر له، وإن كان مُتَرِددًا حَسُن أن يؤَكَّدَ له الخَبَرُ، وإن لم يكُنْ في قلبِهِ وذِهْنِهِ شيءٌ، فإنَّكَ تُلْقِي إليه الخَبَر غيرَ مُؤَكَّدٍ، هذا هو الأصل.

فتخاطب إنسانًا ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألْقِ الخَبَرَ إليه غَيْرَ مؤَكَّدٍ، تقول: زيد قائم، وإذا كنتَ تُخاطِبُ مترَدِّدًا في صحَّة الخبَرِ فأكِّدْه له استحسانًا، وإذا كنْتَ تُخاطِبُ مُنكِرًا فإنَّه يجِب أن تؤكِّد له الخَبَر. هذا هو الأصل، وقد يُحذَفُ التَّوكيدُ في موضع التَّوكِيدِ، وقد يأتي التَّوكيدُ في غيرِ موضعِ التَّوْكيدِ لأسبابٍ تُعرَفُ مِنَ السِّياق.

فهنا الكُفَّارُ يقولون: لسْتَ مُرْسلًا. فكان تأكيدُ خَبَرَ الرِّسالةِ لهم واجبًا يعني مِمَّا تُوجِبُه البلاغَة، والوُجُوبُ هنا ليس وُجُوبَ التَّكليفِ الذي يُؤَثَّمُ بتركِهِ، بل وُجوبٌ من حيثُ البلاغةُ.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الصِّراطُ فِعَالٌ بمعنى مفعولٍ؛ لأنَّ فِعَالًا تأتي بمعنى مفعولٍ كثيرًا؛ كقولِهم: بِناء، وغِرَاس، وفِرَاش؛ بمعنى: مَبنِيٌّ، مَغْرُوس، مَفْرُوش، فصِراطٌ فِعَالٌ بمعنَى مفعولٍ؛ أي: مصروط، والصِّراط: المُرُور بسرعةٍ، ومنه قولُهم: (صَرَطَ اللُّقْمَة) أي ابتلَعَهَا بسُرْعَة، وفي اللَّهجَة العامِّيَّة عندنا نقول: (زَرَطَ) وهي لغة عربيَّة في صِرَاط، و(سِرَاط) بالسين و(زِرَاط) بالزاي فكُلُّها لغة عربيَّة، والصِّراط

لا يكون صِرَاطًا إلا إذا كان طريقًا واسعًا يتحمَّلُ طوائِفَ يَعْبُرُون عليه، قالوا: أيضًا من صِفَاته أن يكون مُسْتَوِيًا ليس فيه طُلُوع ولا نزول.

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ صفةٌ له مُؤَكِّدة؛ أي: إنَّه لا اعوِجَاج فيه، ولا شَكَّ أنَّ ما جاء به الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صراطٌ مُستقيمٌ؛ لأنَّه طريقٌ واسِعٌ يَسَعُ كلَّ الأمَّةِ منذُ بُعِث إلى أن تقوم الساعةُ لا يُمكِنُ أن يَضيقَ، وهو أيضًا صراطٌ واسِعٌ لا يُمكن أبدًا أن يضيقَ عن الأَحْكَامِ الشَّرعيَّةِ، فكلُّ حادثَةٍ تَنْزِل منذُ بُعِثَ الرَّسولُ ﷺ إلى يومِ القيامةِ لا بدَّ أن يُوجَدَ حَلٌّ لمشكِلَتِها -إن كانت مشكلة- فيما جاء به الرَّسُول ﷺ؛ ولذلك نقول: إنَّ هذا الشَّرْع في القُرْآن والسُّنَّة كاملٌ لا يحتاج إلى تكميلٍ، وهو أيضًا واسِعٌ لا يمكن أن يَضِيقَ بأي جزئيَّة تقعُ إلى يومِ القيامةِ.

إذَنْ: ليس هناك مُشْكِلٌ في الشَّريعَةِ، لكنَّ الإِشْكَالَ إنَّما يأتِي مِنْ قِبَلِ النَّاسِ: إمَّا لقُصُور في الفَهْم، أو لتَقْصِيرٍ في طَلَبِ العِلْم والهدى، أو لِأشياءَ رانَـتْ على قُلوبِهِم فأظْلَمَتْها حتَّى لا تُبْصِرَ الحقَّ؛ فقد يكون الإنسانُ غيرَ مقصِّرٍ ولا قاصِرٍ، عنده فَهْمٌ قويٌّ، وعنده آلةٌ قَوِيَّة وعِلْمٌ، لكن يكون على قَلْبِه ذُنُوبٌ تحولُ بينه وبين رُؤْيَةِ الصَّوابِ.

ولهذا ينبغي للإنسانِ إذا أُشْكِلتْ عليه مسألةٌ من المسائِلِ بعد المراجَعَة والتَّتَبُّع لكلام أهلِ العِلْم أن يُكثِرَ منَ الاستغفارِ؛ لأنَّ الاستغفارَ يمحو اللهُ به الخطايا فيكون القَلْبُ مُسْتَنِيرًا.

وربَّما يُستَنْبَطُ هذا من قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٥-١٠٦]، ويُستدَلُّ له أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ

أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤].

الذُّنُوب مَنَعت القُلُوبَ أن ترى أحَقِّيَّة هذا الكتابِ، حتى قال القائِلُ: إنَّهَا أساطيرُ الأوَّلِينَ؛ فهذا الدِّينُ صِراطٌ مُستقيمٌ واسِعٌ، يَسَعُ جميعَ النَّاسِ إذا دخلوه، وواسِعٌ يشمَلُ جَميعَ أحكامِ الحوادِثِ والنَّوازِلِ مُنذُ بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ إلى أن تقومَ السَّاعَةُ، ولكنَّ الإشكالَ الذي يَكونُ: إمَّا من قُصُورنا، أو تَقْصِيرنا، أو من أمورٍ رانَتْ على القُلُوبِ فلا تَرَى الحَقَّ.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ أنَّ هذا القُرْآنَ الذي أعْجَزَ البَشَرَ لم يكنْ بِدْعًا من لسانِهم، وإنَّما من الحُرُوفِ التي يُرَكِّبون منها كلامَهُم، يُشيرُ إلى هذا قوله: ﴿يسٓ﴾ ولِهَذا لا تأتي هذه الحُرُوف الهِجَائيَّة في أوَّلِ السُّورَة إلا وَجَدْتَ بعدها ذِكْرَ القُرْآنِ في الغالِبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَظَمَةُ القُرْآنِ العظيمِ؛ لأنَّ الله تعالى أقسَمَ به، ولا يُقْسِمُ إلا بشيءٍ مُعظَّمٍ. والقُرْآنُ الكريمُ عظيمٌ في نفسِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثَّناءُ على القُرْآن بأنَّه حكيمٌ على الوُجُوهِ الثَّلاثَةِ التي ذكرناها عند قوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: العنايةُ بإثباتِ رِسالةِ النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى أقْسَمَ عليها، وأكَّدَها زيادةً على القَسَمِ بـ(إنَّ) واللامِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ثُبوتُ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ فمن أنكرها فهو كافِرٌ؛ لأنَّه مكذِّبٌ لله ورسولِهِ، وإجماعِ المسلمينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ الرُّسُلِ وأنَّ ثَمَّةَ رُسُلًا غيرَ مُحَمَّدٍ ﷺ لقوله هنا:

﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، يعني لستُ أولَّ رسولٍ؛ فإنَّه ﷺ قد سبقه رُسُلٌ من قَبْلِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ من الشَّرْع فهو الصِّراطُ المستقيمُ؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والصِّراط المخالِفُ للشَّرْعِ فيه العِوَجُ والشَّرُّ بمقدارِ ما خَالَفَ شريعةَ النَّبيِّ ﷺ.



الآيــة (٥)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [يس:٥].

• ● ● •

﴿ تَنزِيلَ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: هو؛ أي: القُرْآنُ تنزيلُ العزيزِ الرَّحيم، وتنزيلُ مصدرُ نَزَلَ يَنْزِل، والقُرْآن مُنَزَّلٌ يعني ينزل شيئًا فشيئًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء:١٠٦]. فإنَّه يَنْـزِل شيئًا فشيئًا، ويُعبَّر أحيانًا عن القُرْآنِ بأَنَّه أُنْزِلَ باعتبارِ نِهَايَتِه، فإنَّه باعتبارِ النِّهاية يكونُ نزلَ كُلُّه، وباعتبار التَّدْريجِ في تَنْزيله يكونُ مُنَزَّلًا، وهكذا في القُرْآن نزول المطر، أحيانًا يقول: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾ [ق:٩]، وأحيانًا يقول: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الرعد:١٧]، فباعتبار أنَّ المطَرَ ينزِلُ شيئًا فشيئًا يُقالُ: (نَزَّلْنا) وباعتبار النِّهايَةِ واجتماعِهِ كُلِّه يُقالُ: (أَنْزَلْنا).

وقولُهُ: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في مُلْكِه] يعني الغالبَ في مُلكِهِ الذي لا يُغْلَبُ فيه، وقد مَـرَّ علينا في باب العقيدةِ أنَّ العزيزَ من أسماءِ الله، وأنَّ العِـزَّةَ لها ثلاثةُ معانٍ: عزَّة القَدْر، وعزَّة القَهر، وعِزَّة الامتناعِ.

فعِزَّةُ القَدْرِ بمعنى أنَّه ذو قَدْر عظيمٍ رفيعٍ، وعِزَّةُ القَهْر بمعنى أنَّه قاهرٌ غالِبٌ، وعِزَّةُ الامتناعِ؛ أي إنَّه قَوِيٌّ لا ينالُه شيءٌ، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

(١) النونية (ص:٢٠٥).

وَهُـوَ الْعَزِيـزُ فَلَـنْ يُـرَامَ جَنَابُـهُ أَنَّى يُـرَامُ جَنَـابُ ذِي السُّـلْطَانِ

فالله عَزَّوَجَلَّ عزيزٌ ممتنعٌ أنْ ينالَهُ السُّوء، ومِنْهُ (الأَرْضُ العَزَازُ) لقوَّتِها وشِدَّتِها فقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [العزيزُ: في ملكه] فيه قُصُـور، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الرَّحيم: بِخَلْقِه] وهنا نقول: إنَّ الرَّحيم عامَّة؛ لأنَّها لم تُقَيَّد، فالمراد به الرَّحْمة العامَّة، فالله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بخلْقِه كلِّهِم، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] حتى الكافـر يرزُقُه الله عَزَّوَجَلَّ العقْلَ، والصِّحَّـةَ، والأولادَ، والمالَ، والأزواجَ، لكن هـذه رحمـةٌ عامَّة، أمَّا الرَّحْمـة الخاصَّة بالمؤمنيـن، ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وهنا أضافَ تنـزيلَ القُـرْآنِ إلى هذيـنِ الاسْمَيْنِ: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارةً إلى وُجُوبِ العملِ بما جاء في القُرْآن، وأنَّ مَنْ لم يعمَلْ به فإنَّ أمامه العَزيزَ الذي يأخُذُه أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ؛ والرَّحيم إشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرْآن إنزالُهُ من مقتَضَى رحمَتِه عَزَّوَجَلَّ بخلْقِه؛ لأنَّ الله تعالى ما رَحِمَ خلْقَهُ رحمةً أعظَمَ من إنزالِ القُرْآنِ الكريم؛ لأنَّ به الحياةَ القلبِيَّةَ والبدنِيَّةَ، والفردِيَّةَ والاجتماعِيَّةَ، ففيه تهديدٌ للَّذينَ يُخالِفونَ هذا القُرْآنَ بأنَّه نزل من عِنْـد عزيزٍ ينتقِمُ ممَّن خالَفُه. ورحيمٌ: إشارَةٌ إلى أنَّ هذا القُرْآن من مقتَضَى رحمتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خبرُ مبتدأٍ مقدَّرٍ؛ أي: القُرْآنُ] يعني بخبَر مبتدأٍ مقدَّر (تنزيلُ) بالرَّفْع أي: القُرْآنُ، والتَّقْديرُ: القُرْآنُ تنزيلُ العزيزِ الرَّحيم، وفي قراءة سَبْعيةٍ «تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ» وعلى هذه القراءة يكونُ منصوبًا على أنَّه مصدَرٌ عامِلُهُ محْذوفٌ؛ يعني: نَزَلَ تَنْزيلَ العزيزِ الرَّحيمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرْآنَ مُنَزَّلٌ من عنْدِ اللهِ؛ لقَولِه: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القُرْآنَ كلامُ الله غيرُ مَخْلوقٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ لقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾ والنُّزُولُ لا يكونُ إلا من أعلى، وعُلُوُّ الله عَزَّوَجَلَّ دلَّ عليه الكِتَابُ، والسُّنَّةُ، والإجْمَاعُ، والعَقْلُ، والفِطْرَةُ، كُلُّ هذه الأنواعِ الخَمْسَةِ من الأدلَّة دلَّت على عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ العزيزِ والرَّحيم اسْمَينِ من أسماء الله، وإثباتُ ما تضمَّناهُ من الوصْفِ، وما تضمَّنَهُ الرَّحيمُ من الأَثَر وهو الحُكْم، والعزيز في بعض معانيه وهو الغَالِبُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إنذارُ المخالِفِينَ لِهَذا القُرْآنِ، وذلكَ بإضَافَةِ ﴿تَنزِيلَ﴾ إلى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ لأنَّه إذا قيل: جاء هذا من عزيزٍ، دلَّ على إنذارِ مَن خَالَفَه وتَحْذيرِه، فيكون في هذا الإنذارُ والتَّحذيرُ من مخالَفَةِ هذا المنَزَّلِ؛ لأنَّه نزل من عزيزٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ القُرْآنَ؛ بلْ إنَّ الشَّرْعَ كلَّه من آثارِ رحْمَةِ الله؛ لقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فإن قُلْتَ: أين الرَّحْمَةُ في قَطْعِ يدِ السَّارِقِ؟ وفي رَجْم الزَّاني المُحْصَن؟ وفي قتْلِ القاتِلِ؟ وما أشبه ذلك.

فالجواب: أنَّ الرَّحْمَةَ في ذلك واضِحَةٌ جدًّا، فقَطْعُ يَدِ السَّارِقِ فيه رحْمَةٌ بالسَّارِقِ وغيره، رحْمَةٌ بالسَّارِقِ لِتَرْدَعَهُ عن السَّرِقَة مرةً أخرى، ولتكُونَ كفَّارةً لذَنْبه؛ لأنَّ

الحدودَ كفَّارةٌ، يُكَفَّرُ بها عن فاعِلِهَا، وفيه أيضًا إصلاحُ المجتمَعِ وحمايَتُه من الفوضى، فهذه رحْمةٌ، وكذلِكَ نقولُ في بقيَّة الحدودِ والقصَاصِ: إنَّه من رحْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.



الآيـة (٦)

• ● ◦ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس:٦].

• ● ◦ ● •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ لِتُنذِرَ ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بتَنْزِيل]. ﴿ لِتُنذِرَ ﴾ اللَّامُ هذه تُسمَّى لامَ التَّعليلِ، والفِعْلُ بعدها منصوبٌ باللام، وعلى مَذْهَبِ البصريِّين مَنصوبٌ بـ(أن) مُضْمَرَة بعد اللامِ، وعلى كلِّ حالٍ فهي تحتاج إلى مُتعلَّقٍ، ومُتعَلَّقُها قولُهُ: ﴿ تَنزِيلَ ﴾ يعني إنَّما نَزَلَ لتُنْذِرَ قومًا ما أُنذِرَ آباؤُهم فهم غافلون.

(تُنذِر) قال العُلماء: الإنذارُ هو الإخبار المقْرونُ بالتَّخويفِ، أو المُتضَمِّن للتَّخويفِ، فالإنسانُ مثلًا يأْتي إلى قومٍ يصيحُ بهم: العَدُوَّ، الْعَدُوَّ. يقال: هذا مُنذِرٌ ونذيرٌ، فالنَّذيرُ عن شيءٍ يُخَوِّف، فهو إعلامٌ متضَمِّنٌ للتَّخويفِ، هذا القُرْآن أنزله الله عَزَّوَجَلَّ لينذِرَ النَّبيُّ ﷺ به ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي: لم يُنذَرُوا في زمن الفَتْرَةِ؛ وعلى هذا فـ(ما) نافية؛ يعني: لتنذِرَ قومًا لم يُنذَرُوا ولم يُخَوَّفوا، لكنْ هذا في زمنِ الفَتْرَة، وأما قَبْلُ فقَد أُنْذِرُوا بواسِطَةِ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاة والسَّلام، فإنَّه مُرْسَل إلى العَرَب إلى قومِهِ، وبعد ذلك لم يُنذَرْ هؤلاء.

قال بعض المُعْربينَ الذين يجمعُونَ الأقوال -صَحَّتْ أو لم تصِحَّ؛ أي إنَّهم يقولون أيَّ احتمال- قالوا: ويجوز أن تكون (ما) موصولة؛ أي: (لِتُنْذِرَ قومًا الذي أنْذِرَهُ آباؤهم) فيجعلون ما موصولةً، ويجعلونَ العائِدَ محذوفًا؛ تقديرُهُ (الذي أُنْذِرَهُ

آباؤُهُم) أي: لتنذِرَهُم الذي أُنذِرَه آباؤُهُم، ولكنْ هذا وإن كان مُحتَمَلًا من قِبَلِ اللَّفظِ، لكن بعيدٌ مِن جِهَةِ المعْنَى؛ لأنَّ الآياتِ الكثيرةَ المتعدِّدةَ تدُلُّ على أنَّ قريشًا الذين بُعِثَ فيهم النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ لم يُنذَرْ آباؤهم، ومنه قوله تعالى في سورة (الم) السَّجْدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة:٣]، وهذا صريحٌ في أنَّ (ما) هنا للنفي لا غيرُ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمْ﴾ أي: القومُ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ عن الإيمان والرُّشْد] غافلون؛ لأنَّهُم ما أتاهُم نذيرٌ، ومعلوم أنَّ النُّذُر تُوجِبُ حياةَ القُلُوبِ والانتباهَ.

ولِهَذا تَجِدُ الإنسانَ نَفْسَه إذا لم يأتِهِ واعظٌ يَغْفُل وتَكْثُر فيه الغَفْلة، فإذا أتاه واعِظٌ فكأنَّما أيقَظَه من نومٍ، هؤلاء لَمَّا تطاوَلَ عليهِمُ الأمَدُ ولم يأتِهِم نذيرٌ، غَفَلُوا وكأنَّهم ما خُلِقوا لعبادة الله، وجَعَلوا لهم أصنامًا يعبُدونها من دون الله، ويَركَعون لها، ويَسْجُدون، ويُنذِرُون ويُوفُونَ، فهم غافلونَ لعدَمِ مَن يُوقِظُهم، ولكن مِنْ هؤلاء الذين في زمن الفَترة من عِنْده عِلْمٌ من الرِّسالةِ لكنَّه عانَدَ وبَقِيَ على ما كان عليه آباؤه؛ كالذين شَهِدَ لهم النبيُّ ﷺ بالنَّار، فالذين شَهِدَ لهم النبيُّ ﷺ بالنَّار نعلمُ عِلْمَ اليقينِ أنَّ هؤلاء قد قامَتْ عليهِمُ الحُجَّة، ولولا ذلك ما كانوا من أهل النَّار، فأهل الفترة نوعان:

نوعٌ عَلِمْنا من شهادَةِ النبيِّ ﷺ أنَّه قد بَلَغَتْهُم الرِّسالةُ لحكمِ الرَّسُولِ ﷺ عليهم بأنَّهُم من أهل النَّار.

ونوعٌ لا ندري عنهم شيئًا، فالواجب علينا أن نتوَقَّف في أمرهم، وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عامِلِينَ.

وأصحُّ الأقوالِ فيهم أنَّهم مُمتَحَنونَ يومَ القيامَةِ بتكاليفَ اللهُ أعلَمُ بها، فمن أطاعَ منْهُم دخل الجنَّة، ومن عصى دَخَل النَّارَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ منذِرٌ؛ أي: مُعْلِمٌ إعْلامًا يتضمَّن التَّخويفَ.

فإن قِيلَ: وهل هُو مبشِّر؟

فالجواب: نعم، مُبَشِّرٌ، ولكنْ لِمَ ذُكِرَ هنا ذِكْرُ الإنذَارِ دونَ البِشَارةِ؟

والجوابُ على ذلك أن يُقالَ: إمَّا لأنَّ المقَامَ يقتَضِي ذلك، لأنَّه يخاطِبُ قومًا طاغِينَ، فالأَلْيقُ في حقِّهم الإنذارُ والتَّخويفُ؛ لأنَّهُم مُخالِفُون وطاغُونَ.

وإمَّا أن يُقالَ: إنَّ هـذا من بابِ ذِكْـرِ أحَدِ المتَقَابِلَينِ استغناءً بذكْرِه عن ذِكْـرِ الآخَرِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] يعني: والبَرْد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ النبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مُرسَلٌ إلى العَـرَبِ خاصَّةً؛ لقولـه: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، وهي نَكِرَةٌ مقصودةٌ، والذين ما أُنْذِرَ آباؤهم هُمُ العَرَبُ.

إِذَن: اليَهُودُ والنَّصارى ما أُرْسِل إليهِمْ؛ لأنَّهُم أُنْذِرَ آباؤُهم. ولكِنْ نَقولُ: إنَّ الآياتِ الأخرى تدلُّ على عُمُومِ رسالَتِهِ ﷺ مِثْل قَوْلِه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ومِثْل قَولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وكَقَولِه ﷺ: «**بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً**»[1]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٥٢٣)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والنُّصوصُ في هذا كثيرةٌ مُتوافِرَةٌ، ومن كذَّبَها فقد كَذَّبَ رسالَتَهُ إلى العَرَبِ أيضًا؛ لأنَّ الجِنْسَ واحِدٌ.

لكن قد يُقالُ: لماذا خَصَّ العَرَبَ؟

فيُقالُ: خصَّهُمْ لأمرَينِ:

الأَوَّلُ: أنَّه منْهُم، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة:٢].

والثَّانِي: أنَّه باشر دعوتَهُم بنفسِهِ، وهدى الله العَرَبَ على يديه قبل مَوتِهِ، ثُمَّ انتشَرَتْ رسالَتُه في الآفاق، وقد ذكر ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا قاعدة؛ وهي: «أنَّ ذِكْرَ بَعْضِ أفرَادِ العامِّ بِحُكْمٍ يوافِقُه لا يقتَضِي التَّخْصِيصَ»[1] كما ذكر ذلك أهلُ الأُصُول كالشِّنْقِيطيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره[2] وغيرِهِ، وأنَّ هذا هو رأْيُ الجمهورِ، وهو الحَقُّ، فذِكْرُ بعضِ أفرادِ العامِّ بحُكْمٍ لا يقتضي التَّخْصِيص إذا كان يُطابِقُ حُكْمَ العامِّ، فإذا قلْتَ: أكْرِمِ الطَّلَبَةَ. ثم قُلْتَ: أكْرِمْ زيدًا. وهو منهم، فإنَّه لا يقتضي تخصيصَ الإكرامِ به؛ لأنَّ الحكْمَ هنا موافِقٌ للحُكْمِ العامِّ، وذِكْرُ بعضِ أفرادِ العامِّ بحكمٍ يوافِقُ العامَّ ليس تخصيصًا له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: سَبُّ هؤلاءِ الذين غَفَلُوا عن الرِّسَالاتِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ وأنَّ الغَفْلَةَ عن البَحْثِ عن الرِّسالةِ تُعتبَرُ ذمًّا، وكذلك نقول فيمن غَفَلَ عن البَحْثِ في جزئيَّاتِ الشَّريعَةِ؛ فمثلًا من غفل عن البَحْثِ في أحكامِ الصَّلاة فإنَّه يُذَمُّ، ومن غفل عن البحث في أحكَامِ الزَّكاةِ وهو يَحتاجُ لذلكَ نقولُ: إنَّه يُذَمُّ؛

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٠).

(٢) أضواء البيان (١/ ٣٥٥).

ولهَذا نقولُ: إنَّ تعلُّمَ العِلمِ الشَّرْعِيِّ فَرْضُ كفايةٍ، ومن أراد أنْ يقومَ بعبادَةٍ من العباداتِ كان تَعَلُّمُ أحكَامِهَا فَرْضَ عَيْنٍ.

وبناءً على هذا نقول: كلُّ طلبةِ العِلْمِ في كلِّ مكانٍ قائِمونَ بفَرْضِ كِفايَةٍ، ولهَذا يَحْسُنُ بهم أن يَسْتَحْضِروا هذا الأمْرَ، وأنَّنا في مجَالِسِنا هذه نقومُ بفَرْضِ كِفايَةٍ نُثابُ عليه ثوابَ الفَرْضِ، وقد قال الله تعالى: «**مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**»[(١)].

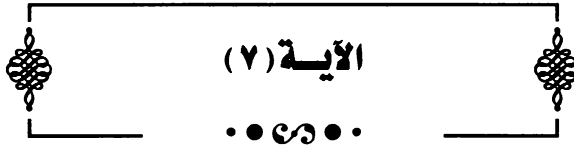
وهذه مسألةٌ يَغْفُلُ عنها كثيرٌ من الطَّلَبةِ، لا في مجَالِسِ الذِّكْرِ والعِلْمِ، ولا في المَجَالِسِ الأُخْرَى مجَالِسِ المُرَاجَعَةِ، تجد الإنسان يراجِعُ الكِتَابَ لكنَّه لا يَسْتَحْضِرُ أنَّه الآن قائِمٌ بفَرْضِ كفاية، وهذا يُفَوِّتُ خيرًا كثيرًا، لِهَذا نَسْأَلُ الله أن يُعِينَنَا على تذكُّرِ هذا المعنى حتَّى نكْسِبَ خَيْرًا بما نَقْرؤُه أو نُراجِعُه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الحِكْمَةِ لله المسْتَفَادُ مِنْ قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾.



---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس:٧].

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ اللامُ مُوطِّئَةٌ للقَسَمِ؛ أي: إنَّهَا تدلُّ على أنَّ هناكَ قَسَمًا مَحْذُوفًا؛ تقديرُهُ: واللهِ لَقَدْ حَقَّ. و(قد) للتَّحقيقِ، وعليه فالجمْلَةُ مؤكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: القَسَمِ المحذوفِ، واللامِ، وقد، وهذا التَّركيبُ يأتي في القُرْآن كثيرًا، وطَريقُهُ ما أشَرْنا إلَيْه.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ ﴾ أي: وَجَبَ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ هو القَوْلُ بالعَذَابِ؛ كقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:٣٣]. وفي الآية الأخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٦].

فَمَنْ حَقَّت عليه كلمةُ العذابِ فإنَّه لا يُمكِنُ أن يهتَدِيَ مهما أوتِيَ منْ آيةٍ، ولكنْ لا تَحِقُّ كلمةُ العَذَابِ إلا على من استَحَقَّها حتى لا يُقالَ: إنَّ الله تعالى قد أجْبَرَه على العَمَلِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، والله عَزَّوَجَلَّ ينظُرُ في قلوب العباد؛ فَمَن كان أهلًا للهِدَايةِ هداه، ومن لم يَكُنْ أهلًا لَهَا لم يَهْدِهِ، فمن حقَّتْ عليه الكَلِمَة لِمَا في قلبه من الزَّيْغِ -والعياذ بالله- فإنَّه لا يُؤْمِنُ.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني على أكثر الذين بُعِثَ إليهم الرَّسُولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من العَرَبِ، وليس على كُلِّهم؛ ولذا فقد كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ من قُرَيشٍ أُمَمٌ كثيرةٌ وماتوا

على الكُفْر، ولا سيما الصَّنَادِيدُ منهم والأَشْرَافُ، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: (هم) الضَّميرُ يعودُ على أكثَرِ، لا على (الهاء) في ﴿فَهُمْ﴾ (فهم) أي: الأَكْثَرُ لا يؤمِنُونَ؛ حتى وإن جِئْتَ بالآياتِ العَظِيمَةِ البيِّنَةِ فهُمْ لا يؤمنون؛ لأنَّهم حقَّتْ عليهم كَلِمَةُ العَذَابِ.

من فوائد الآية الكريمة:

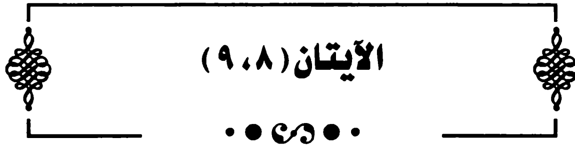
الْفَائِدَةُ الأُولَى: تأكيدُ الخَبَرِ الهامِّ وإنْ لم يَكُنِ المخاطَبُ مُنكِرًا؛ لأنَّ الله سبحانه هنا يُخْبِرُ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والمؤمنينَ وهُمْ لا يُنكِرُون ذلك، لكنْ لأهمِّيَّتِه أُكِّدَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ من حَقَّتْ عليه كَلِمَةُ العذابِ فإنَّه لا يُؤْمِنُ؛ كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩]؛ أي: فَقَدْ ثبتَ أنَّه في النَّار فلا تُنقِذُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ من قريشٍ الذين كذَّبوا الرَّسولَ ﷺ من لَمْ تَحِقَّ عليهِ الكَلِمَةُ فيؤْمِنُ؛ لقَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّه ينبغي بل يجب على الإنْسانِ اللُّجُوءُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنَّه هو الذي بيده ملكوتُ السَّمواتِ والأَرْضِ، فلا تعتَمِدْ على ما في قَلْبِكَ من رُسُوخِ الإيمانِ مثلًا، وتعتقِد أنَّه لن يتسلَّطَ عليك الشَّيْطانُ، ولن يتسرَّبَ إليك هوى النَّفْسِ الأمَّارة بالسُّوءِ، بل كُنْ دائمًا لاجئًا إلى الله تعالى سائلًا الثَّبَاتَ؛ لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ فالأمْرُ كُلُّه بيدِ اللهِ.





الآيتان (٨، ٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٨-٩].



﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: صيَّرْنَا؛ ولِهذا نَصَبَتْ مفعولَيْنِ؛ المفعولُ الأوَّلُ: أغلالًا، والمفعول الثَّاني: مُقَدَّم، ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾.

وقولُهُ: ﴿أَغْلَٰلًا﴾ الغُلُّ يكون باليَدِ، كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤]. وهنا قال: ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ فمعناه أنَّ اليَدَ سوف تُشَدُّ إلى العُنُقِ؛ ولِهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن تُضَمَّ إليها الأيدي؛ لأنَّ الغُلَّ يَجمَعُ اليَدَ إلى العُنُق، ﴿فَهِىَ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾]، قوله: [مجموعة] أخذها من قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ ويجوز أن نقدِّرَ بدَلَ [مجموعة] مُنْتَهِيَةً أو بَالِغَةً ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ جَمْع ذَقَنٍ، وهو مَجْمَعُ اللَّحْيَينِ، واللَّحْيَانِ هما العَظْمَان اللذان عليهما الأسنانُ، ومَجْمَعُهما يُسمَّى الذَّقَنَ.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رَافِعونَ رُؤُوسَهُم]، والأَحْسَنُ أن يقال: مَرفُوعُو الرُّؤُوس؛ لأنَّ اليَدَ مغلولةٌ إلى العُنُقَ تضيقُ على الذَّقَن، ثم يرتفِعُ الرَّأسُ قال: [رافعون رُؤُوسَهُم لا يستطيعون خَفْضَها] لو تصوَّرْتَ هذه الصُّورة لوجَدْتَها

صورةً بَشِعَة، وأنَّ الإنسانَ لا يتمكَّن معها من التَّصَرُّفِ الحُـرِّ؛ رَجُلٌ مَشْدُودةٌ يداه بعضهما إلى بعضٍ ثُمَّ مجموعةٌ إلى العُنُقِ من عِنْدِ الذَّقَن.

إذن: لا بدَّ أن يرتفِعَ رأسُهُ اضطرارًا، وزاد بعض العُلَماء في القُبْحِ أنَّها مُغَمَّضَةٌ أجفانُهُم؛ لأنَّه إذا ارتفع رأسُهُ باضطرارٍ فإنَّ من تمامِ الذُّلِّ أن يُغْمِضَ عَيْنَيْهِ، ولكنْ صنيعُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يدلُّ على أنَّه ليس بشرطٍ.

فالمهمُّ: أنَّكَ إذا تصوَّرْتَ هذه الحالَ عَرَفْتَ أنَّ هؤلاء لا تصرُّفَ لَهُم في أنفسِهِم، وأنَّهم لا يستطيعونَ أن يتصرَّفوا بأخْذٍ ولا رَدٍّ بالنِّسبَةِ لأيديهم، وبالنِّسْبَة لِرُؤُوسِهِم لا يستطيعُونَ تَنْزِيلَها، فهي دائمًا مرفوعةٌ، وهذا تمثيلٌ لِحالِ هؤلاء المكذِّبينَ؛ كما قال المُفسِّر: [وهذا تمثيل، والمرادُ أنَّهُم لا يُذْعِنُون للإيمان، ولا يَخفِضُون رُؤوسَهُم له].

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَدًّا﴾ بفتح السِّينِ وضَمِّها في الموضعين]، قراءتان سَبْعِيَّتانِ؛ أي: سَدًّا وسُدًّا ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي: أَغْشَيْنَا أَبْصارَهُم، جَعَلْنا عليها غِشَاوَةً بحيثُ لا تُبْصِرُ؛ ولِهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تمثيلٌ أيضًا لسَدِّ طرُقِ الإيمانِ عليهم] ليس هناك سَدٌّ حقيقيٌّ كالجِدَار مثلًا، أو ثوبٍ ساترٍ، بل هذا من باب التَّمثيلِ؛ كأنَّهُم لبُعْدِهِم عن الإيمان -والعياذ بالله- وانْحِجَابِ رُؤْيَتِهِم إياه كأنَّهُم جُعِلَ بينهم وبينه سَدٌّ من بين أيديهم فلا يتقدَّمُون، ومن خَلْفِهِم فلا يتأخَّرونَ، فهم ثابتون على الكُفْرِ لا يتقدَّمونَ ولا يتأَخَّرُون، ومع ذلك فإنَّ أبصارَهُم عليها غِشَاوَةٌ لا تُبصِرُ الحَقَّ ولا تَنْظُرُ إليه؛ ولِهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

فتأمَّلْ أيضًا حالَهُـم الآن، أيديهم مغلولَةٌ إلى أعناقِهِمْ من تحـت الأذقانِ وهم رافعون رُؤُوسَهُم، ومع ذلك بينهم وبين الإيمانِ سَدٌّ من الأمام ومن الخَلْـفِ، فهم

لا يستطيعون أن يَصِلُوا إلى الإيمانِ، ولا أن يَصِلَ إليهِمُ الإيمانُ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا أرادَ أن يَحْجُبَ الإيمانَ عن الشَّخْص جعله كالمغلولَةِ يَدُه إلى عُنُقِه؛ لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الذي جُعِلَت يدُهُ إلى عُنُقِهِ على سبيل الغُلِّ كأنَّه مُكْرَهٌ أن يكون على هذه الحالِ، وهكذا الشَّيطانُ يُوَسْوِسُ للإنسان حتى يوقِعَهُ في الهَلَاكِ كأنَّه مُكْرَهٌ على ذلك، ألم تروا إلى ما جرى للأَبوينِ حينَ جاء إليهما الشَّيْطانُ ووَسْوَسَ إليهما، ولم يكتَفِ بمجرَّد الوَسْوَاسِ بَلْ قاسَمَهُما وصار يَحْلِفُ لهما بشتَّى الأَيْمانِ أنَّه ناصِحٌ، فهكذا الشَّيْطَان يأتي الإنسانَ حتى يُغْوِيَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هؤلاءِ قد حُجِبَ عنهُمُ الهُدى، لا يتقدَّمُون إليه ولا يتأَخَّرونَ عنه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أبْصارَهُم قد أُغْشِيَتْ وجُعِلَ عليها الغِشَاوَةُ فلا تَنْظُر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تحذيرُ الإنسانِ إذا لم يَنْفَتِحْ له بابُ الْهُدَى أن يكونَ من جِنْسِ أولئِكَ، فإذا رأيْتَ نَفْسَكَ لا تعلَمُ الهُدَى ولا تَعْرِفُه وحِيلَ بينك وبينه فاعلَمْ أنَّكَ على خَطَرٍ، وإذا رأيتَ من نَفْسِكَ أنَّ الهدى ينفتِحُ لك ويَتبَيَّنُ، وينشرِحُ به صدرُكَ فاعلم أنَّكَ على خَيْرٍ، نحن نقيسُ هذا بِحَالِ هؤلاء؛ جُعِلَ السَّدُّ من بين أيديهِمْ ومن خَلْفِهِم وصاروا لا يُبْصِرونَ الحَقَّ، فإذا رأَيْتَ من نَفْسِكَ هذه الحَالَ فاعلَمْ أنَّكَ على خطَرٍ فتداركْهَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مِنْ بلاغة القُرْآن الكريم تمثيلَ المعقُولِ بالمَحسُوسِ.



الآيــة (١٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:١٠].

﴿وَسَوَآءٌ﴾ خبَرٌ مقدَّمٌ بمعنَى مُسْتَوٍ، و﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ مبتـدأٌ مؤخَّر مسبـوكٌ بمصدرٍ، وإن لم تكُنِ الهَمْزَةُ من الحروفِ المصدَرِيَّةِ، لكِنْ في مثل هذا التَّركِيبِ قال العُلماءُ: إنَّمَا تُسبَكُ وما بعدها بمصدرٍ، وتقديرُ الكـلامِ: (وإنذَارُكَ وعَدَمُه سـواءٌ عليهم) ﴿وَسَوَآءٌ﴾ هنا لم يَقُلْ فيها: (سَوَاءانِ) لأنَّها مصدر، والمصدَرُ لا يُثَنَّى ولا يُجمَع.

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان القـراءة في قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [بتحقيـق الهمزتين، وإبدالِ الثَّانِيةِ ألِفًا وتَسهِيلِها، وإدخالِ ألِفٍ بين المسَهَّلَة والأخرى وتَرْكِه]: إدخالُ ألفٍ بين المسَهَّلة والأخرى؛ يعني على قراءة التَّسْهِيل تجعلُ فيها ألفًا أو تَحْذِفُ الألِفَ؛ إدخالُ الألِفِ بين الهمْزَةِ المحقَّقَةِ والمسَهَّلةِ ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ تُمِدُّ الأولى وتُسَهِّل الثَّانِيَةَ فيكون عندنا ثلاثَةُ حروفٍ: الهمـزةُ الأولى مُحقَّقَة، والألِفُ، والهمْـزَةُ الثَّانِية مسهَّلَة، وتركه كما قُلنَاهُ في الأوَّلِ بدونِ أَلِـفٍ ستُحَقَّق الأُولَى وتُسَهَّل الثَّانِيَة بدون ألفٍ. هذه القِرَاءةُ سَبْعِيَّة؛ لأنَّ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من عادته إذا جاءت قراءةٌ شاذَّةٌ غيرُ سَبْعِيَّة يقول: (وقُرِئت).

وعلى كلِّ حالٍ: هـذا لا يَختَلِفُ فيه المعنَى، إنَّما هو في كيفِيَّة الأدَاءِ، أمَّا المعنى فلا يَختَلِف.

والمعنى أنَّ إنذارَكَ وعَدَمَهُ لـهؤلاء سَـوَاءٌ، ثُمَّ بيَّن وجْـهَ التسـويةِ فقال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا معنى التَّسْوِيَة، يعني معناه: أَنْذَرْتَ أم لم تُنْذِرْ فإنَّهم لا يُؤْمِنونَ؛ ولِـهَذا فالجملَةُ هنا اسْتِئْنافِيَّةٌ؛ بيانٌ للجُمْلَةِ الأولى، يعني أنَّهُم لا يؤمنون سـواءٌ أَنْذَرْتَ أم لَمْ تنذِرْ، وهذا أمْرٌ مُشاهَدٌ؛ أنَّ الإنسانَ الذي قد قُضِيَ عليه بالضَّلالةِ -والعياذ بالله- تأتي وتنْصَحُه مـرَّةً بعدَ أخرى وتبيِّنُ له وتحَذِّرُه، ولكـن لا يـزداد إلا نُفورًا -والعياذ بالله- حتى إنَّ بعضَ النَّاسِ يسخَرُ ويستَهْزِئُ.

فعلى كلِّ حالٍ: هذا الذي يُنذَرُ ولا يتأَثَّرُ بالإنذار يُخْشَى عليه، كما أسلَفْنَا مِنْ أن يكونَ قد طُبِعَ على قلبه وأنَّه لا يُؤْمِنُ أبدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هؤلاء المكذِّبينَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُبالُونَ ولا تتغيَّرُ حالُهُم، سواءٌ أنذَرَهُم أم لم يُنْذِرْهُم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تسليةُ النَّبيِّ ﷺ حيثُ إنَّه يتأثَّرُ بعدَمِ الإيمانِ فسَلَّاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنَّ هؤلاء قد حقَّتْ عليهِمْ كَلِمَةُ العذَابِ، وأنَّهُم لا يُؤْمِنُون، سواءٌ أَأَنْذَرْتَ أم لم تُنذِرْ. والرَّسُولُ ﷺ إذا لَمْ يهتَدِ النَّاس فإنَّه يشُقُّ عليه ذلك ويَضِيقُ به صَدْرُه؛ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] أي: لعلَّكَ مُهْلِكُها؛ إذْ لم يؤْمِنُوا، وهذا ليسَ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يُنْذِرُهم مع أنَّه قد أَيِسَ منهم، فيُستَفَادُ منه الإِنْذَارُ حتَّى وإن يَئِسْتَ، وهذا أحدُ القَوْلَيْنِ في المسألة، فإنَّ مِنْ أهْلِ العِلْمِ مَن يقول: إذا أَيِسْتَ فلا تُنْذِرْ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩] وإن لم تنْفَعْ فلا تُذَكِّرْ.

وقال بعضُ العُلَمَـاء: بل تُذَكِّرُ وتُنْذِرُ، سواءٌ نَفَعَ أم لم ينفع، بل يقولون: إنَّه لا يخلو من النَّفْعِ مهما كان؛ لأنَّ أقَلَّ ما فيها من النَّفْعِ أن يتبيَّنَ للنَّاسِ أنَّ العَمَل الذي عليه هذا الرَّجُلُ مَنكَرٌ، ولأنَّه ربَّما يهْدِيهِ الله عَزَّوَجَلَّ، فكم من أُنَاسٍ كانوا أئِمَّةً في الكُفْرِ ثم هَدَاهُم الله عَزَّوَجَلَّ فكانوا أئِمَّةً في الدِّينِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هـؤلاء قد حَقَّتْ عليهم كَلِمَةُ العذابِ، ومن حقَّتْ عليه الكَلِمَة فلا يُمْكِنُ أن يُؤمِنَ، سواءٌ أُنْذِرَ أم لم يُنْذَرْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأمْرَ كُلَّهُ بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي يَهْدِي من يشَاءُ، ويُضِلُّ من يَشَاء، ولكن هذا مَقْرُونٌ بالحكْمَةِ، فمن اقتضَتْ حِكْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يهتَدِيَ هَدَاه الله، ومَنِ اقتضَتْ حِكْمَتُه أن يَضِلَّ أضَلَّه الله، وهذا مبنِيٌّ على قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وحينئذٍ يكونُ حِرْمانُ اللهِ الهداية للشَّخْصِ، يكون الشَّخْصُ هو السَّبَبَ في حرمانِ نفسِهِ الهِدَايَةَ؛ لأنَّه ليس أهلًا لها، فالله عَزَّوَجَلَّ ينظُرُ في قُلُوبِ العِبَادِ؛ مَنْ وَجَدَ في قَلْبه صَلاحِيَةً للهُدى هداه، ومن وَجَدَ في قلبه عَدَمَ الصَّلاحِيَة لم يَهْدِه، فأصْلُ بلائِكَ من نَفْسِكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الضَّالَّ -والعياذ بالله- الذي كُتِبَتْ عليه الضَّلالَةُ لا يُبْصِرُ الحَقَّ وإن كان الحَقُّ بَيِّنًا واضِحًا؛ فإنَّه لا يُبْصِرُه، يكونُ على بَصَرِه غِشَاوةٌ، كما أنَّه لا يعقِلُه أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤] الذي يَعْتَقِدُ أنَّ القُرْآن أساطيرُ الأَوَّلِينَ وأنَّه لا يُفيدُ، وأنَّه بِمَنزِلَة سواليفِ العَجَائِز، يرى هذه الرؤية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه فاسِدُ القَلْبِ، قلْبُهُ قد رانَ عليه ما كان يَكْسِبُه من الأَعْمالِ السَّيِّئَة، فلم يَرَ الحَقَّ حقًّا.

وَمَــنْ يَــكُ ذَا فَــمٍ مُــرٍّ مَــرِيضٍ يَجِــدْ مُــرًّا بِــهِ المَــاءَ الــزُّلَالَا[1]

الماءُ الزُّلالُ الصَّافِي الحُلْوُ العَذْبُ يَجِدُه المريضُ مرًّا، فإذا مَرِضَ الإنْسانُ ذَاقَ المَاءَ الذي كانَ عَذْبًا في مَذَاقِه من قَبْلُ يَجِدُه الآن مُرًّا، لا لأنَّ الماءَ مُرٌّ، ولكِنْ لأنَّ المحَلَّ غيرُ قابِلٍ، فيَجِدُ هذه العُذُوبَةَ مَرارةً.



(١) البيت ينسب لأبي الطيب المتنبي. انظر: أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ص١١٨)، محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني (٢/ ٢٥).

الآيــة (١١)

• ● ∽ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١].

• ● ∽ ● •

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه الجُمْلَةُ فيها حَصْرٌ؛ طَرِيقُه: ﴿إِنَّمَا﴾ والتَّقديرُ: (لا تُنْذِرُ إلَّا مَنِ اتَّبَع الذِّكْر)، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ المَرادُ بذلِكَ إنَّما تُنْذِرُ الإِنْذَارَ النافِعَ، كأَنَّه قال: لا يَنْتَفِعُ بإنذارِكَ إلا مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ؛ ولِهَذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ينفع إنذارُك من اتَّبَعَ الذِّكْرَ: القُرْآنَ].

والمَرادُ بالاتِّبَاعِ في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ المَرادُ باتِّباعِ الذِّكْر شيئانِ:

الشَّيءُ الأَوَّلُ: تَصْديقُ الخَبَر، واعتقاد مُقْتضَاه.

والثَّانِي: امْتِثَالُ الأَمْر، واجْتِنَابُ النَّهْيِ.

هذا اتِّباعُ الذِّكْرِ فمَنِ استكبَرَ عمَّا فيه مِنَ الأَمْر، أو النَّهْي فإنَّه لم يتَّبِعْه، ومن لم يُصَدِّقْ بأخبارِهِ فإِنَّهُ لم يتَّبِعْه، فلا يتحقَّقُ اتِّباعُ الذِّكْر إلا بهذَينِ الأَمْرَينِ: تصديقِ الأخبارِ، واتِّباعِ الأحكامِ؛ فعلًا للمأمُورِ وتركًا للمَحْظُور، وقوله: ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ المرادُ به القُرْآنُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وسُمِّيَ القُرْآن ذِكْرًا:

أَوَّلًا: لِمَا فيه من التَّذْكِير والموْعِظَة: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

ثانيًا: لِمَا فيه مِن ذِكْر الأخبارِ الماضِيَة، وقَصَصِ الأنبياءِ الغَابِرَةِ المفِيدَةِ للقَلْبِ؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

ثالثًا: لِمَا فيه من ذِكْر أحْوَالِ النَّاسِ في الجَزَاءِ يومَ القِيامَةِ، وأَنَّهُم ينقَسِمُون إلى: فريقٍ في الجنَّةِ، وفريقٍ في السَّعِير.

رابعًا: لما فيه من ذِكْـرِ العَرَب ورَفْع شَأْنِهم؛ كمـا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤] فإنَّ القُـرْآنَ لا شَكَّ رَفَعَ من شَأْنِ العَـرَب، وجَعَلَهُم هم الأَمَّةَ الذين تَرْجِعُ إليهم الأُمَمُ، فإنَّ الأمم كُلَّها لم تهتَدِ إلا عَنْ طَرِيقِ العَرَب؛ فَفِي هذا رَفْعٌ لشَأْنِهم وعِزٌّ لمكانَتِهم، فالقُرْآن جاء بلغَتِهِم، ووَصَلَ إلى النَّاس عن طريقِهِم.

خامسًا: ذِكْرُ شريعَةِ اللهِ وأحكَامِهِ من الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي؛ لأنَّ هذا هو عَدِيلُ أخبارِ الأمَمِ السَّابِقَة، وأخبَارِ النَّاسِ في المستَقْبَلِ. فلِهَذا سُمِّيَ القُرْآنُ ذكرًا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾: (خَشِيَ) يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خافَهُ ولَم يَرَهُ]، وعليه فهذا من باب الحَدِّ اللَّفْظِيِّ؛ لأنَّه فُسِّر بمرادِفِه، فتفسيرُ الشَّيءِ بِمُرادِفِه يُسمَّى حدًّا لفظيًّا، فإذا قُلْـتَ: القَمْحُ هو البُرُّ. فهذا حَدٌّ لفْظِيٌّ، وتَفْسِيـرُ الخَشْيَة بالخَوْفِ فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ هذا الحدَّ غيرُ مانِعٍ؛ لأنَّ الخَشْيَة ليسَتْ مُجَرَّدَ الخَوْفِ، بلِ الخَشْيَةُ هي: الخَوْفُ عن عِلْمٍ بالمَخُوفِ وعَظَمَتِه، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

فالخَوْفُ قد لا يكون لعَظَمَةِ المَخُوفِ، ولكِنْ لضَعْفِ الخَائِفِ. لكنَّ الخَشْيَةَ لا تكونُ إلا لعَظَمَةِ المخُوفِ؛ إذا عَرَفَهَا الخَاشِي عَظُم هذا المخْشِيُّ فخَشِيَهُ.

إذَنْ: بينهما فَرْقٌ، فتَفْسيرُ الخَشْيَة بمطْلَقِ الخَوْفِ فيه نَظَرٌ، والصَّوابُ أن يقال: الخشْيَةُ هي الخَوْفُ عن عِلْمٍ بِعَظَمَةِ المَخُوفِ، فالخَشْيَة ناشِئَةٌ عن تَعْظِيمِ المْخْشِيِّ، أمَّا الخَوْفُ فَقَدْ يكون ناشئًا عن ذلك، وقد يكون ناشئًا عن ضَعْفِ الخَائِفِ.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ اختيارُ هذا الاسْمِ هنا دون ذِكْرِ لَفْظِ الجلالَةِ (الله) عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ الذي يَخْشَى الله تعالى يخافُهُ عن عِلْمٍ، فطَمْأَنَ اللهُ الخائِفَ والخَاشِيَ بأنَّه إنَّما يَخْشَى رحمانًا يَرْحَمُه، فكلَّما عَظُمَت خَشْيَتُكَ لله عَظُمَتْ رَحْمَةُ الله بك؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا خافَهُ الإنْسانُ وخَشِيَه، فإنَّه يرحَمُه؛ لأنَّه ما من إنسانٍ يَخْشَى الله حقيقةً إلا سيقومُ بأوامِرِهِ، ويجتنبُ نَوَاهِيَه، وحينئذ يكون متعَرِّضًا للرَّحْمَة، هذه المناسَبَة لذِكْرِ الرَّحْمَن دونَ ذكْرِ لفظِ الجلالة: (الله) واللهُ أعلم.

وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولَمْ يَرَهُ] كأنَّه يفسِّر أنَّ المرادَ بالغَيْبِ: أنَّه يَخْشَى الله مع غَيْبَةِ الله عنه، فيكون بالغَيْبِ حالًا من المخْشِيِّ؛ يعني: يَخْشَى اللهَ واللهُ غائِبٌ عنه، هذا أحَدُ الوجهَيْنِ في الآية.

الوجه الثَّانِي: يخشى الله بالغَيْبِ؛ أي: يخشى الله في حالِ الغيبةِ عن النَّاسِ، يَخْشَى الله في قَلْبِه في عَمَلٍ غائبٍ لا يَغْفُل، فيكون بالغَيبِ حالًا من الخاشِي؛ يعني أنَّ هذا الإنسانَ الذي أنذَرْتَهُ وانتفَعَ بإنذَارِكَ هو الذي اتَّبعَ الذِّكْر وخَشِيَ الله بالغَيْبِ حال كوْنِهِ غائبًا عن النَّاسِ، خَشِيَ الله بالغَيْبِ؛ أي: بالعَمَلِ الغائِبِ، وهذه هي الخشْيَةُ الحقيقيَّةُ؛ لأنَّ خَشْيَةَ الله تعالى في العلانِيَة قد يكون سَبَبُها مُراءاةَ النَّاسِ، ويكون في هذه الخَشْيَة شيءٌ من الشِّرْك؛ لأنَّه يُرائِي بها.

ولكِنْ إذا كان يَخْشَى الله في مكانٍ لا يَطَّلِعُ عليه إلا اللهُ فهذا هو الخَاشِي حقيقَةً، وكم من إنسانٍ عندَ النَّاسِ لا يفعَلُ المعاصيَ ولكن فيما بينَهُ وبين نَفْسِهِ يتَهاوَنُ بها. فهذا خَشِيَ النَّاسَ في الحقيقَةِ ولم يَخْشَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الذي يخشَى اللهَ لا بُدَّ أن يقومَ بقَلْبِهِ تعظيمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سواءٌ بِحَضْرَةِ النَّاس، أو بِغَيْبَةِ النَّاس.

أيضًا يخشى الله بالغَيْبِ؛ أي بما غابَ عن الأبْصَارِ نظرًا، وعن الآذَانِ سَمْعًا، وهو خَشْيَةُ القَلْب، وخشْيَةُ القَلْبِ أعظَمُ ملاحظةً من خَشْيَة الجـوارِحِ؛ لأنَّ الذي يخشَى الله بِقَلْبِه يكون مراقبًا لله عَزَّوَجَلَّ ولِحَقِّهِ أكثَرَ، فيجـب أن تراقِبَ خشيةَ القَلْبِ أكثَرَ مما تراقِبُ خَشْيَة الجوارِحِ؛ إذ خَشْيَةُ الجَوَارِحِ بإمكانِ كلِّ إنسانٍ أن يقوم بها حتَّى في بيته، فكُلُّ إنسانٍ يستطيعُ أن يقوم يصلِّي ولا يتحَرَّك، ينظر إلى موضِعِ سُجُودِهِ، يرفع يديه في مَوْضِعِ الرَّفْعِ؛ يعني يستقيم استقامةً تامَّةً في ظاهِرِ الصَّلاةِ، لكنَّ القَلْبَ غافِلٌ. أمَّا خَشْيَةُ القَلْبِ فهي الأصل، وهي التي يَجِبُ أن يراقِبَها الإنسانُ ويَحْرِصَ عليها حِرصًا تامًّا، وهذا معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

إذَن: الرَّاجِحُ من القولين أنَّ قوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يعود على الخاشِي؛ أي يخشى الله تعالى غائبًا عن الخَلْقِ، ويخشى اللهَ تعالى بِخَشْيَةٍ غائبةٍ لا تَظْهَرُ للعُيُون، ولا تَسمَعُها الآذانُ، وهي خَشْيَةُ القلبِ.

أما قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولم يَرَهُ] واعتبار أنَّ الغيْبَ هنا حالٌ من المخْشِيِّ، فهذا فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُرى في الدُّنْيا، ولكنَّ آياتِهِ البَيِّنَةَ الظَّاهِرَة كأنَّ الإنسانَ يرى بها ربَّه، ولِهَذا قال النَّبِيُّ ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فآيات الله سواءٌ الآياتُ الكونيَّةُ، أو الآياتُ الشَّرعيَّة كُلَّما تأمَّلَ فيها الإنسانُ ظَهَرَ له بها وُجُودُ الخَالِقِ، وظهر له كلُّ ما تضمَّنَتْه هذه الآياتُ مِنْ صِفَاتِهِ، ظُهُورًا بيِّنًا كأنَّما يشاهِدُ الله عَزَّوَجَلَّ، فالصَّوابُ إِذَن المعنَى الأوَّلُ؛ لأنَّنا نقول: وإنْ لَمْ نَرَ الله لكنْ نَرَى من آياتـه ما يدُلُّنا دلالةً قَطْعِيَّةً يقينيَّةً على وُجُـودِه وعظمَتِه، قولـه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ بعد قوله: ﴿تُنذِرُ﴾ من باب المتقَابِلاتِ؛ تُنْذِرُ فينتفِعُ بالإنذَارِ، وإذا انتفَعَ بالإنْذَارِ حصَلَ له الثَّوابُ فاستحَقَّ البِشَارةَ ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ هو الجنَّة بمغفِـرَةٍ للذُّنُوب، وأَجْـرٍ كريمٍ على فِعْل الحَسَنات، والكريـمُ يتضمَّنُ:

١- كرَمَ الذَّاتِ العينِيَّ.

٢- وكَرَمَ الصِّفَاتِ؛ كقول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ**»[1]. يعنِي الكريم بذاتِها وصفاتِها، الأجْرُ الكريمُ بذاتِـهِ إذا نظرْنَا إلى نَعيمِ الجنَّةِ بذَاتِـهِ، وجدْنَا أنَّه كريـمٌ، أكرَمُ وأجْمَـلُ وأحسنُ وأنفع من نعيم الدُّنيا؛ ففي الجَنَّة فاكِهَـةٌ، ونَخْلٌ، ورمَّان، وعَسَل، وخَمْر؛ إذا نَسَبْـتَ هذا إلى نعيم الدُّنيا وجدْتَ أنَّه أكرَمُ من نعيم الدُّنْيا بذاتِهِ، وبصفاتِهِ أيضًا، طَعْمُه ورائِحَتُه وغيرُ ذلك هو أيضًا أكْرَمُ.

٣- كريمٌ أيضًا من حيثُ المقابَلَةُ؛ فالحسنَةُ بعَشْرِ أمثالِهَا إلى سَبعِ مئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ. والأجْرُ في الدُّنيا يكون بقدْرِ العِوَض، تبيعُ عليَّ سيارةً بعَشْرَة آلافٍ ما أعطيكَ إلا عشرةً ما أَزِيدُ، لكن في الآخِرَة أجرُ الآخرةِ أكْرَمُ وأعْظَمُ؛ لأنَّكَ تبْذُل واحدًا وتُعطَى عشرَةً إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فصار كرمُ الأجْرِ في الآخرة مِنْ عِـدَّةِ وجوه؛ في: عينـه، وصِفَتِه، ومقابَلَتِـه أو معاوَضَتِه، فإنَّه أعظَمُ بكثير من عِوَض الدُّنْيا وأجْرِ الدُّنْيا [وأَجْرٍ كَرِيمٍ: هو الجنَّة] هذا تفسيرٌ للمُرَاد، لا للمعنى، ولا شكَّ أنَّ الجنَّة تشتمِلُ على ما ذكَرْنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّه لا ينتفِعُ من إنذار الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلا من اتَّصَـفَ بهذَينِ الوَصْفَينِ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: صحَّةُ نفْيِ الشَّيءِ إذا كان لا يُنتَفَعُ به وإن كان موجودًا؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ فإنَّ إنذارَهُ لغيـرهم حاصِلٌ، لكن لَمَّا لم ينتفِعُوا به صار وجودُهُ كالعَدَمِ بالنِّسبَة لهم، أمَّا المنْذِرُ فقد قام بما يَجِبُ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّه كُلَمَّـا كان الإنسانُ أتبَعَ للقُرْآنِ كان أشـدَّ تأثُّرًا به؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ وبهذا نَعرفُ القاعِدَةَ التي ذكرها بعضُ العُلمَـاء: «الطَّاعة تَجْلِبُ الطَّاعة، والمعصِيَة تجلِبُ المعصِيَة»؛ لأنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أتبعَ للقُرْآن صار أشَدَّ تأثُّرًا به؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّناءُ على هذا القُرْآنِ العظيمِ بأَنَّه ذِكْرٌ، وسبقت الأوْجُهُ في كونِهِ ذِكْرًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الخَشْيَة لله سببٌ عظيمٌ للتَّأثُّر بالقُرْآن والانتذَارِ به؛ لقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ فوائِـدِ الخَشْيَة لله، وأنَّها من أسبابِ الانتفاعِ بالقُرْآن، فكلَّما كان الإنسانُ أخْشَى لربِّهِ كان أفْهَمَ لكِلامِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الخشْيَة إنَّما تكون خَشْية حقيقيَّةً إذا كانت بالغَيْبِ، أمَّا من خَشِي الله تعالى بالعلانِيَة فقد تكون خشيَتُه مدخولةً، قد يكون خَشِيَ الله عَزَّوَجَلَّ من أجْلِ أنَّ النَّاس يرونَهُ، لكنْ إذا كان بالغَيْبِ كان أدَلَّ على الإخلاصِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن تُبَشِّرَ من اتَّصَفَ بهذينِ الوَصفينِ: وهما اتِّباعُ الذِّكْر، والخَشْيَة لله عَزَّوَجَلَّ بالغَيْبِ فبشِّرْهُ بالجَنَّةِ ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

ولكنْ هل تَنْطَبِقُ هذه البِشَارَةُ على كلِّ واحدٍ بعَيْنِه؟

الجواب: لا، بل هي على سبيل العُمُوم، وكلُّ شَخْصٍ اتَّصف بها تَثْبُتُ به الجنَّة على سبيلِ العُمُوم فإننا لا نَشْهَدُ له بعَيْنِهِ ولكنْ يُرجَى له ذلك؛ لأنَّه في الظَّاهِر قد انطبَقَ عليه سببُ الاستحْقَاقِ، لكنَّ البَاطِنَ لا نعلَمُهُ، كما قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»(١).

لِهَذا نقول في كلِّ مَنْ ينطبِقُ عليه وَصْفٌ يستحِقُّ به دُخُولَ الجَنَّة نقول: إننا لا نَشْهَدُ له بعينِهِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ له بعينه تحتاجُ إلى دليلٍ مُعَيَّنٍ، ولكننا نرجو له هذا؛ لأن ظَاهِرَ الأمْرِ أنَّه يستحِقُّ؛ لانطباقِ الأوْصَافِ عليه، لكن لا نَشْهَدُ لأنَّه يُخْشَى أن يكون باطِنُه غيرَ ظاهِرِهِ. وهذه القاعدة مُهمَّة مفيدَةٌ؛ مثلًا: قُتِلَ رجلٌ مِمَّن يجاهِدُ مع جيشٍ، ظاهِرُ جميعِ المجاهدينَ أنَّهُم يجاهِدُونَ لتكونَ كَلِمَةُ اللهِ هي العُلْيَا، فهل إذا قُتِلَ على أيدي الأعداءِ نَشْهَد بأنَّه شهيدٌ؟ لا نشهَدُ بأنَّه شهيدٌ، ولكن نقول: يُرجَى أن يكون شهيدًا؛ يعني من الشُّهَدَاء عندَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن ظَاهِرَ فِعْلِهِ ينطبِقُ على الشُّهَدَاء

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب لا يقال: فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن لا نَشْهَدُ له بعينه.

ولِهَذا ترجَمَ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه المسألَةِ في الصَّحِيحِ؛ قال: «بابٌ: لا يُقالُ فُلانٌ شَهِيدٌ» ولكِنْ كَلِمَة (شهيد) صارت الآن رخيصةً تُبذَلُ بأبْخَسِ الأثمانِ؛ فأيُّ واحدٍ يُقتَلُ ولو في قِتْلَةٍ جَاهِلِيَّةٍ، يقولون: هو شهيدٌ. وهذا لا يجوز، أتدري ما يستلزِمُ على شهادتِكَ له بأنَّه شهيد؟ يستلزِمُ بأنَّكَ شَهِدْتَ له بأنَّه من أهْلِ الجَنَّة.

وهذه مسألةٌ صعْبَةٌ، لكنْ كما قلنا آنفًا في القاعدة النَّافِعَة: «إنَّ مَنِ اتَّصَفَ بأوصافٍ ينطبِقُ على أهلِهَا هذا الجزاءُ فإنَّنا نرجو له ذلك» أما أن نَجْزِمَ فلا.

فهذا الذي اتَّبَعَ الذِّكْر وخَشِيَ الرَّحْمَن بالغيب، هل نَجْزِمُ له بالمغفِرَة والأجْرِ الكريمِ؟ نقول: نعم، من فَعَلَ ذلك نَشْهَدُ له على سبيل العُمُومِ، لكن على سبيل التَّخْصِيص نرجو له ذلك.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ البِشَارَةَ تكون بانتفاءِ ما يُكْرَهُ وبِحُصُول ما يُحبُّ ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ انتِفَاء ما يُكْرَهُ ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حُصُول محْبوبٍ، فيُهَنَّأُ الإنسانُ ويُبشَّرُ بزوالِ المكرُوهِ عنه، وبِحُصُول المحْبوبِ، اجتماعًا وانفرادًا، يعني سواء حصل له الأمران، أو حَصَل له أحدُهُما فإنَّه يُبَشَّر بانتفاءِ الشَّرِّ عنه، كما يُبَشَّرُ بِحُصُول الخَيْرِ له.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ خَشْيَة الرَّحْمَن بالغَيْبِ واتِّباعَ الذِّكْرِ يَحْصُل به مَغْفِرَةُ الذُّنُوب، والأجْرُ الكريمُ، فإنَّ ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ في مُقابِلِ الذُّنُوب ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ في مقابِلِ الثَّوابِ على الأعمال الصَّالِحَة.



الآيــة (١٢)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:١٢].

• • ◦ • •

مُنَاسَبَةُ هذه الآيةِ لِما قبلها، لها مُنَاسَبَتَان:

المناسَبَةُ الأولى: أنَّه لَمَّا ذَكَرَ حال من ينتفِعُ بذكرى الرَّسُولِ ﷺ ومن لا ينتفِعُ، بيَّنَ أنَّ كلًّا منهم سوف يحيا بعد موتِهِ، وسوف يُجازَى على عَمَلِه، فالمناسَبَةُ ظاهرة؛ ففيها بِشَارَةٌ للمُؤْمِنِ المُنْتَذِرِ، وفيها إنذارٌ وتخويفٌ لمن خالَفَ.

المناسَبَةُ الثَّانِيَة: أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَرَ حالَ هؤلاء المكَذِّبينَ فإنَّ تَكْذِيبَهُم بمنزلَةِ المَوْتِ، وإذا كان اللهُ قادِرًا على إحياءِ الموتَى إحياءً حِسِّيًّا فهو قادرٌ على إحياءِ هؤلاءِ الموتى بالكُفْرِ إحياءً معنويًّا؛ قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾: ﴿ إِنَّا ﴾ ضمير جَمْع، والله عَزَّوَجَلَّ واحِدٌ، فتُحْمَلُ هذه على التَّعظِيمِ قَطْعًا. ﴿نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾: ﴿نَحْنُ﴾ ضمير فصْلٍ؛ لأنَّها لو سَقَطَتْ وقيل: (إِنَّا نُحْيِي المَوْتَى) استقامَ الكَلامُ؛ فهي ضَمِيرُ فصْلٍ للتَّخْصيصِ؛ يعني: نَحْنُ لا غيرُنا، ﴿ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ جَمْعُ مَيِّتٍ، ويشمل الموتى من بنِي آدم وغيرِهِم، لكنْ قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ يَدُلُّ على التَّخصِيص، وهذا له نَظَائِرُ في القُرْآن والسُّنَّة، إذا جاء لفظٌ عامٌّ، ثم ذُكِرَ بعده حُكْمٌ يَخْتَصُّ ببعضِ أفرادِهِ، فهل هذا يُخَصِّصُ العُمُومَ أو لا يُخَصِّصُه؟

إذا نظرنا إلى تَصَرُّف العُلَمَاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ وجدنا أنَّهُم أحيانًا يجعلونه مُخَصِّصًا للعُمُوم، وأحيانًا لا يَجْعَلُونه مُخَصِّصًا للعُمُوم.

فمثلًا قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ [البقرة:٢٢٨] هذه الآيةُ فيها عُمُومٌ، وفيها حُكْمٌ يَخْتَصُّ ببعض أفرادِ هذا العُمُـوم. فقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ يَشْمَلُ مَنْ لَهَا رَجْعَة، ومن ليس لها رَجْعَة، فهذا العُمُومُ، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي بُعولَةُ المطلَّقَاتِ ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا﴾ هذا الحُكْمُ يختصُّ بالرَّجْعِيَّات.

فهل نقول: إنَّ المرادَ بالمطلَّقَاتِ في قـوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ المرادُ بها الرَّجْعِيَّاتُ أو هو عامٌّ؟ أكثرُ العُلَمَاءِ على أنَّه عامٌّ.

ومن السُّنَّة؛ قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قَضَى النَّبِيُّ ﷺ بِالشُّفْعَةِ فِي كلِّ مَا لم يُقْسَمْ، فَإِذَا وَقَعَتِ الْحُدُودُ وَصُرِّفَتِ الطُّرُقُ فَلَا شُفْعَةَ»[1] في هذا عُمُومٌ، وفي هذا حُكْمٌ تعقَّبَه يختصُّ ببعضِ أفرَادِ هذا العُمُوم، فهل نأخُذُ بالعُمُوم، أو نأخذ بما يقتضِيهِ الحُكْمُ المعقِّبُ؟ فقولُهُ: «قضى النَّبِيُّ ﷺ بالشُّفْعَةِ في كُلِّ ما لَمْ يُقْسَمْ» يشمَلُ كلَّ ما لم يُقْسَمْ حتَّى لو كان بينَكَ وبَيْنَه سيَّارةٌ تبيع نصيبَكَ منها ففيها الشُّفْعَة، أخذًا بالعُمُوم «بِكُلِّ ما لم يُقسَم» قوله: «فإذا وَقَعتِ الحُدُودُ وصُرِّفَتِ الطُّرُقُ فَلَا شُفْعَةَ» هذا يختصُّ بالأراضي.

فهل نقول: إن قوله: «في كُلِّ ما لم يُقْسَمْ» يختصُّ بالأراضي بدليل الحُكْمِ المفَرَّعِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب بيع الشريك من شريكه، رقم (٢٢١٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب الشفعة، رقم (١٦٠٨).

ونقول: إذا كان شريكان في سيَّارةٍ وباع أحدُهُما نَصِيبَهُ فلا شُفْعَةَ للثَّاني، أو نأخذ بالعُمُوم ونجعل هذا الحُكْمَ الخاصَّ لبعضِ أفرادِهِ يختصُّ به؟ فيه أيضًا خلافٌ في هذه المسألة.

والذي نحنُ فيها الآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يَشْمَلُ كلَّ ميِّتٍ حتى البَهَائم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ هذا خاصٌّ بالمكلَّفِينَ، فهل نقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: مِنَ المكلَّفينَ بدليل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ أو نقول: هو عامٌّ، وتعقِيبُهُ بحكْمٍ يختصُّ ببعضِ أفرادِهِ لا يقتضِي التَّخْصِيصَ؟

ينبني على الخلاف السَّابق، والعُلَمَاءُ يختلفُونَ في مثل هذا.

فنحن نقول: يُمكِنُ أن يُقالَ: الموتى الذين يُكْتَبُ لهم ما قدَّموا وآثارُهُم؛ بدليل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾.

وقد يقول قائلٌ: اعتَبِرْ بالعُمُومِ. ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ كلُّ مَيِّتٍ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ ما قَدَّمَ بعضُهُم وهم المكَلَّفُون.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وكُلَّ شيءٍ: نَصْبُه بفعلٍ يُفَسِّرُه: أحصيناه] ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾: (كُلَّ) هذه مفعولٌ لِفعْلٍ محذوفٍ يفسِّرُه قولُه: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ وعلى هذا فيكون التَّقْدِير: (أحصينا كلَّ شيءٍ) ولا تَجْمَع بين المُفسِّر والمفسَّر، ولا تَقُلِ التَّقْدِير: (أحصينا كلَّ شيءٍ أحْصَيناه) لأنَّه لا يُجمَعُ بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أَرَدْتَ أن تُقدِّرَ فَقُل: التَّقْدِير: وأحصينا كلَّ شيء في إمامٍ مبينٍ، لكن جُعِلَتِ الصِّيغَة على هذا الوَجْه ليكون لذِكْرِ المسْنَد إليه مَرَّتينِ لأن ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ والضَّمير في ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يعودانِ على شيءٍ واحِدٍ، فيكونُ هنا ذِكْرُ المعمُولِ مرَّتينِ،

مـرَّةً على أنَّه مفعول بفعل مقدَّر، ومـرَّةً على أنَّه ضميـرٌ لذلك المذكور وهو قوله: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾.

وهذا التَّرْكِيب يُسَمَّى عند النحويين الاشتغالَ، والاشتغالُ تجري فيه الأحكامُ الخَمْسَة: الوُجُوبُ، والاستحبابُ، والإباحةُ، والكراهةُ، والمنعُ، لكن هذا وُجُوب نحويٌّ وليس وُجُوبًا شـرعيًّا، يعني تارة يَجِبُ نصبُهُ، وتارَةً يمتَنِعُ، وتارة يتـرجَّح نصبُه، وتارة يتـرجَّح رفْعُه، وتارة يستوي الأمران، وفي مثل هذا التَّرْكِيب يتـرجَّح النَّصْبُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ فإذا جعلنا الواوَ حرْفَ عَطْفٍ والجُمْلةَ فعليَّةً ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ صار المعطوفُ جُملَةً فعليَّةً على جُملة فعليَّةٍ، ولو رفعْنا -والرفع هنا جائـز- وقلْنا: (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ) صار العَطْفُ هنا عطف جُمْلَةٍ اسْمِيَّة على جُمْلَة فِعْليَّة، والأنسَبُ أن نعطِفَ جُمْلَةً فعليَّةً على جُمْلَة فعليَّة؛ لأن تناسُبَ الجملتَينِ أَوْلَى من تضادِّهِما.

ولِهَـذا نقول: إنَّ النَّصْـب هنا أرجَحُ، مع جـواز الرفع؛ لولا أنَّه في كلام اللهِ ولا يُغَيَّر، لكان يجوز أن أقولَ: وكلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ؛ ولِهَذا لو قلنا: زيدٌ ضربتُه، يجوز أن أقول: (زيدًا ضَرَبْتُه) لكنَّ الرَّفْعَ أَرْجَحُ؛ لأنَّه الأصل، ليس فيه جُمْلَة نعطِفُ عليها، لكنْ لو قُلْتَ: (ضَرَبْتُ زيدًا وعَمْروٌ أكرَمْتُه) يجوز في (عمرو أكرمته) النَّصبُ ويجوز الرفع، لكن النَّصْب أرْجَح؛ لتناسُبِ الجمْلَتَينِ.

نحن نذكُرُ هذا على سبيلِ الاستِطْـرَادِ، ولكن القاعدة: إذا جاءت جُمْلَة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائيَّةً، أو معطوفَةً على جُملَةٍ اسْمِيَّة فالرَّاجِحُ الرَّفْعُ، وإن كانت معطوفةً على جُمْلَةٍ فعليَّةٍ فالرَّاجِحُ النَّصْب.

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ هل الذي يكتب الله عَزَّوَجَلَّ، أو الملائِكَةُ بأمْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟

الجوابُ: الملائِكَةُ بأمْرِ اللهِ؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٩-١٢]. وإسنادُ الكِتَابَـةِ إلى الآمِرِ موجودٌ في اللُّغَةِ العربيَّة كثيـرًا؛ يقول السَّيِّدُ: (كتبْـتُ كذا وكذا) والمرادُ كَتَبَهُ عَبيدُهُ، فهنا يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ والمراد ملائِكَتُنا؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ أي: ما قدَّمُوه في الدُّنيا من أعمالٍ صالِحَة؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يعمَلُ عملًا صالحًا في الدُّنْيا فإنَّه قد قَدَّمَهُ، بمنزلة السَّلَمِ، والسَّلَمُ في البَيْعِ أنَّ المشْتَرِيَ يقدِّمُ الثَّمَنَ، فأنتَ الآن مقدِّمٌ للثَّمَن، والمُثَمَّنُ يكون يومَ القيامة، وقد يكونُ في الدُّنيا ويومَ القيامة جميعًا، فأنت الآن إذا عَمِلْتَ عملًا صالحًا فقد قدَّمْتَ لنَفْسِكَ ثمنًا تأخذ عِوَضَه يوم القيامة، ثِقْ بِهَذا وأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

وقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نكتُبُ في اللَّوْحِ المحفُوظِ ما قدَّمُوا في حياتِهِم] هذا ما مشى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنَّ المرادَ بالكِتَابةِ هنا الكتابة باللَّوحِ المحفُوظِ، وهذا التَّفسيرُ مُخالِفٌ لظاهِرِ اللَّفْظ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ فعل مضارع، والمضارِعُ لا يُحْمَل على الماضي إلا بدليلٍ: دليلٌ لفْظِيٌّ كـ(لم) مثلًا: إذا دخَلَتْ على الفعلِ المضارِعِ جعلَتْهُ ماضِيًا، أو دليلٌ حَالِيٌّ يدلُّ عليه السِّياقُ.

وهنا لا دليلَ على أنَّ المراد ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في اللَّوحِ المحفُوظِ؛ لأنَّ الكِتابَةَ في اللَّوحِ المحْفُوظِ انتهَتْ. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥].

فاللَّوْحُ المحْفُوظُ انتهَتْ كتابَتُه، ولا يُمكِنُ أن تُصاغَ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ بشَيْءٍ انتهى، ولكنَّ المرَادَ (نكتُبُ) في صَحائِفِ الأعْمالِ، والذينَ يكتبُون الملائِكَةُ بأمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ ما قدَّمُوا في حياتِهم مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ لِيُجَازَوْا عليهِ، لكن ما قدَّمُوه من خَيْرٍ فهو مضْمُونٌ، وما قدَّمُوه من شَرٍّ فليس بمضمونٍ. لأنَّ الخَيْرَ لا يمكِنُ أن يُهْدَرَ منه شَيْءٌ، والشَّرَّ قد يَعْفُو اللهُ عنه إذا لم يَكُنْ شِرْكًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وهذا من مصلَحَةِ الإنسان إذا كان غيرَ مضمونٍ، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الآثارُ جَمْعُ أثَرٍ، والأثَرُ ما أعقبَ الشَّيءَ، ومنه أثَرُ القَدَم بعد المَشْيِ فإنَّه يَعْقُبُه، فما المرَادُ بآثارِهِم؟ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما اسْتُنَّ بهِ بَعْدَهُم] وهذا التَّفْسيرُ كمثالٍ وليسَ حصرًا؛ لأنَّ الذي يُكتَبُ بالآثارِ أكثرُ مِمَّا اسْتُنَّ به بَعْدَهُم؛ لقول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(١).

فمثلًا الصَّدَقَة الجارِيَة هذه من آثارهم، وإذا أوقفَ الإنسانُ مَزْرعَةً أو بُستَانًا على الفُقَرَاء وانتفعوا به بعد مَوْتِه، صار هذا من الآثارِ بلا شَكٍّ، وإن كان أصلُ التَّقديمِ في حياتِهِ لكنَّ النَّفعَ صار بعد مَماتِهِ، والعِلْمُ النَّافِعُ من آثارهم؛ فكلُّ ما انتُفِعَ به بعد مَوْتِه من عِلْمٍ فهو من آثارِهِ. والوَلَدُ الصَّالِح أيضًا من آثارِهِ؛ لأنَّ الوَلَدَ من كَسْبِ الإنسانِ، فإذا كان ولدًا صالِحًا يدعو لأَبِيهِ أو أمِّه فهو من الآثارِ، وما اقتدى به النَّاسُ من الأعْمالِ الصَّالِحَة، والأخلاقِ الحَمِيدةِ فهو أيضًا من الآثارِ؛ فما ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

على سبيلِ المثالِ، وهذا الذي قاله المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المرادَ بالآثارِ ما كان بعد مَوْتِ الإنسانِ هذا هو الصَّحيحُ.

وذهب بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بالآثارِ: الآثارُ التي يتقدَّمُوا بها إلى الطَّاعَةِ؛ كالمَشْيِ إلى الصَّلَواتِ، فإنَّ الله تعالى يكتب للإنسانِ كلَّ خُطوةٍ فيرفَعُ له بها درجةً، ويَحُطُّ عنه بها خطيئةً. واستدلَّ هؤلاء بأنَّ النبيَّ ﷺ قال لبني سَلِمَةَ: «دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»[1]، فجعل الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الآثارَ تُكْتَبُ، ولكنَّ هذا الاستِدْلالَ فيه نظرٌ؛ لأن قولَ الرَّسُولِ: «تُكْتَبْ آثَارُكُمْ» هذا مما قدَّمُوه في حَيَاتِهِم، ولكنْ سَمَّاه أثَرًا لأنَّه أثَرٌ، وهو المشْيُ والمسِيرُ.

فالصَّوابُ أنَّ الآيَةَ كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنَّ المرادَ بما قدَّموا: ما سبَقَ من أعْمَالٍ صالحَة في حياتِهم حتى آثار مسيرِهم إلى المساجِدِ، وآثارُهُم ما كان بعد موتِهم. قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ ضبطناه]، والإحصَاءُ بمعنى الضَّبْطِ مأخوذٌ من الحَصَى؛ لأنَّ العَرَبَ أمَّةٌ أمِّيَّةٌ لا يَكْتبُونَ، يضبِطُون الأشياءَ بالحَصَى وشِبْهِهَا، ويُقَدِّرُون بالرُّمْحِ وما أشْبَهَه، لا يقْرَؤون ولا يكتبُونَ، فكانوا إذا أرادوا ضَبْطَ الشَّيءِ أخَذُوا حَصًى، فإذا سألوا كم عددُ القومِ؟ أعطوه كِيسَ الحَصَى؛ ولِهَذا قال الشاعر[2]:

وَلَسْتَ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى ... وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

ولسْتَ بالأكثَرِ منهم حصًى؛ يعني أن قومَكَ ليسُوا بكثيرينَ، ويُضرَبُ المثَلُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب فضل كثرة الخطا إلى المساجد، رقم (٦٦٥)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البيت للأعشى ميمون بن قيس، انظر: ديوان الأعشى (ص١٤٣).

فيقَالُ: جاء قوم كُثُـرُ الحَصَى، فأحصيناه: ضبطناه، وسُمِّيَ الضَّبْـطُ إحصاءً؛ لأنَّ العَرَبَ كانت تضبِطُ الشَّيْءَ بالحَصَى.

قوله: ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كتابٍ مُبِينٍ]، هذا صحيحٌ ﴿فِىٓ إِمَامٍ﴾ الإمامُ يُطلَقُ على عِدَّةِ معانٍ يَجْمَعُها أنَّه مَرْجِعٌ، فإمامُ الصَّلاة مثلًا إمام؛ لأنَّه مرجِعٌ للمأمُومِينَ يقتدُونَ به، وإمامُ الحَكَمُ كذلك مرجِعٌ يرجِعُ النَّاسُ له، والكِتَابُ إمامٌ؛ لأنَّه مرجِـعٌ؛ كمـا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

إِذَن: ﴿فِىٓ إِمَامٍ﴾ في كتابٍ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّنٍ]؛ لأنَّ مُبِين هنا من الرُّباعِيِّ، مِنْ: أَبَانَ يُبِينُ فهو مُبِينٌ. أما بيِّنٌ فَهِيَ من الثُّلاثِيِّ، من: بَانَ يَبِينُ فهو بَيِّنٌ، وكَلِمَة (بان) و(أبان) تأتيان بمعنًى واحِدٍ؛ فيقال: بان الصُّبْحُ، وأبان الصُّبْحُ. وتنفرِدُ أَبَانَ بأنَّها تأتِي بمعنى أظْهَرَ وأَوْضَحَ، أبانَ الشَّيْءَ يعني أظْهَـرَهُ وأوضَحَهُ. فإذا جاءت كَلِمَـة (مُبِين) في القُرْآن الكريم فإنَّهَا تصلُحُ لأنْ تكونَ بمعنى (بيِّـن) وتصلح لأن تكونَ بمعنى (مُظْهِر ومُوَضِّح) لكن ليس كلُّ موضِعٍ جاءت فيه تصلُحُ للوَجْهَينِ جميعًا، قد تكون في موضِعٍ لا تصلح إلا بَيِّنٌ، فمثلًا: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] معناها: بَيِّن ظَاهِر، وقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان:١] بمعنى المُوَضِّح المُظْهِر، وهو إذا كان مُوَضِّحًا فهو واضِحٌ، لكنَّها هنا مُبِينٌ بمعنى مظهِر، أَبْيَنَ في المعنَى.

فكَلِمَة (مُبِين) إذا صَلَحَـت أن تكونَ من الرباعي الذي بمعنَى أظْهَـرَ، فهو

أولى من تفسيرِهَا بالثُّلاثِيِّ الذي بمعنى ظَهَرَ؛ لأنَّ المُظْهِر جامعٌ بين الظُّهُور بنفسِهِ والإظْهَار لغَيْرِه، فيكون معناه أشْمَلَ. وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإمام المُبينِ: [هو اللَّوحُ المحفوظ] وهذا صحيح؛ يعني: محتمَل، فإنَّ اللَّوحَ المحفُوظَ كُتِبَت فيه أعمالُ العِبَادِ، ولكن هنا (مُبِين) هل الأنسب أن تكون كما فسَّرَهَا المُفسِّر: بَيِّن، أو مُبين بِمعنَى مُظْهِر؟ هل المعنَى أنَّه كتاب بيِّنٌ، أو كتاب مُبِينٌ يُظْهِرُ الحقائِقَ؟

الظَّاهِرُ أنَّ المعنَى الأخيرَ أَوْلَى؛ لأنَّ هذا الكتابَ مُبِينٌ للأُمُور موضِّحٌ لها، وكما قلنا: ما كان مُبِينٌ فهو بَيِّن فهي صالحة لما يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو اللَّوحُ المحْفُوظُ] لأنَّه يقول: ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ أي: إنَّه قد انتهى، ويجوز أن تكون صحائف الأعْمال؛ لقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ قُدرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ في إحياءِ المَوْتَى، وقد بَرْهَنَ الله عَزَّوَجَلَّ على قُدْرَتِه على إحياءِ الموتَى بأدلَّة عقليَّةٍ، وأدلَّة حِسِّيَّةٍ.

فمن الأدلَّة العقْلِيَّة مثلُ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، فهذا دليلٌ عَقْلِيٌّ على إمكانِ إحياءِ الموتى، وَجْهُه أنَّ الإعادةَ أهونُ منَ الابْتِدَاء، فالقَادِرُ على الابتِدَاءِ قادِرٌ على الإعادةِ من بابِ أَوْلَى، وكما في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. هذا مثله أيضًا استدَلَّ الله تعالى بالابتِدَاء على الإعادَةِ.

أمَّا الأدلَّةُ الحِسِّيَّة فما أكثَرَ ما يَضْرِبُ الله الأمثَالَ بإحياءِ الأرضِ بعد موتِهَا على قُدْرَتِه على إحياءِ الموتى؛ مثل قوْلِه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ

أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت:٣٩]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق:٩-١١]. والآياتُ في ذلك كثيرة.

فقد بَرْهَنَ الله عَزَّوَجَلَّ على قدْرَتِه على إحياءِ الموْتَى بالأدلَّة العقليَّة، والحِسِّيَّـة؛ لتكونَ لذَوِي العُقُول دليلًا، ولذَوِي الأبصَارِ، والأدلَّة الظَّاهِرَة دليلٌ أيضًا، فالإنسانُ العقلانِيُّ -كما يقولون- نستدِلُّ له أو عليه بالعَقْل، والإنسان السَّطحِيُّ الذي لا يستدِلُّ إلا بما يشاهِدُ نستدِلُّ عليه بالأدلَّة الحِسِّيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشَارَةُ إلى أنَّ من لم يَخْشَ الله ولم يَتَّبعِ الذِّكْرَ فإنَّ الله قادرٌ على أن يُحْيِيَ قلبَه فيخشى الله ويتَّبعَ الذِّكر، ووَجْهُ الدَّلالة أنَّ الله تعالى ذَكَرَ هذا بعد أن ذكر انقسامَ النَّاسِ إلى من يَخْشَى اللهَ بالغَيْبِ ويتَّبعُ الذِّكْر، ومن لم يكنْ كذلك، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الله قادِرٌ على أن يَرُدَّ هؤلاء إلى الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ للإنسان: إمَّا له وإمَّا عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله تعالى يكتُـبُ كلَّ شَيْءٍ؛ القليلَ والكثيـرَ؛ لقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾ وما: اسم موصولٌ، والاسم الموصول يشكِّلُ الصَّغيرَ والكَبيرَ، ويدلُّ لذلك قولُهُ تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩]، ويدُلُّ عليه أيضًا في آخِرِ الآية: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأعمـالَ لا تَنْقَطِع بالموت؛ لقوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ والآثارُ

ذَكَرْنا أنَّها أنواعٌ: العلم، والصَّدَقَة الجارِيَة، والوَلَد الصَّالِح يدعو له، وسُنَّة يُحْيِيهَا فيَتْبَعُه النَّاسُ عليها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ حكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ في ضبطِ الأمورِ وإتقانِهَا، وأنَّه لا يَفُوتُه شَيءٌ؛ لقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن ما يُكتَبُ على الإنسان فإنَّه حَقٌّ بيِّنٌ واضِحٌ لا يَمْتَرِي فيه أحَدٌ؛ لقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ والشَّيْء المُبِينُ هو الذي يوضِّحُ الأشياء مع وُضُوحِهِ في نفسه وهو كذلك؛ ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤].



الآيات (١٣-١٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس:١٣-١٧].

(اضرب) قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [اجْعَلْ]، وهذا لا شكَّ أنَّه معنًى مقرِّبٌ للمعنى؛ أي: اجْعَلْ مثلًا، وقيل: إن (اضرب) بمعنى اتَّخِذْ؛ لأنَّ الضَّرْب يدلُّ على صناعةٍ وتكييفٍ، ومنه: ضُرِبَ الذَّهَبُ خاتمًا، وضُرِبَ الذَّهَبُ حُلِيًّا، وضُرِبَ الذَّهَبُ سِكَّةً، يعني نقودًا، بمعنى اتَّخَذَه حليًّا، اتَّخَذَه سِكَّةً وما أشبه ذلك، فشُبِّهَ ذكْرُ المَثَل للاعتبار به بصناعة الشَّيْء؛ لأنَّ المَثَل يشتمِلُ غالبًا على هيئةٍ مُتكامِلَة مركَّبَة من أجزاءٍ متعدِّدةٍ.

ولِهَذا لا يأتي المَثَل في تَشْبِيه مفرَدٍ بمفْرَدٍ، إنَّما يأتي المَثَل في تَشْبِيه صُورةٍ مُشْتَمِلَة على أجزاءٍ مُتعدِّدَة بِصُورة. فلِهَذا سُمِّي ضَرْبَ مَثَلٍ؛ أي: صُنْعَ مَثَلٍ، كما تصنَعُ الأَوَانِيَ والخواتِمَ وغيرَهَا من معادِنِهَا.

وقال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَهُم مَّثَلًا﴾ مفعولٌ أوَّلُ، ﴿أَصْحَٰبَ﴾ مفعولٌ ثانٍ]، وهذا الظَّاهِرُ أنَّه سَهْوٌ من المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، والصَّوابُ العَكْسُ؛ لأنَّ المضْرُوبَ هو أصْحَابُ القَرْيةِ، فيكون هو المفعولَ الأوَّلَ، و﴿مَّثَلًا﴾ هو المفعول الثَّاني، ففي إعراب

المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ انقلابٌ، فالصَّـواب: أن أصحاب القرية مفعولٌ أوَّل، و﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثانٍ؛ أي: اجْعَلْ أصحابَ القَرْيَةِ لِهَؤلاء المكَذِّبين لكَ؛ اجْعَلْهُم مثلًا يَعْتَبِرون به، والمَثَلُ والمِثْل كالشَّبَه والشِّبْه؛ أي: جَعْلُه أمرًا مشابِهًا حتى يتَّعِظُوا.

وكَلِمَة ﴿وَٱضْرِبْ﴾ الخطابُ فيها للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو لكُلِّ من يتأتَّى خطابُهُ، وسبق لنا أنَّ مِثْل هذا تارةً يكون صَـرِيحًا أنَّه عامٌّ، وتارةً يكون صَـرِيحًا أنَّه خاصٌّ بالرَّسُول ﷺ، وتارة يَحْتَمِل الوَجْهَينِ.

فمنَ الأشيَاءِ التي تكون صـريحَةً بِخُصُوصِيَّة الرَّسُول ﷺ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] فهنا الخِطابُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قطعًا. ومن الأشياء الصَّريحَةِ أنَّه عامٌّ مثْلُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] ولم يَقُل: (إذا طلَّقْتَ) فدلَّ على أنَّ الخطاب الأوَّل يرادُ به العُمُومُ.

وأمَّا احتِمَـالُ أنْ يكونَ خاصًّا بالرَّسُـولِ ﷺ أو عامًّا فهو كثيـرٌ في القُرْآن، والأَرْجَحُ أن نَجْعَله عامًّا؛ لأنَّه أشْمَل، فإذا جَعَلْناه عامًّا شَمِلَ الرَّسُولَ ﷺ وغيره.

إِذَن: نقولُ لأيِّ داعيةٍ الآن: اضرب مثلًا للمُكَذِّبينَ بهذه القَرْيَةِ.

﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنْطَاكِيَة] فجعَلَ (أل) للعَهْدِ الذِّهْنِي؛ يعني كأنَّها قريةٌ معـروفةٌ مفهومَةٌ، ولكن هـذا القول ضعَّفَهُ ابنُ كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرِه، وقال: «فعلى هذا يتعيَّن أنَّ هذه القريةَ المذكورةَ في القُرْآن قَرْيَةٌ أخرى غيرُ أَنْطَاكِيَـة، كما أطلق ذلك غيرُ واحدٍ من السَّلَف أيضًا، أو تكون أنطاكِيَـة -إن كان لفظُها محفوظًا في هذه القِصَّة- مدينة أخرى غيـر هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يُعرَف أنَّها أُهلِكَت لا في المِلَّة النصرانِيَّةِ ولا قبلَ ذلك. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٠٩-٥١٠).

وعلى هـذا فيكون المرادُ بالقَرْيَةِ هنا: قريةٌ غيـرُ مُعَيَّنَةٍ، وتكون (أل) للجِنْسِ لا للعَهْدِ الذِّهنيِّ؛ يعني: اضْرِبْ مثلًا لهم في قرية غيرِ مُعَيَّنةٍ، وهـذا هو الصَّحِيحُ؛ وذلك لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لو كان في بيانِ هذه القَرْيَة بعينها مصلَحَةٌ لَبَيَّنَها، وليس المقصودُ كما مرَّ علينا كثيرًا تعيُّن الأشخاص، أو الأماكنِ، أو الأزمانِ، ليس فيه كثيرُ فائدةٍ في الغَالِبِ، المقصودُ العِبْرَة في القِصَّة وما وَقَعَ.

ولِهَذا نرى بعضَ العُلَماء يتكلَّفُون مثلًا فيما إذا جاء اسْمُ رجلٍ في حديثٍ مُبْهَم يتكلَّفُون في طلَـبِ تَعَيينِه، وليس هـذا بلازمٍ، إلا أن يتـرتَّبَ على تعيينِهِ اختـلافٌ للحُكْمِ، أو إظهارٌ للمعنَى؛ فهذا شيءٌ آخَرُ، وهنا لا يَعْنِينا أن نعرِفَ ما هي القريةُ، ومن هُمْ أهْلُها، الذي يَعْنِينا العِبْرَة بما جرى في هذه القصَّة، فالصَّوابُ عدم تعيُّنها بأنطَاكِيَة.

﴿إِذۡ جَآءَهَا﴾ [بدلُ اشتمالٍ من أصحابِ القرية]، فتكون في محل نَصْـبٍ؛ لأن أصحابَ منصوبٌ، والبَدَلُ يتْبَعُ في الإعرابِ المُبدَلَ منه، فيكون ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ في محل نَصْـبٍ على أنَّه بدلٌ من أصحاب القريـة ﴿إِذۡ جَآءَهَا﴾ أي أصحابَ القَرْيـة ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي رُسُل عيسى] وهذا القول ليس بصحيحٍ، ولا دليلَ عليه، بل جاءها المرسلون الذين من جِنْسِ قوله في أول السُّـورَة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جاءها المُرسَلُون الذين هم من جِنسِ هؤلاء، وعلى هذا فهُم رُسُل من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وليْسُوا من قِبَل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال في تَفصِيـلِ هذا المَجِيء وهذه القصَّة: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ﴾ وهذا من عَجائِبِ القَوْلِ أن يقول بعض العُلَمَـاء: أي: رُسُل عيسى، مع أنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ ولم يَقُل: إذ أرْسَلَ إليهم عيسـى، بل قال: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ وعلى هـذا

فيتعيَّنُ أن يكون المرادُ بالرُّسُلِ المرسَلِينَ هنا رُسُلًا من عند الله، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ أي: إلى أصحاب القرية ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ من هؤلاء الثَّلاثَةِ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ التَّكذيبُ رَدُّ الخَبَرِ ونِسْبَتُه إلى خلافِ الوَاقِعِ، هذا هو التَّكذيب، فهؤلاء كذَّبوهُمَا وقالوا: هذا أمر ليس بصحيحٍ، ولسْتُم برُسُلٍ، فماذا كان؟

قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتَّخفيفِ والتَّشدِيدِ]. ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ هذا التَّشْديدُ، «عَزَزْنَا» التَّخْفِيفُ، والقراءتان سَبْعِيَّتَانِ؛ لأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكرهُما على حدٍّ سواءٍ، معْنَى (عَزَّزْنَا) قال: [قَوَّيْنا الاثنَينِ بثالثٍ] يعني لَمَّا كُذِّب الاثنانِ أرسل الله ثالثًا معهم لأجْلِ التَّقويَةِ، وهذا كقول موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه:٢٩-٣٢] فزيادة الواحد تُقَوِّي بلا شكٍّ.

ونحن نشاهِدُ حتى في أمرنا الواقع إذا قال شخص قولًا، ثم أَيَّدَهُ آخر ازداد قوَّةً ونشاطًا في تقريرِ هذا القول وتَثْبِيتِهِ، ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ الضَّمِيرُ يعود على الثَّلاثَة ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ أتوا بالجمْلَة المؤَكَّدَة بـ(إِنَّا)؛ لأنَّ الحال تقتضي ذلك، فإنَّهم قد كَذَّبوا وأنكَرُوا، فجاءت الجُمْلَة الثَّانِيَة مؤكَّدَة؛ لأنَّ المقام مقامُ تكذيبٍ.

ولكن لو قال قائل: لماذا لم تؤكَّدْ بأكثَرَ من مؤكِّدٍ؟

قلنا: هي أُكِّدَت بأكثَرَ من مؤكِّدٍ؛ أكِّدَت بمؤكِّد واحد لفظيٍّ وهو (إِنَّا)، وأكِّدَت بمؤكِّد معنوي وهو زيادة الرَّسُول.

ولو قال قائل: هل المقام مقامُ تأكيدٍ على سبيل الاستحسانِ، أو على سبيل الوُجُوبِ؟

قلنا: على سبيل الوُجُوب، فإذا قال: القاعدة أنَّه إذا كان على سبيل الوُجُوب فإنَّ التَّأكيدَ يتكرَّر، يعني يُؤتَى بإنَّ، واللام، والقَسَم، قلنا: هذا المؤكِّد مكرَّر، لكنَّه من نوعين: تأكيدٌ باللَّفْظ (إنَّ) وتأكيد بالمعنى: تقويتُهُم بثالثٍ: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ مُرسَلُون من قِبَل الله عَزَّوَجَلَّ، وهم يعلمون ذلك أنَّهُم ما دعوا الرِّسالةَ من شَخْصٍ وإنَّما هي من الله، فكان جوابُ هؤلاء جوابَ غيرِهم من المُكَذِّبين، والمُكَذِّبون يردُّون أقوالَ الرُّسُل، أحيانًا بنَفْي، وأحيانًا بإثباتٍ، ففي النَّفْي يقولون: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ﴾ وكما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ يعني: نسلِّمُ أنَّا بَشَرٌ مثلُكُم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١٠-١١] هذا جوابٌ بالنَّفْي. يعني أنتم بَشَرٌ لستم مَلائِكَةً حتى نَقْبَل.

وأحيانًا بالإثباتِ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

فصاروا أحيانًا يتَّهِمونَ الرُّسُل بالسِّحْر والجُنُون، وأحيانًا بالنَّفْي؛ يقولون: ما أنتم مَلائِكَةً حتى تَكُونوا رسلًا إلينا، ما أنتم إلا بَشَرٌ مثلُنَا.

فليس بِبِدْعٍ أن يقول أصحابُ هذه القَرْيَة لهؤلاء الرُّسُل: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ فأنكروا الرِّسَالَة من حيث جنسُ الرَّسُولِ، وأنَّه بَشَر، وأنكروا الرِّسَالَة إنكارَ جُحُودٍ بلا مُبَرِّر ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ مَنِ الذي يمنع فلم يذكروا حُجَّة قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ هذه الجُمْلَة نَفْيٌ و﴿مِن شَيۡءٍ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفْي فتَعُمُّ، ثم هذه النكرة مؤَكَّدة بـ(مِن) الزَّائدة؛ لأن قوله: ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ بمعنَى (شيئًا)، وقوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ قوله: ﴿إِنۡ﴾ بمعنى (ما).

ففي الجُمْلَـة حصـر طريقتـه: النَّفْي والإثبـاتُ ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعني: ما أنتـم إلا تكْذِبونَ، وهذا الحصر -والعياذ بالله- حَصْـرٌ هُم يرونَهُ إضافيًّا، فمعنى ما أنتم إلا تكذبون فيما تَدَّعُـون من الرِّسَالَة، ولا يلـزم أَنَّهُم يدَّعُون أَنَّهُم يكذِبُون في كلِّ شيءٍ؛ لكن فيما ذكروا من الرِّسَالَة، فصار إنكارهم مبنيًّا على أمرين:

الأَوَّلُ: أَنَّهُم بَشَرٌ، يعني كأَنَّهُم يقولون: لو كنتم رسلًا لكنتم مَلائِكَة.

الثَّاني: النَّفْيُ الذي لم يُبْنَ على شَيْء، وإنَّما هو مُجَرَّد إنكارٍ ومكابَرَةٍ ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

وهذا -لا شكَّ- من سَفَهِهِم؛ لأن إنزالَ الوَحْيِ على الرُّسُل لهداية الخَلْق أمرٌ يوجِبُه العَقْل فضلًا عن الشَّرْع؛ لأنَّ العبادَ لا يُمكِنُ أن يتعبَّدوا لله عَزَّوَجَلَّ إلا بشَيءٍ شَرَعَه ونَصَبَ لهم دليلًا عليه وإلا فكيف يتعبَّدُون؟! فإنزال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الوحْيَ للبَشَـرِ أمرٌ يقتضي العَقْلُ وُجُوبَه، مع أنَّ الله قد أوجبه على نفسه، كمـا قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [اللَّيْل:١٢].

فالله أوجَبَ على نفسه أن يُبَلِّغ عبادَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يُوَصِّلُهم إليه، وإلا لَضَلُّوا، إِذَن هذه المكابَرَةُ؛ وهي: دعوى أنَّ الرَّحْمَن ما أنزل من شَيءٍ؛ يُكَذِّبُها العقْلُ والشَّرْع؛ لأنَّ العقل يوجِبُ أن يُنْزِلَ الله على العباد شريعةً يتعبَّدونَ بها له لتُوصلَهُم إليه؛ إذ إنَّ العقل لا يهتدي كيف يَعْبُد الله، والشَّرْع: أوجَبَ الله تعالى على نفْسِهِ أن يُبْلِغَ عبادَه شريعتَهُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [اللَّيْل:١٢-١٣]، وقال تعالى في القُرْآنِ الكَريمِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٩] حيثُ أوجَبَ الله على نفسه أن يَهْدِيَ عِبادَهُ، وهذه هِدَاية البَلاغِ لا هِدَايةُ التَّوفيقِ، ولو كانت هدايةَ التَّوفِيقِ لاهتَدَى كلُّ أحَدٍ.

قوله: ﴿إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾. الكَذِبُ هو: الإخبارُ بخلافِ الواقِعِ، إِذَن أنتم أخبَرتُمُونا أَنَّكُم رُسُل، والواقِعُ أَنَّكُم لسْتُم برُسُـلٍ، ماذا قالوا لهم؟ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ الآن أكَّدُوا الرِّسالَة بثلاثَةِ مؤكِّداتٍ:

الأَوَّلُ: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ لأنَّ هذا جارٍ مجْرَى القَسَمِ.

والثَّاني: ﴿إِنَّآ﴾.

والثَّالث: اللامُ. لشِدَّة إنكارِهِم.

فإذا قلنا: إنَّ هـذه ثلاثَةُ مؤكِّـداتٍ مع التَّأكيدِ الأوَّل، وهو زيادة الثَّالـث، فأكدت الرِّسَالَة بأربعَةِ مؤكِّداتٍ.

﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ﴾ قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جارٍ مجْرى القَسَمِ، وزِيدَ التَّأكيدُ به وباللَّامِ على ما قَبْلَه لزِيَادةِ الإنكَارِ] أربعة مؤكِّداتٍ، لكنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يعتبِرِ تأكيدَ الإرسالِ، مع أنَّه بلا شكٍّ مُؤَكِّدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التبليـغُ المُبِينُ[1] الظَّاهِرُ، بالأدِلَّة الواضِحَة]، هذا حصْـرٌ حقيقيٌّ؛ أي: ما عليهم في جَانِبِ الرِّسَالَة إلا البلاغُ المُبينُ في جانب الرِّسَالَة، فقولنا: (في جَانِبِ الرِّسَالَة) يقتضي أن يكون حَصْرًا إضافيًّا؛ لأنَّ عليهم سوى البلاغِ أنْ يقوموا بعبادَةِ الله الخاصَّة التي هي غير التَّبليغِ، لكن هي بجانِبِ الرِّسَالَة ما عليهم إلا البلاغُ المُبينُ، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التَّبْلِيغُ] كَلِمَة بلاغٍ بمعنَى تبليغٍ، فهي اسمُ مصدَرٍ من بَلَّغَ يُبَلِّغُ، كمـا يقال: كلَّم يكلِّم، المصدَرُ كلامٌ، واسْمُ المصدَرِ كلام، بلَّغ يبلِّغُ تبليغًا هذا مصدَرٌ، واسم المصدر

---

(١) في بعض النسخ (البين).

بَلاغٌ، أمَّا تفسيرُ المُبين بالبَيِّن فهذا قد يقال: إنَّ فيه نظرًا؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّ المُبينَ بمعنى المُظْهِر، يعني البَلاغ المُظْهِر لحقيقَةِ الأَمْرِ الواقِعِ، وهو أنَّنا رُسُل من عنْدِ الله، وسَبَق لنا أنَّنا فسَّرْنا المُبينَ بالمُظْهِر على وَجْهٍ صحيحٍ صار متضَمِّنًا لكونه بيِّنًا؛ إذ لا يكون الشَّيءُ مُبينًا إلا وهو بيِّنٌ في نفسه، أمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التَّبلِيغُ البيِّنُ الظَّاهِرُ بالأدِلَّة الواضِحَة، وهي: إبراءُ الأَكْمَهِ، والأَبْرَصِ، والمريضِ، وإحياءُ الموتى] فهذا ليس بصحيح؛ لأنَّ هذا مبنِيٌّ على أنَّهُم رُسُل عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، والأَمْر ليس كذلك، لكنْ عليهِمُ التَّبْلِيغُ البيِّنُ بالرِّسَالَة فيُبلِّغون تبليغًا بيِّنًا.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ ضَرْبِ الأمثَالِ ليُعْتَبَرَ بها؛ لقوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾، والخطَابُ كما سبق إمَّا للرَّسُولِ ﷺ أو لِكُلِّ مَن يتأتَّى خِطَابُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ العِبْرَة بما في القِصَّة من ضَرْبِ الأمثَالِ، وأنَّه ليس من الضَّرورِيِّ أن يُعيَّنَ المَثَلُ المضْرُوبُ؛ فهنا قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾. ولم يُعيِّنِ القَرْيةَ، ولم يُعَيِّنْ أولئك الأصحاب بِأَعْيَانِهِم؛ لأنَّه ليس هذا محَلَّ عِبْرَة، بل العِبْرَة في القِصَّة كلِّها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لن يَدَعَ الخَلْقَ بلا رُسُل؛ لقوله: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وقوله: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ في تَعْزِيز الرِّسَالَةِ بالصِّيغَةِ والعَدَدِ؛ لأنَّه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فهنا التَّعزيزُ بالثَّالِثِ تَقْوِيةٌ فعليَّةٌ، والتَّأكيدُ بـ﴿إِنَّآ﴾ تقويَةٌ لفظيَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جوازُ تعدُّدِ الرُّسُل مع اتِّحادِ المُرْسَلِ إليه؛ لأنَّ الله أرسَلَ لهذه القَرْيَة اثنينِ ثم عَزَّزَهُما بثالثٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الذين يُكَذِّبون الرُّسُل ليس عِنْدَهم إلا المكَابَرةُ، وليس عندهم حُجَّة عَقْليَّةٌ أو نقليَّةٌ لقولِهِم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ كلُّ هذه الجُمَلِ الثَّلاثِ ليس فيها أيُّ حُجَّةٍ تُسَوِّغُ تكذيبَ هؤلاء الرُّسُل؛ لأنَّكَ إذا رأيتَ هذه الحُجَجَ الثَّلاثَ أو الشُّبَه لم تَجِدْ فيها حُجَّةً:

الأُولَى: أنَّهُم رَدُّوهم لأنَّهُم بَشَرٌ مِثْلُهم، وقد سبق في التفسير بيانُ الرَّدِّ عليها، وأنَّه لا يُمكِن أن يُرْسَلَ للبَشَرِ إلا بَشَرٌ مثلُهُم، حتى لو أُنْزِلَ إليهم مَلائِكَةٌ فإنَّ الملائكَةَ لا بُدَّ أن يكونوا على صورة البَشَرِ، وحينئذ تعودُ الشُّبْهَة.

الثَّانِيَة: ما أنزل الرَّحْمَنُ من شَيءٍ، فهذا نفيٌ مُجَرَّد بدون ذِكْرِ حُجَّة، وليس هذا بدَليلٍ للخَصْمِ إطلاقًا؛ لأنَّ نَفْيَ قَوْلِ الخَصْمِ بدون حُجَّة ما هو إلا مُكابرةٌ.

الثَّالِثَة: وكذلك قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيانُ أَنَّ المعَانِدِينَ للرُّسُلِ ليس عندَهُم إلا المكَابَرَةُ المحْضَةُ؛ كقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ﴾ وقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن حِكْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ تقتَضِي أنْ يُرْسِلَ للبَشَرِ بشرًا مثلَهُم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: جوازُ التَّأكيدِ بما يُشْبِهُ القَسَم؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾. وهل هذا أقوى من التَّأكيدِ بالقَسَمِ، أو التَّوكِيدُ بالقَسَم أقوى؟ الظَّاهِرُ أنَّ هذا أقوى من التَّوكِيدِ بالقَسَم؛ لأنَّهُم إذا قالوا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وإنْ لم يكونوا مُرْسَلِين استلزم قولُهُم هذا وَصْفَ الله بالجَهْلِ والعَجْز

والقُصُور؛ لأنَّهُم إذا قالوا: ربُّنا يعلَمُ إنَّا إليكُم لَمُرْسَلُون، ولم يكونوا مُرْسَلِينَ.

معناه: أنَّ الله عَلِمَ الحالَ على خِلافِ ما كانَتْ عليه، إذا فرضنا أنَّ الله يعلَمُ أنَّهُم مُرسَلُون وهم غَيْرُ مُرْسَلِين في الواقِعِ، لَزِمَ من ذلك أن يكونَ اللهُ جاهلًا بحالِهِم، وأن يكون اللهُ تعالى عاجـزًا عن الانتقامِ منهم وبيانِ كذِبِهِم؛ لأنَّهُم سيقـولون: إنَّا مُرْسَلُون، ويأخذون بمقتضى هذه الرِّسَالَة، والله تعالى يعلم أنَّهُم غيـرُ مُرْسَلِين، وهذا يستلزِمُ الجَهْل.

إِذَن: فالتَّأكِيدُ بمثل هـذا أشَدُّ من التَّأكِيد بالقَسَمِ لِمَا يتـرتَّبُ عليه من اللَّوازِمِ الخَطِيرةِ؛ ولِهَذا قال العُلَمَاء: لو قال قائل: اللهُ يعلَمُ أنِّي ما فَعَلْتُ كذا وهو فاعلٌ، قالوا: إنَّ هذا يقتضي الكُفْرَ إذا كان يعلَمُ معنَى ما يقولُ، وما يلْزَمُ من قَوْلِه، ووَجْهُ ذلك ما أَشَرْنا إليه آنفًا من كَوْنِه يستَلْزِمُ أن يكون اللهُ جاهلًا وعاجزًا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: جوازُ التَّأكِيدِ بعِدَّةِ مؤكِّداتٍ في جانب المُنْكِرِ، بل قد نقول: إنَّ التَّأكِيدَ وَاجِبٌ إلا لفَائِدَةٍ؛ لقوله هنا: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ وقد سَبَقَ أنَّ الجمْلَةَ مؤكَّدَةٌ بثلاثِ مُؤَكِّداتٍ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاة والسَّـلام ليس عليهم هدايةُ الخَلْقِ، وإنَّما عليهم إبلاغُ الرِّسَالَة فقط؛ لقولهم: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه يَلْـزَمُ الرُّسُلَ أن يكون بلاغُهُم مُبِينًا مُظْهِرًا للأَمْـرِ على حقيقَتِهِ.

ويتفرَّعُ على ذلك: أنَّه لا إبْهَامَ في الشَّـرَائِعِ، وأنَّ الشَّـرَائِعَ كُلَّها واضِحَة، فإن جاء إبْهَامٌ في نَصٍّ، فهو مُبَيَّنٌ موضَّحٌ في نصٍّ آخَرَ، وإنْ بَقِيَ الإبْهَامُ قائمًـا فالعِلَّةُ في

فهم المخاطَبِ، إمَّا لقُصوره، أو لتَقْصِيره، أمَّا ما جاءت به الرُّسُل فإنَّهُ يحصُلُ به البَلاغُ المُبِينُ المُظْهِر لكلِّ ما تحتاج إليه الرِّسَالَة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾.



الآيتان (١٨، ١٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس:١٨-١٩].

﴿تَطَيَّرۡنَا﴾ أي: تَشاءَمْنَا، وأصْلُ التَّطَيُّرِ مأخوذٌ من الطَّيْرِ؛ لأنَّ النَّاس يَتَشاءمُونَ بالطُّيور، أو يتفاءَلُون بها، فيُرْسِلُون الطُّيُور فإن اتَّجهَت إلى اليَمِينِ أو اليَسَارِ أو الأَمَام أو الخَلْف، أو عادَتْ أو ذَهَبَتْ ولم تَعُدْ، تَشاءَمُوا أو تفاءلوا على اختلافٍ بينهم فيما يكون التَّشاؤُم أو فيما يكون التَّفاؤُل، ثم تعَدَّى الأَمْرُ إلى أن تكون الطِّيَرَةُ في كلِّ شيءٍ، وهي: (التَّشاؤُمُ بِمَرْئِيٍّ، أو مسموعٍ، أو زمانٍ، أو مكانٍ)، وهذا التَّطَيُّر قد يكون له أصْلٌ، وقد لا يكون له أَصْلٌ، قد يكون له أصْلٌ، وذلك فيما إذا عُوقِبُوا بمخالَفِةِ الرُّسُل فيَجْعَلُون تلك العُقُوبةَ من شُؤْمِ هـؤلاء الرُّسُلِ، كأنَّهُم يقولون: لولا أنَّكُم أَتَيْتُم إلينا ما حَصَلَـت لنا هذه العُقُوبةُ، وقد يكون هذا التَّطَيُّر لا أَصْلَ له، وإنَّما هو دَعْوَى مُجَرَّدة من هؤلاء المُكَذِّبين، وهم قد يتطَيَّرُون؛ بمعنى: أنَّه يَحُدُّ من حُرِّيَّاتِهم فيما تَهْوَاه أنفسُهُم، فيكون هذا شُؤمًا وتَضييقًا، مثل أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام يَنْهَونَهم عن عبادة الأَصْنَام، وهم يَهْـوَوْنَ عبادَةَ الأصنام، ومثل أنَّ الرُّسُل تأمُرُهُم بعبادةِ الله وحده، فيقولون: ضُيِّقَتْ علينا العِبادَة، فيجعلونَ هذا التَّضْييقَ بِزَعْمِهم شُؤْمًا، فيتطيَّرُون بالرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام.

والحاصِلُ: أنَّ التَّطيُّر بالرُّسُل له ثلاثُ حالاتٍ:

الأُولَى: تطيُّر بِحَدِّ الشَّـريعَةِ من أهوائِهِم وشَهَوَاتِهِم، فيقولون: هـذا تَضْيِيقٌ علينا، وهو شُؤْمٌ في زعمهم.

الثَّانِيَة: تطيُّرٌ بما يُصِيبُهم من العُقُوبات بسبب المخَالَفَة فيقولون: هذا شُؤْمُكُم.

والثالثة: دعوى مُجَرَّدة لا أصْلَ لَها، فيقولون: إنَّا تَطَيَّرْنا بكم لمُجَرَّد التَّشْويهِ لِمَا جَاءَتْ به الرُّسُل.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [انقِطَاعُ المَطَرِ عنَّا بِسَبَبِكم] هذا أحَدُ الوُجُوه الثَّلاثة التي أشَرْنا إليها آنفًا، بأنَّهُم يتطيَّرونَ بهم بِسَبَب العُقُوبَةِ التي تَحُلُّ بهم لمخالَفَتِهِم، ووجهٌ آخر: يتطَيَّرونَ بهم بِسَبَبِ الحَدِّ من بُلُوغ مآرِبِهِم في عبادَتِهِم وشهواتِهِم ومعامَلاتِهِم ومأكولاتِهِم ومَشْرُوباتِهِم، فيقولون: ضُيِّقَت علينا. الوجه الثَّالِثُ: تطيُّرُ المدَّعِي الذي ليس له أَصْلٌ، وقولُهُم: لانقطاعِ المَطَر عنَّا بسببكم؛ لتنفيرِ النَّاس عن متابَعَتِهِم. يُحتَمَل أنَّ هذا هو السَّبَب، ويُحْتَمَل أنَّ ما حَلَّ بِهِم من العُقُوبات الأخرى التي من جُمْلَتِها ما عاقب الله بها آلَ فِرْعَون: أَرْسَلَ عليهِمُ الطُّوفَان، والجَرَاد، والقُمَّلَ، والضَفَادِعَ، والدَّمَ والسِّنينَ، ونَقْصًا من الأموال والأَنْفُس والثَّمَرَات؛ تِسعَ عُقُوبات، ويمكن أن يكون هناك عُقُوباتٌ غيرُ هذه أيضًا.

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن دَعْوَتِنا إلى اتِّبَاعِكِم وتَرْك ما كنَّا عليه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الجملَةُ هذه جوابُ القَسَم، وليست جواب الشَّرْط؛ لأنَّها قُرِنَت باللامِ، وأُكِّدَت بنونِ التَّوكيدِ، وهذا يَدُلُّ على أنَّها جوابُ القَسَم، لا جوابُ الشَّرطِ؛ ولِهَذا أشار ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في الألفِيَّة حيثُ قال[1]:

---

(١) الألفية (ص٥٩).

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَمْ

﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الرَّجْمُ هو الرَّمْيُ بالحِجَارَةِ؛ ومنه رَجْمُ الزَّانِي المحصَنِ؛ أي يُرمَى بالحِجَارة حتَّى يَمُوتَ ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا﴾ لَيُصِيبَنَّكُم، ومَسُّ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ؛ فَمَسُّ الإنسانِ للإنسانِ له معنًى، ومسُّ العُقُوبات والمصائِبِ له معنًى، والمراد بالمسِّ هنا الإصابَةُ.

وقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العذابُ هو ما يَحْصُل لهـؤلاء الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام من هؤلاء المُكَذِّبين المعْتَدِينَ من الضَّرْبِ وشِبْهِهِ، ومنه الحَبْسُ أيضًا؛ فإنَّه عَذَابٌ ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى مُؤلِمٍ؛ فهو فعيلٌ بمعنى مُفْعِل، ومنه قول الشاعر[1]:

أَمِـنْ رَيْحانَـةَ الـدَّاعِي السَّـمِيعُ يُــؤَرِّقُنِي وَأَصْــحَابِي هُجُــوعُ

(السَّمِيعُ) بمعنى المُسْمِع، لا بمعنى السَّامِع، فأليم بمعنى مُؤلِم، لا بمعنى آلِمٍ، قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ هل هذا على سبيـل التَّنْوِيعِ، أو على سبيـل الجَمْع؟ يعني أنَّهُم يَرْجُمُونَهُم ويُعَذِّبونَهُم قبل الرَّجْم، أو أنَّه على سبيل التَّنْويع، وأنَّ الواو بمعنى (أو) أي: نرجُمَنَّكم حتَّى تَموتُوا، أو لَيَمَسَّنَّكم منَّا عذابٌ أليم دون الرَّجْمِ؟ الآية تحتَمِـلُ معنيَينِ، فإنْ جَعَلْناها للجَمْع فإنَّهَا ليسَتْ على سبيل التَّرْتِيب؛ لأنَّ الرَّجْم هنا سابِقٌ في الذِّكْر، لاحِقٌ في الواقع؛ لأنَّ العذابَ الأليمَ قبلَ الرَّجْمِ؛ إذ إنَّ الرَّجْمَ لا عَذَابَ بَعدَه، فيكون فيها تقديمٌ وتأخيرٌ، وأمَّا إذا جعلنا الواوَ بمعنى (أو) للتَّقْسيمِ، فيكون المعنى أنَّهُم توَعَّدُوهُم بأحَدِ أمرينِ: إمَّا الرَّجْمِ، وإمَّا العَذابِ المُؤلِمِ الشَّدِيد.

---

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾: ﴿قَالُوا۟﴾ الضَّمِيرُ يعودُ على الرُّسُل، يخاطِبونَ أصحابَ القَرْيَةِ الذين كذَّبُوهُم ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شُؤْمُكُم ملازِمٌ لكم؛ وذلك بِسَبَبِ كُفرهِم فَهُمُ الشُّؤْمُ على أنفُسِهِم، وليس الشُّؤْمُ من الرُّسُل، بل من هؤلاء ولو شاؤوا لآمَنُوا فزال عنهم ما حَلَّ بهم من العَذَابِ والنَّقْص.

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [همزةُ استفهامٍ دخلَتْ على (إِنْ) الشَّرْطِيَّة، وفي هَمْزَتِها التَّحقيقُ والتَّسهيلُ وإدخالُ أَلِفٍ بينها بوَجْهَيْهَا وبين الأخرى]، سبق مثلُ هذا وأنَّ فيها خَمْسَ قراءاتٍ، أو أَرْبَعَ قراءاتٍ: التَّحقيقُ، والتَّسْهيلُ، فيقال (أَإِنْ) هذا التَّحقيقُ، والتَّسْهيل، (أإن) بدون بيان الهمزة، إدخالُ ألفٍ بينهما بوَجْهَيها يعني وعدم الإدخال، فإدخَالُ أَلِفِ التَّحقيق؛ تقول: أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ، وبالتَّسْهيل أَإِنْ هذا إدخال ألف بينهما، وبين الأخرى التي هي هَمْزَة إِنْ، والقراءات كلها سَبْعِيَّة.

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وُعِظْتُم وخُوِّفْتُم، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ أي: تَطَيَّرْتُم وكَفَرْتُم]، قوله: ﴿أَئِن﴾ حرفُ شرط، والشَّرْط يحتاج إلى فعلِ شرطٍ، وإلى جواب الشَّرْط، أمَّا فِعلُ الشَّرْط فمذكورٌ وهو قوله: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ أمَّا جوابُ الشَّرْط فمحذوفٌ، تقديره، يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَطَيَّرْتُم وَكَفَرْتُم].

ولْنَنْظُرْ ماذا حَصَلَ من التَّذْكيرِ لنَعْرِفَ جواب الشَّرْط ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالذي حصل منهم أَنَّهُم تطيَّرُوا، وأَنَّهُم تَوَعَّدوا بالرَّجْم والعذاب الأليم، فيكون الجواب مطابقًا للمذكور؛ أي: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ تَطَيَّرْتُم، وتَوَعَّدْتُم بالرَّجْم والعذابِ الأليم، وكَفَرْتُم، قال المُفسِّر: [وهو مَحَلُّ الاستفهامِ. والمرادُ به التَّوبيخُ].

وهو -أي: جواب الشَّرْطِ المحذوفُ- مَحَلُّ الاستفهام؛ يعني: هو الذي ينصَبُّ عليه الاستفهامُ لا التَّذْكِيرُ؛ لأنَّ التَّذْكيرَ ثابِتٌ وليس فيه إنكارٌ، إنَّما الإنكارُ والتَّوبيخ بالتَّطَيُّر بهم، واعتدائِهم على الرُّسُل، فهو مَحَلُّ الاستفهامِ الذي يرادُ به التَّوْبيخُ؛ يعني أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام وَبَّخُوهُم وقالوا: أتتشاءَمُون وتتوعَّدُون؛ لأنَّنا ذَكَّرْناكم، فهذا هو محلُّ الاستفهام، وإنَّما نصَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك؛ لأنَّه قد يظُنُّ الظَّانُّ أنَّ مَحَلَّ الاستفهامِ هي الجملةُ المَوالِيَة لأداة الاستفهامِ وهي قوله: ﴿أَإِن ذُكِّرْتُم﴾، والواقعُ أن مَحَلَّ الاستفهَامِ هو جواب الشَّرْط، لا الشَّرْطُ المذكور، وهو -أي: الاستفهام- للتَّوبيخِ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ هذا إضرابُ انتقالٍ؛ يعني انتقَلُوا من الإنكارِ عليهِمْ بكونِهِم يُكَذِّبُون الرُّسُل ويتوعَّدُونَهُم ويتطيَّرون بهم إلى وصْفِهِم الحقيقيِّ وهو أنَّهُم قومٌ مُسْرِفون، والإضرابُ يكون للإبْطَالِ، ويكون للانتِقَالِ؛ فإذا قلتَ: جاء زيدٌ بل عَمْرٌو، فهذا إضراب إبطال، وإذا قلْتَ: زيد في شَكٍّ بل هو مُنْكِرٌ، فهذا إبطال انتقال؛ ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، ومنه هذه الآية الكَريمَة: ﴿أَإِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وقوله: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ أي: مُتجاوِزُون للْحَدِّ، ووَجْهُ التَّجاوُزِ:

أوَّلًا: أنَّهُم كذَّبوا الرُّسُل بلا بَيِّنَةٍ وبلا دليلٍ؛ لأنَّهُم اعتمدوا على ما ليس حُجَّةً لهم، ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقالوا: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ وقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ هذا إسرافٌ جاوزَ الحَدَّ.

ثانيًا: أنَّهُم تطيَّرُوا بالرُّسُل، وحقيقَةُ الأمرِ أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام مَحَلُّ تفاؤُلٍ؛ لأنَّ في اتِّباعهم الخَيْرَ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم

بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [الأعراف:٩٦]، وهؤلاءِ تطيَّروا بالرُّسُل وليسوا محَلًّا لِيُتَطَيَّرَ بهم.

ثالثًا: أنَّهُم توعَّدوا الرُّسُل بالعُدْوان عليهم إذا لم يَنْتَهُوا عن دَعْوَتِهم إلى الله تعالى، وإبلاغِهِم رِسَالَتَه؛ لقوله: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فكلُّ هذا من الإِسْرَافِ.

وهو كذلك من العُدْوَان أيضًا، ووَجْهُ ذلك:

أوَّلًا: أنَّه لا يجوز للإنسان عقلًا أن يَرُدَّ شيئًا بلا بَيِّنَةٍ، مع أنَّ هؤلاء الرُّسُلَ لا شَكَّ أنَّهُم أَتَوْا بآية تدلُّ على صِدْقِهم، ما بَعَثَ الله رسولًا إلا أعطاه ما على مِثْلِهِ يُؤْمِنُ البَشَر.

ثانيًا: تطَيُّرُهم بالرُّسُل، والحقيقَةُ أنَّ التَّطَيُّرَ من أعمالِهم هم؛ لأنَّ الرُّسُل قالوا وَصَدَقوا فيما قالوا: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ فتطَيُّرُهم بالرُّسُل قلْبٌ للحقيقة؛ لأنَّ حَقِيقة الأمْرِ أنَّ التَّطَيُّرَ من هؤلاء.

الوجه الثالث: أنَّهُم توعَّدوا الرُّسُل ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هؤلاء المُكَذِّبين تشاءَمُوا بالرُّسُل، وهذه دعوى باطِلَة، يدَّعِيها كلُّ مُكَذِّب بالرُّسُل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المُكَذِّبين بالرُّسُلِ يُدعَى عليهم ما لم يكُنْ منهم تشويهٌ وتنفيرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عُدوانِ هؤلاء المُكَذِّبين للرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ حيث توعَّدوا الرُّسُل إنْ لم يَنْتَهوا عن الدَّعْـوة إلى الله بالرَّجْم المـؤدِّي إلى الهَـلاكِ، أو بالعَذَابِ الأليمِ إنْ لم يَرْجُمـوهُـم. وهـذا فيه غايةُ العُـدْوَان العَظيمِ على عباد الله، فهؤلاءِ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّـلام كما قال مُؤْمِنُ آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]، فهؤلاء المُكَذِّبون للرُّسُل الذين يتهدَّدونَهُم بالقَتْلِ والرَّجْمِ والعَذَاب الأليم من أشَدِّ النَّاس عدوانًا؛ لأنَّهُم اعتَدَوْا على الحقِّ وعلى حامِلِ الحَقِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسانَ شُؤْمُه بعمَلِهِ، وليس بدَعْوَتِه إلى الحَـقِّ؛ لقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الذُّنُوب والتَّكذيبَ للرُّسُل يكون سببًا للمَحْقِ والبَلاء؛ لقوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وهذا هو هذه هي سُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ في جميع المُكَذِّبين للرُّسُل؛ أنَّ الله يبتَلِيهِمْ بالعُقُوبات لعلَّهُم يرجِعُون.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإنْكارُ على مَنْ ذُكِّرَ فأعْرَضَ؛ لقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جوازُ حذفِ ما عُلِمَ بالسِّياقِ، ولا يُعَدُّ هذا نقصًا في الكلام وبلاغَتِهِ؛ لأن جواب الشَّرْط محذوفٌ لدَلالَتِه عليه، ورُبَّما يكون الحَذْفُ أبلَغَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هؤلاء القومَ كانوا مُسْرِفين على أنفُسِهِم متجاوِزينَ للحَدِّ؛ لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. وسبق بيانُ وجْهِ إسرافِ هؤلاءِ وتجاوُزِهِمْ للحَدِّ.



الآيات (٢٠-٢٢)

• ● ◌ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٢٠-٢٢].

• ● ◌ ● •

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو حَبيبٌ النَّجَّار كان قد آمن بالرُّسُلِ، ومَنْزِلُه بأقصى البَلَد]. قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ أي: من أبعدها إلى المكان الذي فيه الرُّسُل والمُكَذِّبون لهم، وهو وَسَط المدينة؛ لأنَّ الغالب أنَّ العِلْم والحَضارة وكثْرَةَ السُّكَّان تكون في الوسط.

وهذا الرَّجُل كان في أبعد المدينة فسَمِعَ أنَّ هؤلاء كذبوا الرُّسُل وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد آمَنَ فجاء ينصَحُ قومَه، والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿رَجُلٌ﴾ وهو نَكِرَة غير مُعَرَّف، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [حبيبٌ النَّجَّار] وهذا الاسم والتَّعْيين لم يصِحَّ عن النبيِّ ﷺ ولعلَّه مُتلَقًّى عن بني إسرائيل، وموقِفُنا في مثلِ هذا ألَّا نُنْكِرَ وألَّا نُثْبِتَ.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ وهنا بَدْءُ بيانِ مكانِه قبل ذِكْرِه، وفي قصَّةِ مُوسى حين قُتِلَ القِبْطِيُّ ذُكِرَ الرَّجُل قبل مَكانِه، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص:٢٠]، وهنا ذُكِرَ المكانُ قبل ذِكْرِ

الرَّجُل ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ وذلك لأنَّ هذا الرَّجُل كان مؤمنًا فسَهُل عليه أن يأتِيَ من المكانِ البَعيدِ، فذُكِر مكانُه لبُعْدِه ليُستدَلَّ به على قُوَّةِ مَحبَّةِ هذا الرَّجُل للخَيْر ودَفْع الشَّرِّ. أمَّا ذلك فالمقْصُود به العِلْمُ؛ أنْ يأتِي أحدٌ بالعِلْم، فبدأ بالآتِي وهو الرَّجُلُ قبل ذِكْر مكانِه.

وهنا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ وفي أوَّلِ الآيةِ قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ القَرْيَة تسمَّى مدينة، والمدينة أيضًا تُسمَّى قرية، فمكَّةُ سَمَّاها الله تعالى قَرْيَة وهي أمُّ القرى، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمد:١٣].

فالقَرْيَة ليست هي البلَدَ الصَّغيرَ كما يَظُنُّ كثيرٌ من النَّاس، بل القَرْيةُ تكون مدينةً؛ وذلك لأنَّ أصْلَ القَرْيَة معناه مأخوذٌ من القِرى، وهو التَّجمُّع؛ فإنَّ النَّاس يَجْتَمِعون فيها، فإن كانت بلدةً كبيرةً سُمِّيتْ في عُرْفِ النَّاس مدينةً، وإن كانت دون ذلك سُمِّيَتْ في عُرْفِ النَّاس قريةً. فالتَّفْريقُ بين القَرْية والمدينَةِ ما هو إلا اصطلاحٌ عرفِيٌّ فقط.

قوله: ﴿يَسْعَىٰ ﴾ أي: يَشْتَدُّ يرْكُض؛ لئَلَّا تَفُوتَهُ الفُرْصَة حين سَمِعَ بتكذيبِهِمْ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾: ﴿قَالَ ﴾ هذه جُمْلَة مفصولةٌ عمَّا قبلها؛ أي إنَّها أَتَتْ بدونِ حَرْف العَطْفِ كأنَّها جوابٌ عن سؤَالٍ مقدَّرٍ، تقديرُهُ فماذا قال حين جاء؟! ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ و(قَوْمِ) منادًى منصوبٌ بالنِّداء؛ لأنَّه مضافٌ، وقد حُذِفَت منه ياءُ المتكلِّم، وأصلها (يا قَوْمِي) ولكن حُذِفَتِ الياءُ للتَّخْفِيف، أو لالْتِقَاء السَّاكِنَيِن؛ لأنَّ اتَّبِعُوا مبدوءةٌ بِهمزَةِ وَصْلٍ، وهمزَةُ الوَصْلِ ساكنَةٌ.

قال الرَّجُل: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ولم يَقُلْ: يا أَيُّها السُّفهاء، يا أَيُّها الجُهَّال، بل قال: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ توددًا وتَعَطُّفًا لهم، ولم يَقُلْ: يا إخواني، لأَنَّه لا أُخُوَّةَ بين المؤمِن والكافِرِ، فهو مؤمِنٌ وهم كُفَّارٌ، لكن ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، يصِحُّ أن يقال: يا قَوْمِ ولو كانوا كُفَّارًا؛ قال الله تعالى مُخاطِبًا رسولَه ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦]، قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ اتَّبِعُوهم بما دَعَوْكُم إليه من الإيمانِ والعَمَل الصَّالِح؛ لأنَّ هؤلاء الرُّسُلَ عليهم الصَّلاة والسَّلام دَعَوْا إلى ما دَعَتْ إليه الرُّسُل كُلُّهم، وهو وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فَهُم دَعَوْا إلى هذا، إلى الإيمانِ والعَمَل الصَّالِح.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ كرَّرَ الأمْرَ بالاتِّبَاع من بابِ التَّأكِيد ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ ولو حُذِفَتِ اتَّبِعُوا الثَّانِيَة، وقيل: اتَّبِعُوا المُرسَلِينَ مَنْ لا يسأَلُكُم أجرًا، لَصَحَّ الكلامُ، لكن كُرِّرَتْ للتَّأكِيد؛ لأنَّها هي المقصود الأَوَّلُ بالخطَابِ؛ أن يَتَّبِعوا المرسلِينَ ﴿مَن﴾ أي: الذي، وهم الرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسَّلام، فإنَّهم يَدْعُون النَّاس ولا يأخُذُون ولا يَطْلُبون على دَعْوَتِهم من النَّاس أجرًا، لكنَّهم يَرْجُون من الله الأجْرَ، أمَّا من النَّاس فلا يأخُذُون أجرًا، فهم لا يتخذون أَجْرًا على دَعْوتِهم وعلى دَلالَتِهم إلى الخَيْرِ فإنَّما يرجونَ الأجْرَ والثَّوابَ من الله ﴿أَجۡرًا﴾ هنا محلُّها من الإعرابِ مفعولٌ ثانٍ، والكافُ: مفعولٌ أوَّلُ، وهذان المفعولان من بابِ مَفْعُولَيْ كسا وأخواتِها ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ فبيَّنَ هنا أنَّ هؤلاء الرُّسُل على هُدًى وليسوا على ضلالٍ، وهم لا يَسْأَلون أجرًا على ما دَعَوْا إليه.

وقوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ يُحتَمَل أن تكون الواوُ للاسْتِئْنافِ، وهو الأقرب

لبيانِ حالِ هؤلاء الدعاةِ أَنَّهُم على هدًى، ويُحتَمَل أن تكون للحالِ؛ أي: لا يسألونكُم أجرًا مع كونِهِم مُهْتدِينَ. ثم قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فقيل له: أنتَ على دينِهِم؟ فقال: وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي] ما قَدَّرَهُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ من أَنَّه قيل للرَّجُل: أنتَ على دينهم؟ لا يتعيَّن، بل يجوز أن يكون الرَّجُل قال: (وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي) على أنَّ المُرادَ به هؤلاءِ القَوْمُ؛ كأنَّه قال: (وَمَا لَكُمْ لَا تَعْبُدُونَ الَّذِي فَطَرَكُمْ) لكن أضافه إلى نفسه من باب التلَطُّفِ بالخِطَابِ، هذا هو الأَقْرَبُ لأمور:

أوَّلًا: أن ما ذكره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لا دليل عليه، والسِّياقُ لا يستلزِمُه، وإذا كان لا دليلَ عَلَيْه من حيثُ النَّقْلُ، ولا دليلَ عليه من حيثُ السِّياقُ لأَنَّه لا يستلزِمُه، فالأَصْلُ عَدَمُه.

ثانيًا: أنَّ ما قلناه أبلَغُ في التلَطُّفِ بالدَّعْوَة بدلًا أن يقول: (وما لكم لا تعبُدُون الذي فطَرَكم) قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾ فأضاف الأَمْرَ هنا إلى نَفْسِه تلطُّفًا.

وقوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ الاستفهَامُ هنا بمعنَى الإنْكارِ؛ يعني: أيُّ شيءٍ يَمْنَعُني أنْ أَعْبُدَ الله وحده؛ ولِهَذا قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ أي لا أتذلَّلُ للَّذي ﴿فَطَرَنِي﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي خَلَقَنِي؛ أي لا مانع لي من عبادته الموجودِ مُقْتَضِيها، وأنتم كذلك] قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ﴾ تقدَّمَ لنا أنَّ العِبَادة هي التَّذَلُّل لله عَزَّوَجَلَّ بِفِعْل أوامِرِه، واجتنَابِ نَوَاهِيهِ مَحبَّةً وتعظيمًا، وأنَّ العبادةَ تُطْلَق على التَّعَبُّدِ الذي ذكرناه وعلى المتَعَبَّدِ به، وهي الأفعالُ التي يتعبَّدُ بها الإنسان، أو الأقوالُ، وعلى هذا حَدَّها شَيْخُ الإسلام ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بأنَّها هي: «اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما يحبُّه الله ويَرْضَاه من الأقوال، والأعمالِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

وقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ولم يَقُل: لا أعْبُدُ الله لِيَقْرِنَ بين الحُكْم والدَّليلِ؛ لأنَّ قوله: (أعْبُدُ الذي فطرني) مُقْتَضٍ لِكَوْنِه هو المعبودَ؛ إذ إنَّه هو الخالِقُ، فلَزِمَ أن يكون هو المعبُودَ، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، فقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ﴾ كتعليلٍ للأمْرِ بعبادَتِهِ وحْدَه، كما أنَّه الخالِقُ وحده، فيجب أن يكون المعْبُودَ وحده؛ ولِهَذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَوْجُود مُقْتَضِيها] وما مُقْتَضِيها؟ أنَّه هو الذي فَطَرَ الخَلْقَ، وابتدأ خَلْقَهُم، فلَزِمَ أن يكون هو المستَحِقَّ للعبادَةِ وأنْ يُعْبَدَ.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خَلَقَني لأوَّلِ مَرَّة، والفَطْر والإبداعُ بمعنى الإيجادِ لأوَّلِ مرَّة، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر:١]، وقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة:١١٧]، فالذي فطر الخَلْق لأوَّلِ مرَّة وعلى غير مثال سابِقٍ هو الله تعالى.

فإذن: يَجِب أن يكون هو المعْبُودَ، أمَّا أن تَعْبُد غيرَ الله، وهذا الغَيْرُ لا يَخْلُق بل هو مخلوق كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل:٢٠].

فكيف يَصِحُّ أن يُعبَدَ هؤلاء، فهذا الرَّجُل من فِقْهِه وحِكْمَتِه وحُسْن دَعْوَتِه أنَّه قَرَنَ الحُكْمَ بالدَّلِيل، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا مِمَّا يؤَيِّد ما قُلنا من أنَّه يريد قَوْمَه، لكن من باب التلَطُّف في خِطابِهِم؛ قال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ كما تخاطِبُ صاحِبَكَ الآن تُحاوِرُه أو تخاصِمُه؛ تقول: ما لي لا أفعل كذا وكذا؛ يعني ما المانع؟ فإذا كان لا مانِعَ لي، فهو لا مانع لك أيضًا، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بعد الموتِ فيُجازِيكُم بكُفْرِكم] لو قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعَمَلِكُم، لكان أشْمَل؛ لأنَّه يجازيهِمْ بالكُفْرِ إنِ اسْتَمَرُّوا عليه، ويُجازيهِم بالإسلام إن أَسْلَمُوا، فلو عبَّر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (سَيُجازِيكُم بعَمَلِكم) لكان أَوْلَى.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ نُصْحِ هذا الرَّجُل لقَومِهِ من وجهَينِ:

الوجه الأَوَّلُ: أنَّه جاء من مكانٍ بعيدٍ، ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾.

الوجه الثَّانِي: أنَّه جاء يَشْتَدُّ ﴿يَسۡعَىٰ﴾ فيُستَفَادُ منه أنَّه ينبغي للإنسان انتهازُ الفُرَصِ في إنذار قومِهِ ومناصَحَتِهِم، وألَّا يتوانَى، فيقول: غدًا أذهَبُ إليهم، أو في آخِرِ النَّهار، أو ما أشبه ذلك، فيُبادِر بالنَّصِيحَة والموْعِظَة؛ لأنَّ هذا الرَّجُل جاء يسعى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يَجُوز للإنسانِ أن يبادِرَ بالإنْذَارِ قبل أن يُقَدِّمَ له مقدِّمة إذا دَعَتِ الحاجَةُ إلى ذلك؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أَمَرَهُم من أوَّلِ الأمـر، ولم يأتِ بمقدِّمة تُهيِّئُهم للْقَبُول؛ لأنَّ الحال تستدعي ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ينبغي التَّلَطُّف بالقَوْلِ في دعْوَةِ الغَيْرِ؛ لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فإنَّ هذا يستوجِبُ اتِّبَاعه، وقَبُولَ نُصْحِه؛ لأن للإنسان حَدبًا وشَفَقَة على قومِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام لا يسأَلُون النَّاس أجرًا على ما أَتَوْا به من الدَّلالَة والهِدَايةِ؛ لقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه ينبغي أن يُقدَّمَ الوَصْفُ الموجِبُ للقَبُول قَبْلَ الوَصْف المفضِّل للقَبُول. فهنا قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ والرِّسَالَة وَصْف يقتضي وُجُوب قبول المرْسَل. ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ هذا من باب الكَمال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه ينبغي للدَّاعِيَة إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يترَفَّعَ عن أخْذِ ما في أيدي النَّاس من الأموال حتَّى وإن أعطَوْه؛ لأنَّه ربَّما تَنْقُص منزلَتُه إذا قَبِلَ ما يُعطَى من أجل دَعْوَته وموعِظَتِه؛ لأنَّ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام لا يسألون النَّاس أجرًا لا بِلِسانِ

الحالِ، ولا بلِسَانِ المقَالِ، وبه نعرِفُ قُبْحَ ما يعمَلُه بعض النَّاس -وإن كان والحمد لله قد قَلَّ- يقوم ويَعِظُ النَّاس موعظةً قد تكون بليغةً، فإذا انتهى قال: إنِّي في حاجةٍ وصاحِبُ عائلةٍ وما أشبه ذلك، فصارت الموعِظَة للدُّنيا.

فهل يُستفادُ مِن هذا أنَّه لا يجوز أخْذُ الأجْرِ على تعْليمِ العِلْم؛ لِمَا فيه من المخالَفَةِ لطريق الرُّسُل، أو يقال: لا؛ لأنَّ الذي لا يجوز الأخْذُ عنه الدَّعْوةُ لله عَزَّوَجَلَّ، فهذه لا يجوز أخْذُ الأجْرِ عليها لوُجُوب الدَّعْوة على الإنسان، أمَّا التَّعْليم الذي يحتاج إلى معاناةٍ وإلى تَعَبٍ وإلى تَفْهيمٍ خاصٍّ، فهذا لا بأسَ به، وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ»(١).

هل يُستفادُ من الآية أنَّه لا يجوز أخْذُ رَزْقٍ من بيتِ المال للدَّعْوَةِ والإرْشَادِ؟

الجواب: لا يُستفَادُ، ولكنْ لا شَكَّ أنَّ التَّنَـزُّه عن ذلك أوْلَى؛ فكَوْنُ الإنسانِ يذْهَبُ يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ بدون أن يأخُذَ مقابلًا ولا من الحُكُومة، لا شك أنَّ هذا أفْضَل، وأقـرب إلى الخَلاصِ وأشَدُّ وقْعًا في نفوس النَّاس، حتى وإن لم يعلموا أنَّه لم يأخُذْ؛ لأنَّ الله تعالى يُلْقِي ذلك في قُلُوبِ النَّاس؛ أي يُلْقِي القَبُول من هذا النَّاصِح أو الدَّاعي، وإن لم يعلموا أنَّه لا يأخُذُ شيئًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ من طريق الدَّعْوَة أن يذْكُر الإنسانُ حالَ الدَّاعِيَة بوصْفِه بما يوجِبُ قَبول قولِهِ؛ لقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وقد ذكَر ما يوجِبُ قَبولَ قولِهم في أوَّلِ الدَّعوة ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وفي آخرها في قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّه يجب على من دعا إلى الله أن يكونَ على بَصيرةٍ وعلى عِلْمٍ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّ هذا هو وَصْف الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، فهم يَدْعُون إلى الله على هُدًى منه، وأمَّا من يدعو على غيرِ هُدًى فإنَّه قد يُفْسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِح؛ لأنَّ الذي يدعو على غير عِلْمٍ رُبَّما يجعَلُ الشَّيْء الحرامَ حلالًا، والحلالَ حرامًا وهو لا يدري، فيحْصُل بذلك فسادٌ في الدِّين والعَقِيدة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّه لا بأْسَ للإنسانِ أن يُضِيفَ الشَّيْء إلى نفسه على سبيل الفَرْضِ تلطُّفًا؛ لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يعني على فَرْضِ أنَّني أتَّخِذ من دون الله آلِهَة؛ فما الذي يمنَعُني أن أعبُدَ الله عَزَّوَجَلَّ وَحْدَه؟!

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإرشادُ إلى وُجُوب الإخلاصِ في العبادة؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإنَّ الله تعالى مُنْفَرِد بفَطْر الخَلْقِ فيجب أن يُفْرَدَ بالعبادة، فلا يَدَّعِي أحدٌ أنَّ الآلِهَة تَخْلُق.

إِذَن: لا يجوز أن تُعطَى شيئًا من العِبادة التي يختصُّ بها من يخلُق، وهو الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه من كَمَال الدَّعْوة والتَّسْلِيم قَرْنُ الحُكْمِ بدلَيْلِه، أو عِلَّتِه؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فإنَّ هذا كتعليلٍ؛ لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾ ولِهَذا عَدَلَ عن قوله: (ما لِيَ لا أعبدُ الله) إلى قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ليكون هذا كدَلِيلٍ والتَّعْلِيل لوُجُوب إفرادِهِ سبحانه بالعِبَادة، وهذا في القُرْآن الكريم والسُّنَّة كثيرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّه ينبغي ذِكْرُ ما يكون به الحَذَر والخَوْف بعد أن يُذْكَر ما يكون به التَّرغِيبُ والحَثُّ؛ لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فذكر ابتداءَ الخَلْق وانتِهاءه، وأنَّه كلَّه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهنا نجد الفَرْقَ بين التَّعْلِيل الأَوَّل ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾

ولم يَقُلْ: (وإليه أُرْجَعُ) لأَنَّه -كما قلنا- إنَّما أضاف ذلك إلى نفسه وهو يعني قَوْمَه، لكنَّه أضافه تلطُّفًا وتوبيخًا لهم، وكأَنَّه يقول: (أنا لا أعبد إلا الذي فطرني) فلماذا تَعْبُدون أنتم معه غَيرَه وإليه تُرْجَعُون؟!



الآيــة (٢٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس:٢٣].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَأَتَّخِذُ: في الهمزتَينِ منه ما تقدَّمَ في ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وهو استفهَامٌ بمعنَى النَّفْي] فيكون معنى ﴿ ءَأَتَّخِذُ ﴾ أي: لا أَتَّخِذ، وقد سبق لنا أنَّ الاستفهام إذا أتى بمعنى النَّفْي فإنَّه يفيد معنى التَّحدِّي، ولكنَّه هنا يفيد معنى الامتناعِ غايَةَ الامْتِناعِ؛ يعني أنَّه لا يمكن أن أتَّخِذ من دونه -أي غيره- آلِهَة ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ معروفٌ أنَّ أتَّخِذ تنصِبُ مفعولَينِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ المفعولُ الثَّانِي ﴿ءَالِهَةً﴾ المفعولُ الأول، ويجوز أن نجعل ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ في موضع النصب على الحال من ﴿ءَالِهَةً﴾ ويكون الثَّانِي محذوفًا أي: (أَأَتَّخِذ أصنامًا آلِهَة) وهذا هو الذي مشى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لقوله: [أصنامًا].

قال: [﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ التي زَعَمْتُمُوها ﴿شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ صفةُ آلِهَة] يريد المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في الإعراب أن قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ هذه الجُملة الشَّرْطيَّة صفةٌ لآلِهَة؛ يعني: لا أتَّخِذ آلِهَةً هذا شأنُها، وهو أنَّ الله لو أرادَهُ بِضُرٍّ لم تنفَعْ شفاعَتُهم ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، هذا معنى كلام المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقيل: إنَّ الجُمْلَة اسْتِئْنافيَّة لبَيانِ حالِ هذه الآلِهَة؛ أي: أَأَتَّخِذ من دونه آلِهَة، ثم قال: هذه الآلِهَةُ لا تُغْنِي شفاعَتُها شيئًا من دون الله، ولا تُنْقِذُ.

ولكن ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أظْهَرُ، فتكون الجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّة في موضع نَصْبِ صِفَةً لآلِهَة؛ قال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ يعني: إنْ يُرِدْنِ الله عَزَّوَجَلَّ، وذكَرَ الرَّحْمَن؛ لأنَّ الرَّحْمَنَ اسمٌ يدلُّ على الرَّحْمة، ولَمَّا كان الضُّرُّ قد يَفْهَمُ منه من يفهَمُ من النَّاس انتفاءَ الرَّحْمة عن المُريدِ، ذَكَرَ ذلك باسم الرَّحْمَن لئلَّا يَظُنَّ ظَانٌّ، أو يتوهَّمَ الواهِمُ هذا الوَهْم؛ أنَّ إرادة الله الضُّرَّ للإنسان تُنافِي الرحمة؛ لأنَّ إرادةَ الضُرِّ بالإنسان قد تكون من رحْمة الإنسانِ. قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، فما يُصِيبُ الإنسانَ من الضُّرِّ له نتائِجُ حَمِيدة وهي الرُّجُوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاعتبار بما جرَى، ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تنفعُني بشيء.

والشَّفَاعة في الأصل هي: التَّوسُّط للغير بِجَلْبِ منفعَةٍ أو دَفْع مَضَرَّة. فهذه الأصنام التي تُعبَد من دون الله يَدَّعِي عابدوها أنَّهُم إنَّما عبدوها لتُقَرِّبَهُم إلى الله؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

إِذَن: فَهُم يدَّعُون أنَّهُم يعبدونَها لتَشْفَع لهم، وهل هذا الوَهْم أو هذا الظَّنُّ صحيحٌ؟

الجواب: لا، لأنَّهُم عبدوها ولم يتَّخِذُوها وسيلةً، بل جعلوها غاية، ولهذا لا يَخْطُر في قُلُوبِهِم حين التَّعَبُّد لها إلا التَّعْظِيمُ لهذه الأصنامِ ويَنْسَوْن الخالِقَ عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي: من الهَلَكَة، أو الضُّر الذي أراده الله تعالى بهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ الإنْكَار والتَّسْفِيه والتَّوْبيخ للذين يتَّخِذُون مع الله آلِهَة؛ لأنَّ المرادَ من الاستفهام: الإنكارُ والتَّسفيهُ والتَّوْبيخُ لهؤلاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه ينبغِي قَـرْنُ الحُكْم بالتَّعْليلِ؛ لأنَّه قال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ...﴾ إلى آخره، فهذه الآلِهَة لا تَنْفَع ولا تَضُرُّ ولا تدفَعُ، فهي لا تنفع مَنْ عَبَدَها، ولا تضُرُّ من عَدَلَ عنها، ولا تدفَعُ عن عابديها ضَرَرَ الغَيْرِ؛ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ فهم لا يستطيعون دفْعَ ضَرَر الغَيْر، وهم -أي الآلِهَة- لا ينفعون عابِدِيهم، ولا يَضُرُّون من عَدَل عن عبادَتِهم؛ فهي قاصِرَة بنفسها لا تَجْلِب نفعًا ولا ضَرًّا، ولا تدفع الضُّرَّ عن عابديها، فتكونُ عبادَتُها خُسرانًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كُلَّ معبودٍ فهو آلِهَة؛ لقوله: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ لكنْ إن كان يستحِـقُّ العبادَةَ فهو إلهٌ حَـقٌّ، وهـذا لا يكون إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان لا يستحِقُّ العبادة وهو مَنْ سِـوَى الله فعِبَادته باطِلَة وألوهِيَّته باطِلَةٌ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج:٦٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ وإرادَةُ الله عَزَّوَجَلَّ تنْقَسِمُ إلى قِسْمَين:

القسمُ الأَوَّلُ: إرادةٌ كَوْنِيَّة.

القسمُ الثَّانِي: إرادةٌ شَرْعِيَّة.

فالإرادةُ الكونيَّةُ هي التي بمعنَى المشيئةِ، ويتعيَّن فيها وُقُوع المرَادِ، ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله تعالى.

والإرادَةُ الشَّرْعِيَّة هي التي بمعنى المحَبَّة، ولا يتعيَّنُ فيها وُقُوعُ المراد، ويتعيَّن أن يكون فيها محبُوبٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا قال قائل: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ والضُّرُّ شَرٌّ على الإنسان فكيف نجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «**الشَّرُّ لَيسَ إِلَيْكَ**»(١).

فالجواب: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَقُلْ: (الشَّرُّ لَيْسَ مِنْكَ)، بل قال: «**الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» والله عَزَّوَجَلَّ قد يريد الشَّرَّ، لكن إرادَتُهُ الشَّرَّ خَيْرٌ، فالشَّرُّ في مفعولِهِ، لا في فِعْلِهِ، فقد يريد الله وقوعَ الشَّرِّ، لكنَّه لمصلَحَةٍ عَظِيمَةٍ، هذه المصلَحَة نَفَتْ نِسْبَةَ الشَّرِّ لله، ولهذا يُفَرَّق بين: الشَّرُّ مِنْك، والشَّرُّ إليك، فالشَّرُّ لا يضاف إلى الرَّبِّ، ولكن يُضافُ إلى المفْعُولات والمخْلُوقات، مع أنَّ هذه المفعولات والمخلوقات شَرٌّ من وَجْه، وخيرٌ من وَجْه، ففِعْلُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كُلُّه لحِكْمةٍ وغايةٍ محمودةٍ.

وانظر مثلًا إلى المَرَضِ إذا أصاب الإنسان، فلا شَكَّ أنَّه شَرٌّ بالنِّسبَةِ لصِحَّتِه، ولكن لا تَشْعُر بنِعْمَةِ الصِّحَّة، لكِنْ إذا مَرِضْتَ شَعَرْت بقَدْر النِّعْمة، (وبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْياءُ)، فأنت الآن تتنفَّسُ النَّفَس، تتنفَّسُ وأنت تأكل، تتنفَّسُ وأنت تتكلَّم، تتنفَّسُ وأنت قائِمٌ، وأنت قاعِد، وأنت مُضطجِع، لا تُحِسُّ بأي شيء، لكن لو قَدَّرَ الله تعالى أن يَحْبِس نَفَسَكَ ويُصْبِح عندكَ ضِيقُ تَنَفُّس، عَرَفْتَ قدْرَ النَّفَس.

فالحاصِلُ: أنَّ هذا الشَّرَّ شَرٌّ نِسبِيٌّ في الواقع حتى بالنِّسْبَة لمن وقع عليه.

مثال آخر: الفَيَضَانات والزَّلازِل والجَدْب شُرُورٌ، لكن بالنِّسْبَة إلى تَقْدِير الله لها هي خيرٌ، فهي شَرٌّ بالنِّسْبَة لِمَن أصابَتْهُم، لكن خَيرٌ بالنِّسْبَةِ للآخَرِين يتَّعِظُون

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ويخافون، وقد تكون خيرًا لأولئك المصَابِينَ بحيث يَرْجِعُون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويعرفون أنَّ المعصِيَة عاقِبَتُها وَخِيمةٌ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

إِذَن: فلا منافاةَ بين قوله ﷺ: «**الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**» وبَيْنَ مثلِ هذه الآية: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ صفَة الرَّحْمة لله عَزَّوَجَلَّ مأخوذَة من قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ لأنَّ الرَّحْمَن وَصْف مشتَقٌّ، والوصف المشتَقُّ يدلُّ على المعنى المشْتَقِّ منه ولا بُدَّ، بخلاف الأسماء الجامدة؛ كأَسَد، وحَجَر، وتُراب، وما أشبهها هذه لا تدلُّ على معنًى، لكنَّ الأَسْمَاءَ المشتَقَّةَ لا بدَّ أن تدلَّ على معنًى، هذا بالنِّسْبَة إلى أسماء الله تعالى ورسوله ﷺ وكتابه، أما بالنِّسْبة لمن تسمَّى بها من المخْلُوقين فقد تَدُلُّ على المعنَى وقد لا تدلُّ؛ فقد نُسَمِّي شخصًا عبد الله وهو كافِرٌ بالله، وقد نسمِّي شخصًا محمَّدًا وهو مُذَمَّم، وقد نسمِّي خالدًا وهو سَيَمُوت، وقد نسمِّي صالحًا وهو من أفْسَدِ النَّاس.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن عابِدِي الأصنامِ يُمَوِّهُون على النَّاس بعبادَتِهم، فيدَّعُون أنَّهُم يعبدونَها لتكون شفيعًا لهم عند الله، وهذا عندما يسمَعُه السَّامِعُ يظُنُّ أنَّهُم يجعلون الآلِهَة في مرتبةٍ دون الله؛ لأن مرتبة الشَّافِع دون مرتَبَة المشْفُوعِ إليه.

فيقولون: (إنَّهم شُفعَاءُ لنا إلى الله)، والحقيقة أنَّهُم لم يجعلوهم شُفعَاء، بل جعلوهم شُرَكاء لله؛ لأنَّهُم يعبدُونَهُم كما يعبدون الله، فيُستَفَادُ منه الحَذَر من التَّلْبيس في الأسْماء أو بالتَّسْمية، وأن صاحِبَ الباطِلِ قد يسمِّي نفْسَه بما يقتضي أن يكون على حَقٍّ، وليس كذلك.

فالمُعْتَزِلة -مثلًا- يُسَمُّون أنفسهم (أَهْلَ التَّوحيد)، والمُعَطِّلَة يسمُّونَ أنفسَهُم (أهل التَّنْزِيه)، يقولون: نحن نُنَزِّه الله، أما أنتم أهلَ السُّنَّة لا تُنَزِّهون الله؛ جعلْتُمُوه صنمًا فمَثَّلْتُمُوه بالخَلْق في إثباتِ الصِّفات.

وهؤلاء أيضًا المعْتَزِلة يقولون: نحن نَفَيْنا الصِّفاتِ لنُوَحِّدَ الله، لأن تعدُّد الصِّفات يستلزِمُ تعدُّد المَوْصُوف، فهذا تَمْوِيه، والمعْتَزِلة ينكرون أن يكون لله تعالى تعلُّق بفعل العَبْدِ، فيسَمُّون أنفسَهُم أهْلَ العَدْل، ويقولون أنتم يا أَهْلَ السُّنَّة أهل الظلم جَعَلْتم الله ظالمًا؛ حيث هو الذي يقَدِّرُ المعاصِيَ على العَبْد ثم يعاقِبُه عليها، أما نحن فنحن أهْلُ العَدْلِ؛ نقول: الإنسانُ هو المستَقِلُّ بنفْسِه وعَمَلِه، فإذا جُوزِيَ على مَعْصِيَتِه فقد استحقَّ الجزَاء؛ لأَنَّه فَعَلَه، والنَّصارى سَمَّوْا أنفسهم بالمَسِيحِيِّينَ تلطيفًا لحالِهِم؛ ليُوهِمُوا أَنَّهُم على دين المسيحِ، والواقِعُ أَنَّ المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَرِيء منهم وأنَّهم ليسوا على دينه؛ إذ لو كانوا على دِينِهِ وقابِلِينَ له لقَبِلُوا بِشَارَتَه بمحمد ﷺ فإن عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَشَّرَهُم به، وقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف:٦]، ولو كانوا مؤمنين بالإنجيل لآمَنُوا بمحمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، فهم لا آمنوا بعيسى، ولا بكتابِ عيسى وهو الإنْجِيل، لكن مع ذلك سَمَّوْا أنفسَهُم بالمسيحِيِّينَ تلطيفًا لِمَا هم عليه من الباطِلِ؛ ليَصْبِغوا نِحْلَتَهم بصبغَةِ القَبْول، فيجب الحَذَر من التَّلْبيس في التَّسْمِية؛ لأنَّ هؤلاء يقولون: نعبُدُ الآلِهَة ليكونوا شفَعَاءَ لنا، وهم في الحقيقة إنَّمَا جعلوهم شركاءَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّه لا أحَدَ يُنْقِذُ من أراده الله تعالى بضُرٍّ؛ لقوله: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

فإن قلت: كيف يجتمع هذا مع أننا نشاهِدُ الغَرِيقَ عَصَفَتْ به الرِّيحُ حتى سَقَطَ في الماء فجاء شخص فأنقَذَه، فهذا أنقذه مما أراده الله عَزَّوَجَلَّ به من السُّوء؟

فالجواب أن نقول: إنَّ إنقاذَهُ بتقديرِ الله عَزَّوَجَلَّ، لو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَهْلِكَ هذا الرَّجُلُ لم يكُنْ عنده أحَدٌ، ولو شاء الله أن يَهْلِكَ لكان عنده من لا يُجِيد السِّبَاحة، ولو أراد الله أن يَهْلِك لكان عنده من لا يريد الإحْسَان، فإذا قَيَّضَ الله له شخصًا قادرًا على إنقاذه محبًّا للإحسان أنقذه بقَدَرِ الله عَزَّوَجَلَّ، ونحن نؤمِنُ بالأسباب، ولكن لا نؤمن بأنَّها مُسْتَقِلَّة، فنكونُ وسطًا بين الذين يُنكِرون تأثير الأسباب، وبين الذين يدَّعُون أنَّها مؤثِّرة بنفسها.

فنقول: هي مؤثِّرَة لكن بِجَعْل اللهِ لها تأثيرًا، ولو شاء الله تعالى لسلَبَ الأسباب تأثيرَهَا، فالنَّارُ مُحرِقَة، وقال الله تعالى لها حينَ أُلْقِيَ فيها إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فصارت بردًا وسَلامًا ولم تكن سَببًا للإحْرَاق، والماءُ جَوْهَر سيَّالٌ لا يمكن حَجْزُه إلا بحاجِزٍ، ولما ضَرَبَ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ البَحْر صار الماء كالجِبَال، بدون حواجِزَ، وهذا خلافُ الأسبابِ المعْتَادَة، لكنَّه بقَدَرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وبه نَعْرِف أنَّ الأسبابَ مُؤَثِّرة بِجَعْلِ اللهِ تعالى لها تأثيرًا، وإلا لَسَقَط تأثيرُها؛ لأنَّ الكُلَّ بِيَد الله.

وبمناسَبَةِ ذِكْرِنَا نارَ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ قال بعضُ المفَسِّرينَ: إنَّ الله لَمَّا قال لها: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] صارت جميعُ النِّيرانِ في جَميعِ أقْطَار الدُّنْيا باردةً ولا تحْرِق، واستَغْرَب النَّاس ذلك وقالوا: ما هَـٰذه النَّارِ ما غَلَى القِدْرُ عليها، ولكن هذا لا شَكَّ أنَّه قولٌ خاطِئٌ بَعيدٌ من الصَّوابِ، بل هو خِلافُ أمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يَا نَارُ﴾ ونارُ: نَكِرَةٌ مقصودةٌ، ولِهَذا بُنِيَت على

الضَّمِّ، فهي كالعلم يُرادُ بها شَيءٌ مُعَيَّن، وهي النَّار التي أُلْقِيَ فيها، ثم قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فهذا القولُ خلافُ الآية الكَريمَة، وسبحان اللهِ بعضُ النَّاس رحمة الله عليهم وعفا عنهم يذهبون المذَاهِبَ نقول: كيف تقع هذه من عالمٍ، والغَالِبُ أنَّ هذه تَجِدها عن بني إسرائيل فتُؤْخَذُ مُسَلَّمَةً ولا يُنْتَبَهُ لمعارَضِتَها لآيِ الكِتابِ.



الآيات (٢٤-٢٧)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس:٢٤-٢٧].

• ● ● •

﴿ إِنِّىٓ إِذًا ﴾ هذه الجملَة مؤَكَّدَة بإِنَّ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي التَّوْكيدَ، وقوله: ﴿إِذًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إِنْ عَبَدْتُ غَيْرَ اللهِ]؛ لقوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ويجُوز أن نقدِّر ﴿إِذًا﴾ أي: إذا اتَّخَذْتُ من دونه آلِهَةً؛ لقوله: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ و(إِذَن) هذا ظَرْفٌ يدلُّ على الحالِ، و(إِذَا) تدلُّ على المستقْبَل و(إِذْ) ظرفٌ تدلُّ على الماضي، فهذه الثَّلاثة تقاسَمَت الزَّمَن (إِذَن) للحالِ و(إِذَا) للمستقبل و(إِذْ) للماضي، وتأتي (إِذْ) لغير ذلك، كما تأتي للتَّعْليلِ مثلًا.

﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ اللَّامُ هنا للتَّوْكِيد، الجملَةُ مؤَكَّدَة بمُؤَكِّدَينِ؛ يعني: إِنِ اتَّخَذْت معه آلِهَة، أو عَبَدْت غيرَه ﴿ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بيِّنٍ].

والضَّلال هو أن يَتِيهَ الإنسانُ عن جادَّةِ الصَّوابِ، ثُمَّ إن كان عن عِلْم كان طريقُه طريقَ المغْضُوبِ عليهم، وإن كان عن جَهْل كان طريقُهُ طريقَ الضَّالِّينَ، وقد ذكر الله تعالى في سورة الفاتحة؛ فقال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ

أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ والمغْضُوب عليهم هُمُ الذين جانَبُوا الصَّوَاب عن عِلْم، والضَّالُون هم الذين جانَبُوه عن غَيْرِ عِلمٍ، والمهْتَدُون الذين أَنْعَمَ الله عليهم همُ الذينَ عَمِلُوا بالصَّوَاب وعن عِلْم، ووجْهُ كَوْنِ اتِّخاذِ آلِهَةٍ من دونِ اللهِ ضلالًا مُبينًا أنَّه حَيْدَة عن الواجِبِ شرعًا وعَقْلًا، فالواجِبُ شرعًا أَلَّا تَتَّخِذَ آلِهَة مع الله تعالى، كما جاءَتْ به جَميعُ الرُّسُل، والوَاجِبُ عقلًا أَلَّا تَتَّخِذ آلِهَة مع الله؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي خلق الإنْسَانَ وفطَرَه، وهو الذي بِيَدِه النَّفْع والضُّـر، فكيفَ تَتَّخِذُ معه آلِهَة لم تَخْلُقْ ولا تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾ أَعْلَنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه آمَنَ بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فقال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهناك قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ إشارةً إلى أنَّه ليسَ الله ربًّا له وَحْدَه بل هو رَبُّ الجَمِيعِ. والإيمانُ بالله عَزَّوَجَلَّ يتضَمَّنُ الإيمانَ بِأُمُور أربعةٍ:

الأَوَّلُ: الإيمانُ بوُجُودِه.

الثَّانِي: الإيمانُ بِرُبُوبِيَّتِه، وهنا صـرَّحَ به في قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فإثبـاتُ الرُّبُوبِيَّة إثباتٌ للوُجُود.

الثالث: الإيمانُ بأُلُوهِيَّته.

الرابع: الإيمانُ بأَسْمائِهِ وصِفَاتِهِ.

أي إنَّه متفَرِّدٌ بالرُّبُوبِيَّة، والأُلُوهِيَّة، والأَسْماء والصِّفَات، وقوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ الإيمانُ في اللُّغَة: التَّصْدِيقُ عند كثيرٍ من المفسِّرين الذين يُفَسِّرون الإيمان، وقيل: إنَّ معناه الإقْرَارُ والاعتِرَافُ، فهو أَخَصُّ من التَّصدِيق. قال: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ الفَاءُ هذه عاطِفَةٌ على قوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أو على الجُمْلَة كلِّها.

وقوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: اسْمَعُوا قولِي، وهـذا إعلانٌ منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإيمـانِهِ مراغَمَةً لِقَولِهِم، وإقامةُ الحُجَّة عليهم؛ ولِهَذا لَمَّا أعْلَنَ هذا الإعْلانَ قَتَلُوه، وقال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فرَجَمُوه فمات ﴿قِيلَ﴾ له عندَ مَوْتِه ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقيل: دَخَلَها حيًّا].

لَمَّا أعْلَنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الإعلانَ، وراغَمَهُم ولَم يأبَهْ بِهِم، ولم يُهِمَّه، والظَّاهِر -والله أعلم- أنَّهُم تَوَعَّدُوه، حينئِذٍ رَجَمُوه فقَتَلُوه، فقيل له بعد موته ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، الأمْرُ هنا للتَّكريم، والجَنَّةُ هي: الدَّارُ التي أعَدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأولِيَائِه، فيها ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَر، وقوله: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ بعد مَوْتِه؛ لأنَّ الإنسانَ يُعَذَّب في قَبْرِه، فإن كان من أهْلِ الخَيْـر فإنَّه يُنعَّمُ، وإن كان من أهلِ الشَّرِّ فإنَّه يُعذَّب؛ قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ لَمَّا قِيلَ له: ادْخُلِ الجَنَّة، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حَرْفُ تَنْبيهٍ] يعني (يا) حَرْف تَنْبِيه وليسَتْ حَرْفَ نِداءٍ؛ لأنَّها دَخَلَت على حرفٍ و(يا) التي للنِّداء لا تدخُلُ إلا على اسْمٍ، فإذا دخَلَتْ على ما لا يَصِحُّ دخولُها عليه فإنَّهَا لا تكون للنِّدَاء، وقد مَرَّ علينا في علاماتِ الاسْمِ أنَّ من علاماتِهِ دُخُول النِّداء عليه، فإذا دَخَلَت (يا) على غيرِ اسْمٍ فهي للتَّنْبيه، سواء دخلت على حرفٍ؛ مثل: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ أو دَخَلَت على فعلٍ، وأكثرُ ما تدخُلُه من الأفعال على فِعْل الأَمْر، فإنَّهَا تكون للتَّنْبِيه، ويجوز أن تكون حَرْفَ نداءٍ، والمنادى محذوفٌ، ويقدَّرُ بِحَسَب السِّياقِ؛ فمثل هذه الآية: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ نقَدِّرُه فنقول: يا رَبِّ ليت قومي يعلمون. فصار في إعرابِها وجهان:

أحدهما: أنَّها للتَّنْبِيه.

والثَّانِي: أنَّها للنِّدَاء، والمنادى محذوفٌ، ويقدَّرُ بِحَسَب السِّيَاق. وقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ليـتَ هنا للتَّمنِّي، ولعَلَّ للتَّرَجِّي، والفَرْقُ بينهمـا أنَّ التَّمَنِّيَ يكون

فيما فيه تَعَذُّر، والتَّرَجِّيَ يكون فيما يَقْرُبُ حُصُولُه، وما كان بين ذلك فتارةً تُستَعْمَل فيه لَيْتَ، وتارةً تُستعمَل فيه لعلَّ، وما كان من ذلك فأحيانًا لعَلَّ وأحيانًا ليت، بِحَسَبِ قُرْبِه من التعذُّر أو من القُرْبِ.

قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِغُفْرَانِه] أي: بما حَصَل لي ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ الباءُ هنا متعلِّقَة بـ(يعلمون) والعِلْمُ هنا بمعنى المعْرِفَة، فلا تتعدَّى إلا إلى مفعولٍ واحد، و(ما) مصدريَّةٌ كما حَلَّها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأوَلَهَا إلى مصدَرٍ؛ فقال: [بغُفْرَانِه]. وهنا نذكر معانِيَ (ما)؛ معانِي (ما) عَشرةٌ:

١- اسْتِفْهامِيَّة. ٢- شَرْطِيَّة. ٣- مَوْصولَة. ٤- تَعَجُّبِيَّة.

٥- نَكِرَةٌ. ٦- كافَّةٌ. ٧- نافِيَة. ٨- زائِدَة.

٩- للتَّعْظيمِ. ١٠- مَصْدَرِيَّة.

والمغفرة هي سِتْر الذَّنْب والتَّجَاوُز عنه؛ لأنَّها مأخوذَةٌ من المِغْفَر، والمِغْفَرُ فيه شيئان:

أحدهما: السِّتْر؛ لأنَّه يَسْتُرُ الرَّأْس.

والثَّانِي: الوِقَايَة؛ لأنَّ الإنسانَ يضَعُ على رأسِهِ المِغْفَر في القتال ليتَّقِيَ به السِّهامَ، وليسَتِ المغْفِرَة بمعنى السِّتْر فقط.

ثم قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ فأضافَ الرُّبُوبِيَّة، وهي من الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة، لأنَّ الرُّبُوبِيَّة نوعان: ربوبِيَّة عامَّة، ورُبوبِيَّة خاصَّة، فالرُّبُوبِيَّة العامَّة هي الشَّامِلَة لجميع الخَلْقِ، التي مقتضاها التَّدْبيرُ والتَّصَرُّف في الخَلْق كما تقتضِيهِ حِكْمَته، والخاصَّة هي التي يكونُ فيها عنايةٌ بهذا المرْبُوبِ، كرُبُوبِيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرُسُلِه

وأوليائِه، وقد اجتمعَ النَّوْعانِ في قول السَّحرة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢] الأولى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامَّة، والثَّانِيَة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصَّة، ويقابِلُ ذلك العُبُوديَّة فإنَّهَا عامَّة، وخاصَّة؛ فالعامَّة كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] والخاصَّة كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، والخاصَّة فيها أَخصُّ وهي عبودِيَّة الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١].

﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ جعلني من المُكْرَمِينَ لدخوله الجَنَّة؛ لأن دُخُول الجَنَّة إكرامٌ للإنسانِ من قِبَلِ الله تعالى، وإكرامٌ من قِبَلِ المَلائِكَة؛ لأنَّ الملائِكَةَ يدخُلُون عليهم من كلِّ بابٍ سلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ. وإكرامٌ من جهة الوِلْدَانِ المخلَّدِينَ الذين هم خَدَمٌ لأهل الجَنَّة، وإكرامٌ من جِهَة الزَّوْجَات اللاتِي هنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، وإكرامٌ من جهة بَعْضِهم لبعض؛ فإنَّهم إخوانٌ على سُرُرٍ مُتَقَابِلونَ، قد نزع الله ما في قلوبِهِم من غِلٍّ، ومثل هذا لا بد أن يكون فيه إكرامٌ من بعضِهم لبعضٍ، فأهلُ الجَنَّة مُكْرَمُون، ومنهم هذا الرَّجُل المؤمِنُ النَّاصِحُ المخْلِصُ؛ فإنَّه مُكرَمٌ بدُخُول الجَنَّة، قال الله عَزَّوَجَلَّ لَّما ذكر المصَلِّين الذين هم على صلاتِهِم دائمونَ خَتَم هذه الصِّفَات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥] ولِهَذا قال هنا: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ أنَّ من أَعْظَمِ الضَّلال وأَشَدِّه تِيهًا أن يتَّخِذَ الإنسانُ مع الله آلِهَة؛ لقوله: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه ينبغي التَّأكِيدُ إذا كان المخَاطَب مُنكِرًا، أو حالُهُ حَالَ المُنْكِرِ؛ لأَنَّه يخاطِبَ قومَهُ الذين اتَّخَذُوا مع الله آلِهَة ويقول: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ولِهَذا أكَّدَ الجملَة بمُؤَكِّدَينِ (إنَّ، واللامِ).

ورُبَّما يُؤْخَذُ من الآية الكَريمَة أنَّ كُلَّ من ضَلَّ عن الحَقِّ، أو كُلَّ من خالف الحَقَّ أصابَهُ من الضَّلال بقَدْر ما خالف الحَقَّ؛ لقوله: ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فيُفيدُ أنَّ الضَّلالَ قد يكون خفيًّا، وقد يكون بيِّنًا واضحًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كمالُ نُصحِ هذا الرَّجُل لأَنَّه قرَّرَ وَحْدَانية الله عَزَّوَجَلَّ بعِدَّةِ أُمُور؛ منها ما سبق في قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ومنها: التَّحذيرُ من الشِّرْك به لكون المشْرِك في ضلال مبينٍ، وهكذا ينبغي للدَّاعِيَة لله عَزَّوَجَلَّ إذا دعا إلى الحَقِّ أن يَذْكُر ما في لُزُومه من الفَضَائلِ، وأن يذكُرَ ما في مُخالَفَتِه من الضَّلال والسُّوء، حتى يجمع بين التَّرغيب والتَّرهيب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ من وَحَّدَ الله فهو على هدًى مُبينٍ، بيِّن واضِحٍ؛ لأَنَّه أصاب الفِطْرَة، وأصاب ما جاءت به الرُّسُل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلةُ هذا الرَّجُلِ بإعلانه الإيمانَ بالله عَزَّوَجَلَّ، فكلُّ إنسانٍ يُؤمِنُ ويُعلِنُ إيمانَه بالله فإنَّ ذلك له ميزةٌ وفضيلةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] أعلن أَنَّه من المُسْلِمِينَ ولم يَخَفْ أحدًا سوى الله.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوةُ شخصيَّة هذا الرَّجُل؛ حيث أعلن أمام هؤلاء القَوْمِ أَنَّه آمَنَ، وآمَنَ بربِّهِمُ الذي يستلزِمُ أن يكونوا مخلِصِينَ له بالعبادَةِ إذا كان ربًّا لهم، كأَنَّه

أقام الحُجَّة عليهم بذلك، فإذا كان الله ربَّكم فواجِبٌ أن توحِّدوه، ولا تتَّخِذوا معه آلِهَة، وهذا يَدُلُّ على قوَّة شخصيَّتِه، زِدْ على ذلك أنَّه تحدَّاهُم فقال: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ فأنا لا أبالي بكم فاسْمَعوا، إني آمنْتُ بربِّكُم الذي يجب أن توحِّدوه؛ لأنَّه ربُّكم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بيانُ ربوبيَّة الله تعالى العامَّة حيث قال: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ مع كونهِم مشركينَ كفَّارًا، وهذا من الرُّبُوبِيَّة العامَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ نعيم القَبْرِ؛ لقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ مع أنَّ السَّاعَةَ لم تَقُمْ بَعْدُ، ولم يدخُلِ النَّاسُ الجنَّة، ويَدُلُّ على ذلك آياتٌ من القُرْآن؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل:٣٢] توفَّاهُمُ المَلائِكَة ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من الهاء و﴿يَقُولُونَ﴾ حال من المَلائِكَة، يعني حال كون الملائكَةِ يقولونَ حين توفَّاهُم ادخلوا الجَنَّة، فيُسْتَفَاد من هذه الآية إثباتُ نعيمِ القَبْرِ.

ومثل قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٩]، فهنا قال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾ حينَ المَوْتِ، ثم قال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ ومنها هذه الآية: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ لأنَّ هذا قِيلَ له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ولم تَقُمِ السَّاعَةُ الآن، فهو دليلٌ على أنَّ الميِّتَ يُنعَّمُ في قبره كأنَّه دَخَل الجنَّة؛ لأنَّه يَلْبَسُ من الجنَّة، ويُفْرَشُ من الجنَّة، ويُفتَحُ له بابٌ من الجنَّة، ويأتيه من رُوحِها ونَعيمها فكأنَّه دخلها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ هذا الرَّجُل ناصِحٌ في حياته وبعد مماته؛ في حياته دعا قومَه إلى توحيدِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يُؤمِنوا ويتَّبِعوا الرُّسُل، وبعد مَماتِه تمنَّى أن قَوْمَه يعلمونَ

بِغُفْرَان الله له من أجْلِ أن يؤْمِنُوا ويَتَّبِعوا الرُّسُل، وهذا دليلٌ أنَّ المؤمِنَ لا تلقاه إلا ناصحًا حتى بعد مَوْتِه يكون ناصحًا، وهذا الرَّجُل تمنَّى أنَّ قومَه يعلمونَ بما غفر الله له لعلَّهُمْ يرجِعُون فيؤْمِنُون كما آمن.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ وُجُود الجنَّة، وقد دلَّ على ذلك آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣] والإعدادُ بمعنَى التَّهْيِئَة، والنُّصُوص في هذا كثيرة، وقد عُرِضَت الجنَّة والنَّار على النَّبِيِّ ﷺ وهو يصلِّي صلاةَ الكُسُوف[1].

وهل تبقى الجنَّة أبدًا؟

الجواب: نعم، وهذا متَّفَقٌ عليه بين أهْلِ السُّنَّة، والنَّار موجودة الآن وهو متَّفَقٌ عليه بين أهْلِ السُّنَّة، وهل تفنَى؟ الصَّحيحُ المقْطُوع به أنَّها لا تفنَى؛ لأنَّ الآياتِ صريحةٌ في ذلك؛ فقد ذكر الله تعالى تأبيدَ الخُلُود فيها في ثلاثِ آياتٍ من كتابه، في سورة النِّساء، والأحزاب، والجِنِّ؛ في سورة النساء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]. في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥]. الثَّالِثَة في سورة الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] فهذه ثلاثُ آياتٍ صَرِيحة في تأبيدِ أهلِ النَّار، ومع التَّصريح بالتَّأبيدِ ذُكِرَ عن بعض السَّلَف أنَّهُم كانوا يقولون بأنَّها تفنى، ولكن هذا

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار، رقم (٩٠٤)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

القول لا شكَّ -مهما قاله من قاله- فإن قولَهُ مردودٌ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مِنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ على من آمن بالمغْفِرَة والإكرَام، فيتفرَّعُ على هذه الفائدة: أنَّ الإيمانَ سببُ المغفرة، وسببٌ لإكرام الله تعالى للعَبْد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يَتِمُّ النَّعيمُ إلا بـزوال المكروه، ويُسْتَفَاد هـذا من قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: ما أشار إليه بعضُ الأُدَبَاء أنَّ التَّخْلِيَة قبل التَّحْلِيَة؛ لقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وهذا تَخْلِيَة وإزالة ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ هذا تَحْلِيَة؛ ولهذا قيل: التَّخْلِيَة قبل التَّحْلِيَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المغْفِرَة تسبِقُ الإكرام والرَّحْمة، ويَدُلُّ لهذه القاعدة التَّتبُّع، فإنَّ الغالِبَ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا قَرَن بين الاسْمَينِ: الغفور والرَّحيم، يُقَدِّم الغفور على الرَّحيم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة من قوله: ﴿رَبِّي﴾ فهـذا من الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن إكرام الله عَزَّوَجَلَّ لا يَختَصُّ بهذا الرَّجُل، بل هناك عالَمٌ يُكْرِمُهُم الله تعالى؛ لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ففيه حَثٌّ على أن يَفْعَل الإنسان كفِعْلِه لينالَ ما ناله ولم يَقُلْ (بما غفر لي ربي وأكْرَمَنِي) بل قال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ لِيُبَيِّنَ أنَّ الإكرامَ ليس خاصًّا به، بل الإكرامُ موجودٌ لِكُلِّ من قام بعمل كعَمَلِه.



الآيتان (٢٨، ٢٩)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس:٢٨-٢٩].

• ● ● •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(ما) نافية: ﴿أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: حَبيبٍ]. بناءً على أن اسْمَه حبيب، وقد سبق أنَّ اسْمَه لا يهمنا، المهِمُّ القصَّة، ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد أنْ هلك ومات على أيديهم.

وقوله: ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ملائكـة، فإنَّ الملائِكَةَ جنـودُ الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، فجُنْدُه المَلائِكَةُ ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ملائِكَةً لإهْلاكِ أَحَدٍ]، وقيل: ما كنا مُنْزِلِينَ مَلائِكَة لإهلاك هؤلاء؛ لأنَّهُم أقَلُّ وأحْقَرُ من أن يَبْعَثَ الله ملائكةً من السماءِ تُهْلِكُهم، وهذا هو الأقربُ، فيكون النَّفْي هنا خاصًّا بهـؤلاء القومِ؛ لأنَّ الله أنْزَلَ مَلائِكَةً في بَدْرٍ، وأنزل مَلائِكَةً في غزوة حُنَيْنٍ، وكذلك في غزوةِ الأحزابِ، فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا لم تَرَوْهَا، ولكن ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أي جنودًا لهؤلاء؛ احتقارًا لهم، وهذا الذي مشى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ من أنَّ المرادَ بالجُنْدِ الملائكةُ هو الصَّحيحُ، خلافًا لقول بعض العُلَماء: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من وَحْيٍ ورُسُلٍ؛ لأنَّ الوَحْيَ تنزِلُ به المَلائِكَة، لكن ما مشى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أصحُّ بدليلِ ما يأتي فيما بعْدُ.

قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾: ﴿إِن﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(إن) بمعنَى (ما)] وعلى هذا فهي نافيةٌ، وينبغي أن نستحضر معانِيَ (إن):

١- تأتي نافية.

٢- وشرْطيَّة كما لو قلتَ: (إنْ قام زَيْدٌ قامَ عُمَرُ).

٣- وتأتي مخفَّفَةً من الثَّقيلَةِ، مثل:

وإنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المعَادِنِ[1]

٤- تأتي زائدة كقوله[2]:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَـزَفُ

فتأتي على أَرْبَعَةِ أَوْجُه: نافية، وشرطِيَّة، ومخفَّفة من الثَّقِيلَة، وزائدِة، وإذا أتت بعدها (إلا) فهي نافِيَة، وقد تكونُ نافِيَة بدون (إلَّا)؛ كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨] أي: ما عِنْدَكم. لكن القاعِدَة: أنَّه إذا أَتَتْ بَعْدَها إلا فهي نافِيَة.

قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عُقُوبَتُهُم]، يعني ما كانت عُقُوبتهم التي عاقَبَهُمُ الله بها لِكُفْرِهِم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [صاحَ بِهِم جِبْرِيلُ] ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ يعني ما احتاجوا إلى عناءٍ ولا جُنْدٍ، ما هي إلا صيحَةٌ،

---

(١) هو عجز بيت للطرماح بن حكيم الطائي، وصدره: (أَنَا ابْنُ أُبَاةِ الضَّيْمِ مِنْ آلِ مَالِكٍ). انظر: شرح الكافية لابن مالك (١/ ٥٠٩)، ديوان الطرماح (ص٢٨٠).

(٢) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

ولم يُبيِّنِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصَّائِحَ، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنَّه جبريل. ولا ينبغي أن نَجْزِم بهذا إلا بدليلٍ؛ لأنَّ الواجِبَ علينا أن نُبْهِمَ ما أَبْهَمَه الله، إلا أن يَرِدَ تعيينُه بدليلٍ صحيحٍ، ولم يَرِدْ تَعْيِينُ الصَّائِحِ بدليلٍ صحيحٍ.

وعلى هذا فنقول: صِيحَ بِهِم، ولا نجزم مَنْ هذا الصَّائِحُ.

المهِمُّ: أنَّها صَيحةٌ واحدة، صِيحَ بِهِم فهَلَكُوا عن آخِرِهِم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾: (إذا) هنا فجائية تدل على تَعَاقُبِ ما بعدها وما قبلها، أي إنَّ ما بعدها وَقَعَ عَقِبَ ما كان قبلها مباشرةً، ولهذا سُمِّيَتْ فُجَائِيَّة؛ لأنَّها تفاجِئ وتأتِي فورًا فحِينَ صِيحَ بهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ وبهذا نَعْرِف أنَّ هؤلاء ماتوا عن آخِرِهم؛ لأن ﴿هُمْ﴾ ضميرٌ يفيد الجَمْع والشُّمُول.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يُنْزِل المَلائِكَة لإهلاك المُكَذِّبين، ووَجْهُه أنَّ نَفْيَ إنزالِ المَلائِكَة على هؤلاء القَوْمِ يَدُلُّ على إمكَانِهِ في غيرهم، وإلا لَمَا صَحَّ النَّفْي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المَلائِكَة جُنْدٌ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿مِن جُندٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المَلائِكَة مَحَلُّهُم السَّموات؛ لقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وهذا هو الأصل، لكنَّهم قد يَنْزِلون إلى الأرض كما في قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] وكالمَلائِكَة الذين يَحْفَظُون بني آدم، والذين يكتبون أعمالَهم، والذين يكتبون المتقَدِّمين إلى الجُمُعة على أبواب المساجِدِ، وما أشبه ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ حَقَارةِ هؤلاء القوم المُكَذِّبينَ لهؤلاء الرُّسُلِ الثَّلاثَةِ؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ﴾ إلى قوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ عَظَمَـة الله عَزَّوَجَلَّ وذلك لِذِكْـرِهِ بصيغَـةِ الجَمْع ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ولا يقال إنَّ هذا يفيدُ التَّعَدُّد كما استدَلَّتْ بذلك النَّصَارى، وقالوا: إنَّ الآلِهَة متعَدِّدة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات، ويقال لهم: إنَّ هذا التعَدُّد للتَّعظيم، وكيف تستدلون بهذه الآيات المتشابِهَة وتَعْمَوْن عن مثـل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات:٤]، وقـوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] لكنَّ النَّصَارى كغَيْرِهم من أهل الزَّيْغ يتَّبِعون ما تَشَابَهَ من القُرْآن ابتغاءَ الفِتْنَة، وابتغاءَ تأويله.

ومن رأى اتِّبَاعَ المتَشَابِهَات من النَّصارى وغيرهم في نصوص الكتابِ والسُّنَّة تبيَّنَ له العَجَبُ العُجَاب، وأنَّه يجب علينا وُجُوبًا مؤكَّدًا طلبُ العِلْمِ لِدَفْعِ شُبُهَاتِ هؤلاء؛ لأنَّ هؤلاء انتشروا بيننا الآن وكَثُروا في هذه البلادِ التي قال عنها رسول الله ﷺ: «أَخْرِجُوا الْيَهُـودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[1] هـؤلاء يَبُثُّـون في النَّاس سُمُومَهم، وهم الآن كما سَمِعْنا يُوصِلُون نشراتٍ تَدْعُو إلى النَّصْـرَانِيَّة، ويُرسِلُون أشْرِطَة تَدْعو إلى النَّصْرَانِيَّة؛ لأنَّهم بَدَؤُوا يعرفون المَحلات، ويعرفون العَنَاوِينَ ثم يُرْسِلون إليها، وعندنا من هذا عَدَدٌ، يؤتَى إلينا بِنَشَرات وأشْرِطَة مسجَّلة تدعو إلى النَّصْـرَانِيَّة، هذه إذا وَقَعَـتْ في أيدي أناسٍ لا يعرفـونَ، جهلاءَ، على الأقل تَرْكَـنُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة؟، رقم (٣٠٥٣)، ومسلم: كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء، رقم (١٦٣٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**». وأخرج مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، رقم (١٧٦٧)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب**».

نفوسُهُم، وإن كنتُ أستَبْعِدُ جدًّا أن يتنصَّـرَ أحَدٌ من المسلمينَ؛ لأن دِينَ النَّصَارى الذي هم عليه الآن كُلُّه ضلالٌ، لكن لا شك أنَّه يوقِعُ الشُّبْهَة والخُلُود والاطْمِئْنانَ إلى هؤلاء.

لذلك: أنا أرى أنَّه يَجِب على شبابِ المسْلِمِين اليومَ أن يتسلَّحُوا بسِلاحِ العِلْمِ المبنِيِّ على الأَثَـر والنَّظَر؛ لأن أولئك القَوْمَ يُشَبِّهُون بها يَدَّعُون أنَّه عَقْلٌ، ولا يكْفِي الآن أن نتعلَّمَ الأَثَرَ فقط، بل لا بُدَّ من أثَرٍ ونَظَرٍ، فالأثَر إنَّما يكفي للمُؤْمِن الذي قال الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].

لكن المُكَذِّب لا يكْفِيهِ الأَثَر؛ لأنَّه لا يؤمِنُ أصلًا بالأَثَرِ ويَحْتاجُ إلى نَظَرٍ وعَقْلٍ تَدْحَضُ به حُجَّتَه.

والمهِمُّ: أنَّ مِثْلَ هـذه الآية الكَريمَة ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ يُشَبِّهُ بها النَّصَارى على أنَّ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ متعَدِّدٌ؛ أكثرُ من واحد، وقد ذكرنا أنَّهُم غَفَلُوا بل عَمُوا عن الآياتِ الوَاضِحَة الصَّريحَة؛ أنَّ الله إلَهٌ واحِدٌ، وأنَّ الله كفَّر من زَعَمَ أنَّ الله مُتعَدِّد ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الله أَهْلَكَ هـؤلاءِ القَوْمَ بصيحَةٍ واحدةٍ لم تُكَرَّر مرَّةً أخرى، صيحة واحدة هلكوا بها.

لكن لو قال قائل: ما نوع هذه الصَّيْحَة؟ هل قيل أُهْلِكوا؟

نقول: الله أعلم بهذه الصيحة، هذه الصَّيحَة أبْهَمَها الله، يُحتمَل أنَّها صَـرْخَة، ويُحتَمَل أنَّهُم أُمِرُوا بالهلاكِ.

المهمُّ: أنَّها صيحة واحدةٌ فهلكوا عن آخرِهم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ مَنْ عارَضَ الله أو ضَادَّ الله مهما عَظُم، فإنَّ إهلاكَهُ يسيرٌ على الله عَزَّوَجَلَّ، كُلُّ شيءٍ يكون بكَلِمَة واحدةٍ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ وعند هذا الأمْرِ الوَاحِد ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] لا يَتَباطأ ولا يتأخَّر، فلَمْحُ البصر أسرع ما يكونُ، فإذا أراد الله شيئًا قال له: كنْ، فيكونُ كَلَمْحِ البَصَر، وهذا يَدُلُّ على عَظَمَة الله وقُدْرَته.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بيانُ قُدْرَة الله تعالى وأنَّه قادِرٌ على إهْلاكِ الخَلْقِ بصيحَةٍ واحِدَةٍ فقط بدون أيِّ فِعْل، بل صَوْت مُزْعِج يَقْطَع القُلُوب؛ لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بيان ذُلِّ كُلِّ شَيْءٍ لعَظَمَتِهِ بحيث لا يكرِّر ولا يُعيدُ ما أراده؛ لقوله: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هَـذا أكَّدَها بـ﴿وَٰحِدَةً﴾ لبيان أنَّهُم لم يحتاجُوا إلى إعادَةِ الصَّيْحَة مرَّة ثانِيَةً، وهكذا جميعُ ما أمر الله تعالى به كونًا فإنَّه لا يَحْتاج إلى إعادة؛ لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ هذه الصَّيْحَة أهلَكَتْهُم جميعًا لم يَنْجُ منهم أحدٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ وعلى هذا ترتيبُ فائدةٍ أُخْرى، وهي:

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ قَبْضَ مَلَكِ الموتِ لأَرْواحِ بَنِي آدم أكْبَرُ مِمَّا نتصوَّر.

فإنَّه قد يقول قائِلٌ: كيف يَقْبِضُ هذه الأرواحَ وهي تموتُ في آنٍ واحِدٍ؟

فنقول: إنَّ كيفَ في الأمور الغيبِيَّة لا تَرِدُ؛ لأنَّ هذه أمور لا نُدْرِكُها بحواسِّنا، فكل أمْرٍ غَيْبِيٍّ لا تَقُلْ فيه: كيف؟ ولِهَذا لَمَّا قيلَ للإمام مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: كيفَ استوى؟

قال: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ»[1] أي: لا يُمكِن أن ندرِكَه بالعَقْل حتى نسأَل عنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاء القومَ الذين كذَّبوا الرُّسُلَ الثَّلاثَةَ هَلَكُوا جميعًا؛ لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ وهذا يَدُلُّ على أنَّ من زَعَمَ أنَّ هذه القرية التي أُرْسِلَ إليها الثَّلاثَةُ هي أَنْطَاكِيَة فإن زَعْمَهُ باطل؛ لأن رُسُلَ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذين أُرْسِلُوا إلى أَنْطَاكِيَة، كانوا بعد موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولم يُهْلِكِ الله تعالى أُمَّةً على سبيلِ العُمُوم بعد أنْ نَزَلَتِ التَّوراةُ، هكذا قال كثيرٌ من العُلَماء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص:٤٣] قالوا: هذه الآية تدُلُّ على أنَّ الله لم يُهْلِكْ أمَّةً على سبيلِ العُمُوم بعد نزول التَّوراة، وهذه الآية ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ تدلُّ على أنَّهُم هَلَكُوا.



(١) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص٦٦) رقم (١٠٤)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٤١).

الآيـة (٣٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس:٣٠].

• • • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هؤلاء ونَحْوهم ممن كذَّبُوا الرُّسُلَ فأُهْلِكوا، وهي -أي الحسرة- شدَّةُ التألُّم، ونداؤها مجاز؛ أي: هذا أوانُكِ فاحْضُرِي]، قوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ الحسـرة هي: شِدَّةُ النَّدَم والتألُّم والحُـزْن على ما مضى، قال الله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧] -أي نَدَمات وعناء- وقوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ قيل: إنَّ القائل هم المُكذِّبون، وأنهم تحسَّروا على أنفُسِهِم، وقالوا: يا حسرةً على العِباد، ثم بيَّنُوا السَّبَب كما سيأتي.

وقيل: إنَّ الحَسْرة مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُل؛ يعني من هذا الرَّجُل ونحوه، يتحَسَّـر على هؤلاء العِبَاد.

وقيل: إنَّ التَّحَسُّر من الله عَزَّوَجَلَّ، لكن ليس معناه أنَّه يتَّصِفُ به، بل المعنَى أنَّه يُبيِّنُ حَسْرَة العباد على أنفُسِهم، يقول: يا حَسْرَةً واقِعةً على العباد، فتكون ﴿عَلَىٰ﴾ قريبة من معنى (مِن) يعني أنَّ الله تعالى بَيَّنَ أنَّ هؤلاء العباد المُكَذِّبين سوف يتحسَّرون

على تكذِيبِهِم، وهذا أقرب إلى السِّيَاق؛ لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ۝٢٩ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فالكلامُ كلام الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لَمَّا كان التَّحسُّر ندمًا وألَمًا، صار الله تعالى منزَّهًا عنه، فوَجَبَ أن يكون المراد: يا حَسْرَة واقِعَةً عليهم؛ أي: ما أشَدَّ تَحسُّرَ العباد على ما فعلوا من التَّكذِيب للرُّسُل كما نُبَيِّنُه آخِرَ الآية.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المرادُ بالعباد هنا العبُودِيَّةُ العامَّة، وليست الخاصَّة، لأنَّ العُبُوديَّة الخاصَّة لا تَحسُّر على أهْلِهَا، وقد تقدَّم أنَّ العُبُوديَّة تنقسِمُ إلى قِسمَيْن: عُبُوديَّة عامَّة وخاصَّة.

فإن قيل: العُبُوديَّة العامَّة يدخل فيها غيرُ مُكَذِّبين؟

فالجواب أن نقول: العُبُوديَّة هنا عامَّة، لكنَّه عامٌّ أريدَ به الخُصُوص، وهم المُكَذِّبون للرُّسُل، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَنِدَاؤُها مجَاز] يعني ليس حقيقةً؛ لأنَّ النداء حقيقةً إنَّمَا يُوَجَّه إلى من يَعْقِل، وما لا يَعْقِلُ فليس نداؤه على سبيل الحَقيقةِ، ولهَذا قالوا في قول الشاعر(١):

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

إنَّ هذا يُرادُ به التَّمنِّي، وليس نداءً بمعنَى طلَبِ الحُضُور؛ لأنَّ اللَّيلَ لا يَعْقِل، فالنِّدَاء حقيقةً إنَّمَا يوجَّهُ لمن يَعْقِل، وإذا وُجِّهَ لِمَن لا يعقل صار له معنًى آخرُ على سبيل التَّجَوُّز، والمعنى أنَّه جعل غير العاقِلِ كالعاقِلِ، كأنَّ الحَسْرَة شيءٌ يأتي ويذهب؛ يقول: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: ﴿مَا﴾ نافية و(من) زائدة لِوُقُوعِهَا في سياقِ النَّفْي، وهي زَائِدَةٌ زَائِدَةٌ، زائدةٌ لفظًا، وتزيد في المعْنَى.

---

(١) البيت لامرئ القيس من معلقته المشهورة، انظر: خزانة الأدب للبغدادي (٣/ ٢٧١)، شرح المعلقات السبع للزوزني (ص٦٠).

وهذا معنى قولنا: (زَائِدَةٌ زَائِدَةٌ) وليس في القُرْآن حرْفٌ واحد لا يفيدُ معنًى أبدًا، فكلُّ ما في القُرْآن فإنَّه يشتَمِلُ على المعانِي، ولكن قد يكون زائدًا من حيث الإعرابُ فقط، ولِهَذا فإعرابُ (رسولٍ) في هذه الآية فاعِلٌ مرفوع بضمَّة مقدَّرة على آخره منع من ظُهُورها اشتغالُ المحَلِّ بحركة الحَرْفِ الزَّائِد، وفائدَتُها التَّنصيصُ على العُمُوم؛ لأن (رسول) نكرة في سياق النَّفْي فيَعُم، فإذا جاءت (مِنْ) صارت أنصَّ وأدَلَّ على العُمُوم ممَّا لو حُذِفَت؛ ولِهَذا قالوا: إن فائِدَتَها في مثل هذا السِّيَاق التَّنْصِيص على العُمُوم.

وقوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ الرَّسُولُ عند عامَّة أهْلِ العِلْم هو بَشَر أُوحِيَ إليه بِشَرْع وأَمْر بتبليغِهِ، ويُطلَق الرَّسُول على الرَّسُولِ المَلَكِيِّ، فإنَّ الله سَمَّى جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولًا؛ كما في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]، وقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: إلا كانوا يَستَهزِؤون به.

ولكنْ قُدِّمَ المعْمُولُ وهو (به) لإفادَةِ الحَصْرِ، ولِمُناسَبَة رُؤُوسِ الآياتِ؛ فقُدِّمَ لفائدتَينِ:

١- فائدةٍ لفظيَّةٍ، وهي مراعاةُ الفَوَاصِل.

٢- وفائدةٍ معنويَّةٍ، وهي: الحَصْرُ، كأنَّه قال: (إذا أتاهم الرَّسُول فكأنَّهم لا يَسْتَهزِؤون بأحَدٍ سوى هذا الرَّسُولِ)، وهم يستَهزِؤُون بغيره، ولكن لَمَّا كان هؤلاء قد أَمْعَنُوا في الاسْتِهْزَاء بالرُّسُل صاروا كأنَّهم لا يَسْتَهزِؤون إلا بالرُّسُل، والاستِهْزَاء هو السُّخْرِيَة والهُزْءُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآية دليل على شِدَّة تحسُّر العِبَادِ المُكَذِّبين للرُّسُل؛ لقوله: ﴿يَحَسْرَةً﴾، ولِهٰذا جاء النِّداء على سبيل التَّنكير؛ ليدلَّ على أنَّها حَسْرة عظيمة؛ لأنَّ التَّنْكير يُفيد أحيانًا التَّعظِيمَ والشِّدَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء المُكَذِّبين للرُّسُل سَيَجِدون أعمالَهُم حَسَراتٍ عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ وهو أنَّه لا يَأْخُذُ أحدًا إلا بذنبه؛ لقوله: ﴿يَحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فلن يعاقِبَ الله أحدًا إلا بذَنْبٍ، بل إنَّه عَزَّوَجَلَّ قد يعْفُو عن الذَّنْب إذا كان دونَ الشِّرْك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الرِّسَالَة؛ لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ وأنَّ الرِّسَالَة عامَّة في كلِّ أمَّة؛ لأنَّه قال: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ فكُلُّ العبادِ قد قامت عليهم الحُجَّة ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الاسْتِهْزَاء بالرُّسُل كُفْرٌ موجِبٌ للعُقُوبة؛ لأنَّ السِّيَاق في قومٍ كذَّبوا الرَّسُول فأُهْلِكُوا جميعًا، ثُمَّ قِيلَ: ﴿يَحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فدَلَّ هذا على أنَّ الاسْتِهْزَاء بالأنبياء أو بالرُّسُل كُفْرٌ، ويَدُلُّ لِهٰذا قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]، فالاستِهْزَاء بالكُتُب كُفْر؛ لقوله: ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾.

والاسْتِهْزَاء بشَرْعٍ مِنَ الشريعة ولو بشَعِيرَةٍ واحِدَة كُفْرٌ؛ لأنَّ الاسْتِهْزَاء بالشَّعِيرة

الواحدة اسْتِهْزَاء بكُلِّ الشَّريعَة، كما أنَّ الكُفْرَ بالشَّعِيرة الواحدة كُفْرٌ بِجَميع الشَّريعَة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

فمن آمَنَ بالرِّسَالَة ولكِنْ كَفَرَ بشَعِيرةٍ واحِدَة منها، فقد كَفَرَ كفرًا تامًّا بالجميع، ومنِ اسْتَهْزَأ بشَيْء من شرائِعِ الرُّسُل ولو بشيء ليس بواجِبٍ، حتى بالشَّيْء المنْدُوب لو اسْتَهْزَأ فقد كفر؛ لأنَّه لا يُمكِن الإيمانُ ببعضٍ دون بعضٍ، بل مَنْ كَرِهَ ما أَنْزَلَ الله فقد كَفَرَ، والدَّليل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد:٩]، ولا تحْبَط الأعمالُ إلا بالكُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧].

فالمسألَةُ مسألَةٌ عظيمة ليسَتْ بالهَيِّنَة، ولِهَذا يجب على المرْءِ الرِّضا بكلِّ ما شرع الله تعالى، فيرضَى مثلًا بوُجُوب الصَّلاة، وتحريم الخَمْر، ووُجُوب الزَّكاة، وتحريم الرِّبا، وعلى هذا فَقِسْ، فكلُّ شيءٍ يجب أن ترْضَى به وتَقْبَلَه، ثم إنْ عَمِلْتَ به أُثِبْتَ، وإن لم تعمَلْ به عُوقِبْتَ واستحْقَقْتَ العَذَابَ إذا كان واجبًا، إلا إذا كان هذا الواجِبُ تَرْكُهُ كُفْرٌ؛ فإنَّه إذا تركْتَهُ كَفَرْتَ.

فمثلًا يجب على الإنسان أن يؤمِنَ بتحريم الرِّبا، فإن أنْكَرَ تحريمَهُ كَفَرَ، أو لم يقْبَل تحريمَه كَفَرَ، وإذا آمن بتحريمِهِ وقَبِلَه ورَضِي بالتَّحريم ولكن فعل الرِّبَا فلا يَكْفُر، وحُكْمُه حُكْمُ العُصَاة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّه ما من رسولٍ أُرْسِلَ إلا وَجَدَ من يستهْزِئُ به ومن يُؤْمِن به، ولكنْ منهم من لا يَجِد من يؤمِنُ به؛ لقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في حديث السَّبعين ألفًا: «والنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1]. فالاسْتِهْزَاء حاصِلٌ لكل رسول.

مسألة: واختلف العُلَمَاء فيمن سَبَّ الله تعالى أو رَسُولَه ﷺ هل تُقْبَلُ توبَتُه؟ على قولين:

القول الأَوَّلُ: أَنَّه لا تُقْبَل تَوبَتُه، بل يُقْتَل قَتْلَ المُرتَدِّ فلا يُغَسَّل، ولا يُكَفَّن، ولا يُصلَّى عليه، ولا يُدْفَن مع المسلِمِينَ، وفي الآخِرَة أمْرُه إلى الله تعالى، إن كان الله تعالى عَلِمَ منه صِدْقَ التوبة فإنَّه لا يُعَـذِّبُه، وإن كان الله تعالى عَلِمَ منه كَذِبَها فإنَّه يُعَذَّبُ في الآخرة، وهذا هو المشهُور من مذْهَبِ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والقول الثَّانِي: تَصِحُّ توبَةُ من اسْتَهْزَأ بالله تعالى أو رَسُولِه ﷺ، ولكن بالنِّسْبَة لمن استهزأَ بالرَّسُول ﷺ يُقتَل، وأما من سَبَّ الله تعالى أو اسْتَهْزَأ به فإنَّه لا يُقْتَل، وهذا هو الصَّحيح؛ أنَّ الإنسان إذا سَبَّ الله تعالى أو رَسُوله ﷺ أو استهْزَأَ بهما فإنَّه يَكْفُر، فإن تاب قُبِلَت توبَتُه، لكنَّه يُقْتَل إذا كان السَّبُّ أو الاسْتِهْزَاء بالرَّسُول ﷺ، ولا يُقتَل إذا كان السَّبُّ أو الاسْتِهْزَاء بالله تعالى.

والفَرْقُ بينهما: أنَّ الاسْتِهْزَاء بالرَّسُول ﷺ وسَبَّهُ حقٌّ شَخْصِي، وأمَّا الاسْتِهْزَاء بالله تعالى وسَبُّه فهو حقٌّ لله عَزَّوَجَلَّ، وقد أَخْبـَرَنا الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه يَقبَل التَّوبة من جميعِ الذُّنُوب، وإذا قَبِلَ الله توبَتَه ارتَفَعَ عنه مُقْتَضَاها وهو القَتْل، أمَّا السَّابُّ للرَّسُول

---

(١) أخرجه بمعناه البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، رقم (٦٥٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، رقم (٢٢٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فإنَّنا لا نعلمُ أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عَفَا عن حَقِّه؛ لذا وجب علينا أن نَأْخُذَ به.



الآية (٣١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٣١].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: أَهْل مَكَّةَ القَائِلُون للنَّبِيِّ ﷺ لسْتَ مرسلًا، والاستِفْهَام للتَّقرير؛ أي: عَلِمُوا]، الرؤية هنا فَسَّرَها برؤْيَة العِلْم؛ وذلك لأنَّهُم لم يشاهِدُوا هذا بأَعْيُنِهِم، وإنَّما عَلِمُوه بما بَلَغَهُم من الخبَر.

وقوله: [أي أَهْل مَكَّةَ] الصَّحيحُ أنَّ هذا ليس خاصًّا بأهل مكَّة، بل هو عامٌّ لكُلِّ من كَذَّبَ الرَّسُول ﷺ، وكأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعله خاصًّا بأهْلِ مكَّة؛ لأنَّ الآية مَكِّيَّة، ولكنَّه يقال: حتى وإن كانَتِ الآية مَكِّيَّة، فإنَّ المُكَذِّبين للرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام من أهْلِ مكَّةَ وغيرِهِم، فأهلُ الطَّائِفِ كذَّبوا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكذلك غيرُهُم كثيرٌ؛ لأنَّ النَّاس لم يَدْخُلوا في دِينِ الله أفواجًا إلا بعد فتحِ مكَّةَ.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(كم) خبريَّة بمعنى: كثيرًا، معمولةٌ لِـمَا بعدها، مُعلِّقَةٌ لما قَبْلَها عن العمل] ﴿يَرَوْا﴾ بمعنى العِلْم، وإذا كانت الرُّؤْيَة بمعنى العِلْم فإنَّهَا تنصِبُ مفعولين، وقوله عَلَّقَتْها عن العَمَلِ؛ يعني أنَّها أبطَلَتْ عَمَلَها لفظًا؛ لأنَّ التَّعْليقَ يُبْطِلُ العَمَلَ لفظًا فقط لا محَلًّا، والإلغاء يُبْطِلُه لفظًا ومحلًّا، والأفعال القَلْبِيَّة إمَّا أن تعمَلَ في اللَّفْظ والمَحَلِّ، وإمَّا أن تعمَلَ في المحَلِّ

دون اللَّفْظ، وإمَّا ألَّا تَعْمَل لا في اللَّفْظ ولا في المحَلِّ، الثَّالِثُ: يسمَّى إلغاءً، والثَّانِي: يُسمَّى تعليقًا، والأَوَّلُ: يُسَمَّى إعمالًا، فكم هنا عَلَّقَتْ ﴿يَرَوْا﴾ عن العمل في اللَّفْظ، أمَّا المحَلُّ فالجُمْلَة في محل نَصْبٍ سَدَّت مَسَدَّ مفعولَيْ ﴿يَرَوْا﴾ ثم هي لَهَا إعرابٌ باعتِبارِ ما بعدها، فباعتبار ما بعدها مفعول لِمَا بَعْدَها، وعليه فتُقَدَّرُ كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمعنى: كثيرًا]، ثم قال: [والمعنى: أنَّا ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كثيرًا ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأُمَمِ].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾: ﴿مِّنَ﴾ هذه لبيان الإبهامِ الوَاقِعِ في كم، و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ جمع قَرْنٍ، وهم الأُمَّة المشتَرِكة في عَصْر من العُصُور، والعَصْر مِئَةُ سَنَة، وعلى هذا يكون القَرْن مئةَ سَنَة، ولكن قد يكون دون ذلك، فقد تكون أمَّة تبقى أقلَّ من القرن، يُهْلِكُها الله عَزَّوَجَلَّ قبل أن يَتِمَّ لها هذا العددُ من السِّنينَ، لكنَّ الضَّابِطَ أن نقول: القَرْنُ هم الأمَّة التي اشْتَرَكَت في عصر.

﴿أَنَّهُمْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: المُهْلَكِين ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى المُكَذِّبينَ]، وفي نسخة [﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى المَكِّيِّينَ]؛ لأنَّ الخِطَاب لأَهْلِ مكَّة، فالمُكَذِّبون هم المَكِّيُّون، والقول بأن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي المُكَذِّبين أعَمُّ، فهؤلاء الأمم التي أُهْلِكَت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا، بل ذَهَبَتْ وزالت وكأنَّها لم تُوجَد ولم يَبْقَ إلا عمَلُها.

﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أفلا يَعْتَبِرون بهم، وأنهم... -إلى آخره- بدلٌ مما قبله برعاية المعنى المذكور] الذي قبله قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كأنَّه قال: (ألم يروا أنَّهُم لا يرجعون)، فهي بدل مِمَّا قبلها من حيثُ المعنى؛ أي: لا من حيث الإعراب؛ لأنَّها جُمْلَة مستقِلَّة، وليست تابعَةً لها في الإعراب، ولكنَّها تابعةٌ لَهَا في المعْنَى.

والخُلاصَةُ: أنَّ اللهَ بيَّنَ في هـذه الآية بيانًا يقرِّرُ به هـؤلاء المُكَذِّبين بأنَّه أهْلَكَ كثيرًا من الأمم السابقة، وأنَّ هؤلاء المُهْلَكِين لا يَرْجِعون إلى هؤلاء المُكَذِّبين؛ لأنَّهم انْتَهَـوْا من الدُّنْيا ولم يبقَ لهم الرُّجُـوع إليها حتى يَسْتَعْتِبـوا، فالواجِبُ على هـؤلاء المُكَذِّبين أن يَعْتَبِروا بهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تقرير المُكَذِّبيـن بما يُقِـرُّون به، أنَّه أهلك من سَبَقَهُم؛ لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه يجب على الإنسان أن يَنْظُر ويعْتَبِرَ بحيث إذا نظر في عواقِبِ النَّاس اتَّخذ من ذلك عِبْرَة؛ لأنَّ الاستفهامَ هنا مع كونه للتَّقرير مُفِيدٌ للتَّوبيخِ، لأنَّ الواجِبَ على من نظر في عاقبة المُكَذِّبين أن يَرْتَدِعَ عن الكَذِبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه لا بَعْثَ ولا رُجُـوع قبل يوم القيامة؛ لقـوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فلا أحَدَ يُبْعَثُ قبل يوم القيامة، اللَّهُمَّ إلا على سبيل الآية كما ثبت في القُرْآن أن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحْيِي الموتى بإذن الله تعالى، وكما في قصَّة الرَّجُل الذي أماته الله مئة عام ثم بعثه، وكما في قصَّة بني إسرائيل الذين أخَذَتْهُم الصاعقة ثم بَعَثَهُم الله بعد مَوْتِهم، وكما في قِصَّة الرَّجُل الشَّابِّ الذي يَقْتُلُه الدَّجَّال ثم يكَلِّمُه ويخاطِبُه فيقومُ حيًّا، وإلا فإنَّ الأصلَ أنَّ من مات لا يرجع أبدًا؛ لقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.



الآيـة (٣٢)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢].

• ● ● •

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [(إن) نافية، أو مُخَفَّفَة]، قوله نافية؛ أي: بمعنى (ما)، ومخفَّفَة بمعنى (إنَّ) لكنَّها خُفِّفَتْ و(أو) في كلام المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لَيسَت للتَّخْيير بل هي للتَّنْوِيع؛ لأنَّها على حَسَبِ القراءة الآتية في ﴿لَّمَّا﴾.

﴿كُلٌّ﴾ أي: كلُّ الخَلَائِق، وهي مبتدأٌ على التَّقْدِيرَينِ، أي على أنَّها نافية وعلى أنَّها مُخَفَّفَة؛ لأنَّ المخَفَّفَة تعمَلُ في الجُمْلَة، واسْمُها ضميرُ الشَّأْنِ محْذُوفٌ فـ﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ على كِلا الوَجْهَينِ؛ أي على أنَّ (إنْ) نافية، أو مُخَفَّفة ﴿لَّمَّا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالتَّشدِيد بِمعنَى إلا، أو بالتَّخفِيـفِ؛ فاللام فَارِقَة و(ما) مزيدة] ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد بمعنى إلا، وعلى هذا تكون إنْ نافية، والتَّقْدِير: (وما كُلٌّ إلا جَمِيعٌ لدينا مُحْضَرونَ)، وبالتَّخْفِيـف فاللامُ فَارِقَة بين (إنْ) النافية و(إنْ) المُخَفَّفَة و(ما) مزيدة، والتَّقْدِيـر على هذا: (وإن كلٌّ لَجَمِيعٌ لدينا مُحْضَرُون) لأن (ما) زائدة، فإذا أَرَدْنا أن نُعْرِبَ هذه الآيَةَ نقول: (إن): نافِيَة على قراءةِ التَّشْدِيدِ، و(لَمَّا) بمعنَى إِلَّا.

الإعراب الثَّانِي: (إنْ) مُخَفَّفَة على قِراءَةِ التَّخفيفِ، واللامُ فارِقَةٌ وهي للتَّوْكِيدِ، و(مَا) زَائِدَة، والتَّقْدِير على هذا: (وإنْ كلٌّ لَجَمِيعٌ لَدَيْنَا)، ﴿جَمِيعٌ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [خَبَرُ المبتدأ أي: مَجْمُوعونُ] المبتدأ ﴿كُلٌّ﴾.

فإن قال قائل: كيف يكون خبرًا لـ(كُلٌّ) و(كُلٌّ) تدلُّ على الشُّمُول؟

فالجواب: أن (كلًّا) تدلُّ على الشُّمُول، لكنْ لا يَلْزَم من دَلالَتِها على الشُّمُول الاجْتِمَاعُ، فتقول: أَكْرِمْ كُلَّ القَوْمِ، وقد يكونُ القَوْمُ مُتَشَتِّتِينَ؛ كُلُّ واحدٍ بجانبٍ، لكن ﴿جَمِيعٌ﴾ تدلُّ على الاجتماع؛ ففيها زيادةٌ على الشُّمُول وهي جَمْعُ النَّاس، فكل النَّاس يَحْضُرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن هَلْ حُضُورُهم مُتفَرِّقٌ أو مُجْتَمِع؟

الجواب: حُضُورُهم مُجْتَمِع؛ ودليله الآية ﴿جَمِيعٌ﴾، إِذَن: فلا يقول قائل: إنَّ المبتدأ هو نَفْسُ الخَبَر؛ لأن كَلِمَة ﴿كُلٌّ﴾ تدلُّ على الشُّمُول، و﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الشُّمُول، نقول: لا؛ لأنَّ الفَرْقَ بينهما أنَّ ﴿كُلٌّ﴾ تدلُّ على الشُّمُول، وإن كانوا متفَرِّقِينَ و﴿جَمِيعٌ﴾ تَدُلُّ على الشُّمُول مع الاجْتِمَاع.

قال المُفسِّر: [مجموعون ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا في الموقِفِ بعد بَعْثِهِم ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للحِسَاب: خَبَرٌ ثان] أي: خبر ثان لـ﴿كُلٌّ﴾ فصار ﴿كُلٌّ﴾ لها الآن خبران؛ الأَوَّلُ: ﴿جَمِيعٌ﴾ والثَّانِي: ﴿مُحْضَرُونَ﴾، ومعنى هذه الآية: ما كلُّ واحدٍ من هؤلاء إلا مُحْضَرٌ لَدَى الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، والنَّاسُ جَمِيعٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ البَعْثِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كمالُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ يجمع هذه الخَلائِقَ جميعًا في مكانٍ واحد؛ لقوله: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجُوبُ الاستعْدَادِ لِهَذا اليوم؛ لأنَّ الله تعالى لم يُخْبِرْنا به لِمُجَرَّدِ الاطِّلاعِ، ولكنَّه أخبرنا به من أجْلِ أن نستَعِدَّ له حتى نكون على أُهْبَةٍ لِمَا سَنُحاسَب عليه.

الآيات (٣٣-٣٥)

• ● ☙ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣-٣٥].

• ● ☙ ● •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ على البَعْثِ: خَبَرٌ مقدَّم ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتَّخفيف والتَّشْدِيد ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بالماءِ: مُبْتَدأ] الآية في اللغة: العَلَامة والدَّلِيل القاطِعُ على الشَّيْء، وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خَبَرٌ مقدَّمٌ]، المبتدأ الأرض.

وقوله: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ بالتَّخفِيف والتَّشْدِيد يعني أن فيها قراءَتَين «الميِّتة» و﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾، وهذا دليل على أنَّ المَيْتَة كما يُطلَق على المَيِّت الذي قد فارَقَتْ رُوحه جَسَدَه، يُطلَق أيضًا على الذي سَيَمُوت؛ خلافًا لمن قال: (إنَّ الميِّت لِمَن سَيَمُوت) و(المَيْتَ لمن مات بالفِعْل)، فإنَّ الأرض المَيْتَة قد ماتت، ومع ذلك فيه هنا قراءتان: «الميِّتة»، و﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾.

﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ صفة و﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفة للأرض؛ ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مبتدأ] جعله بعد قوله: [أحييناها] ليُبيِّن أنَّ المَيْتَة وأحييناها كِلَاهما صِفَةٌ للأَرْضِ، ولكنَّ الصَّحيحَ أن ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ جُمْلَة اسْتِئْنافية لبيان وَجْهِ الآية في هذه الأرض؛ لأنَّ مَحَطَّ الفائِدَة ليس هو موتَ الأرضِ، ولكنَّ الله تعالى أحياها بعد مَوْتِها،

أما على رأي المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ فإذا جُعِلَ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ صفة، فإنَّه يُشْكِل علينا أنَّ هذا مُخالِفٌ للقاعدة المعروفة: «أنَّ الجُمَل بعد المعَارِفِ أحوالٌ».

والجواب على ذلك أن يقال: إنَّ الأرض هنا المرادُ بها الجِنْس فهي بمعنى النكرة؛ ونظيرها قول الشاعر[1]:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّت قُلْتُ لَا يَعْنِينِي

قال: (اللَّئِيم يَسُبُّنِي): وتقديره: (على لئيم يسبُّني)، ومنه أيضًا على قول بعضِ المُعْرِبين: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥]، على أن جُمْلَة ﴿يَحْمِلُ﴾ صفة الحمار؛ لأنَّ المراد به الجنْسُ، فهو بمعنى: كَمَثَلِ حمارٍ يحمِلُ أسفارًا، أما على القَوْلِ الذي اخترناه فنقول: إنَّ جُمْلَةَ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ استِئْنافِيَّة لبيانِ وَجْه الآيَةِ في الأرْضِ المَيْتَةِ.

ووَجْهُ كَوْنِها آيَةً: أنَّ هذه الأرض المَيْتَة أشجارُها يابِسَةٌ، وليس فيها ثَمَرٌ، فيُنْزِلُ الله عليها المَطَرَ فتحيا بعد المَوْتِ، فالذي أحياها وقَدَرَ على إحيائها قادِرٌ على إحياء الموتى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩].

وعليه فنقول: وَجْهُ الآية أنْ نَقِيسَ الشَّاهِد بالغائِبِ، فالشَّاهِد المَنْظُور هو هذه الأرض المَيْتَة، أشجارُها يابِسَة يَنْزِل عليها المَطَر فتخْضَرُّ، فالذي أحياها قادِرٌ على إحياء الموتى.

﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ معطوف على ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ يعني: الأرضُ مَيْتَة أحييناها

(١) نسبه الأصمعي في الأصمعيات (ص١٢٦) لشمر بن عمر الحنفي.

بالزَّرْع، فقام الزَّرْع أخْضَرَ يهْتَزُّ، ولكن مُجَرَّد كونِهِ زرعًا لا يُفِيدُ الآدَمِيَّ، وإنَّمَا يُفيدُ البَهائِمَ، ويُفيد الآدَمِيَّ عند الضُّرورة لكنَّ الفائِدة العظمى منه ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿حَبًّا﴾ كالحِنْطَة ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾: ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من هذا الحَبِّ يأكلون.

وفائدة قوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دليلٌ على سُهُولة تناول هذا الحَبِّ وعِظَم فائدته، وأنَّه حَبٌّ نافِعٌ سَهْلُ التَّنَاوُل، لأنَّه لو كان صعبًا لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلا بمَشَقَّة عظيمة؛ ولِهَذا قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدَّمَ المعْمُول لإفادة الحَصْر، لكنَّه حَصْرٌ إضافِيٌّ لسُهُولَتِه كأنَّه لا أَكْلَ لهم إلا من هذا السَّهْل المتيَسِّر ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ أي بساتينَ ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ هذا غيرُ الحَبِّ؛ لأنَّ الخارِجَ من الأَرْضِ يكون حبًّا، ويكون ثَمَرًا، الحَبُّ من الزُّروع، والثَّمر من الأَشْجَار.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾: (جَعَلْنَا) بمعنى صَيَّرْنا، فهو ناصِبٌ لمفعولين؛ المفعول الأول ﴿جَنَّٰتٍ﴾ والثَّانِي: ﴿فِيهَا﴾ و﴿جَنَّٰتٍ﴾ جَمْع جَنَّة وهي البُسْتَان الكَثِير الأشْجَار، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَجُنُّ من دَخَلَه وكان فيه لاسْتِتارِهِ به، وأَصْلُ هذه المادة -الجيم والنون- تدور على هذا المعْنَى؛ أي: على الاستتار والخَفَاء، ومنه سُمِّي القَلْب: جَنانًا؛ لاستتاره، ومنه سُمِّي الجِنُّ؛ لاستِتَارِهِم وخفائِهِم، ومنه سُمِّي الجُنَّة: الوِقَاية؛ لأنَّ الإنسانَ يَسْتَتِرُ بها.

فكل هذه المادة تدلُّ على الخفاء والاستتار؛ فالبُستانُ الكَثِير الأَشْجَارِ المتشابِكَة إذا كان فيه أحدٌ لا يُرَى؛ لأنَّ هذه الأشْجَارَ تَسْتُرُه.

﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ النَّخِيلُ والأعناب معروفةٌ، ونصَّ الله عليها؛ لأنَّها طعامٌ وقُوتٌ لا يَحتاجُ إلى مُؤْنَة؛ ولِهَذا يُقْتَات رطبًا ويابسًا، فيُقْتَاتُ رطْبًا كالرُّطب في

التَّمْر، وكالعِنَب في العِنَب، ويابسًا كالتَّمْر الذي يَؤُول إليه الرُّطب، وكالزَّبيب الذي يَؤُول إليه العِنَبُ، فجمع الله بينهما؛ لأنَّهُما قُوتٌ حُلْوٌ لا يَحْتَاجُ إلى مُؤْنَة طَبْخٍ، ويُنْتَفَعُ به رطبًا ويابِسًا.

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعضها]. ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ لبيانِ الجِنْس ويكونُ هذا عامًّا، وهو الأَقْرَب أي: فجَّرْنا فيها من العُيُون عيونًا كَثيرة، وأصنافًا مُتنوِّعَة؛ فمنها العُيُون الجارِيَة الغَزيرَة، ومنها العُيُون الرَّاكِدَة التي لا تَجْرِي لكنَّها تنبُعُ على جِهَة الأَرْض، ومنها العُيُون التي تكون بواسطةٍ كالأنابيب المعروفةِ الآن تُركَّزُ في الأرض فيَخرُج الماء، ومنها العيون التي تكون بلا واسِطَةٍ كالذي يتفجَّر من رُؤُوسِ الجبال وغير ذلك، كلُّ هذا دليلٌ على قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ وعلى رَحْمَته بعباده، يقول: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

﴿لِيَأْكُلُواْ﴾ الضميرُ يعود على النَّاس، واللام للتَّعْليلِ، والفِعْلُ بَعْدَها منصوبٌ إمَّا بِها على مَذْهَبِ الكُوفِيِّينَ، وإمَّا بـ(أنْ) مُضْمَرَةٍ على مذهب البصريِّينَ، وقوله: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بفتحتين وبضمَّتَينِ] أي: ثَمَرِه، وثُمُرِهِ. وثَمَرُهُ هنا مفرَدٌ، ولم يقل: (من ثَمَرِهِمَا) لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذكر نخيلًا وأعنابًا فهما صنفان، ولم يقل: (من ثَمَرِهِمَا) بل قال: ﴿مِن ثَمَرِهِۦ﴾ أي: ثَمَرِ المذكور، فالضميرُ هنا يعود على المذكور من النخيل والأعناب.

قال المُفسِّر: [﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تَعْمَلِ الثَّمَرَ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعْمَةَ الله تعالى عَلَيهم] قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ في (ما) قولان للمُفَسِّرِين:

القول الأَوَّل: أنَّها نافِيَة، وهو الذي مشى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يعني أنَّ هذا الثَّمَر الخارِجَ من النَّخِيل والأعناب لم تَعْمَلْه أيدي النَّاس.

القول الثَّانِي: أنَّها بمعنَى الذي؛ أي: (مِنَ الذي عَمِلَتْه أَيْديهِم)؛ لأنَّ النَّاس قد يَعْمَلُون شيئًا يُصْلِحُونه، مثل عصير العِنَب، وكذلك دَبْس التمر، وكذلك الخُبْز الذي يَخْبِزونه من الزُّرُوع، وغير ذلك مِمَّا يصنَعُه النَّاسُ بأيديهم ويتمتَّعُون ويتفكَّهُون به، فهناك أنواعُ الحلوى تُصنَع باليَدِ، فيكونُ الله تعالى امْتَنَّ على العِبَاد بأمْرَين: امتَنَّ بما يُخْرِجُه هو عَزَّوَجَلَّ من هذه الثِّمار والزُّروع، وامتَنَّ عليهم بما عَلَّمَهُم إيَّاهُ مِمَّا يعمَلُونه بأيديهِمْ، والمأكُولاتُ التي نأكُلُها نوعان: نوعٌ لا نُحْدِثُ فيه شيئًا نأكُلُه كما يقولون طازجًا، ونوع آخَرُ نَعْمَل فيه، ونُرَكِّبُه مثلًا من عِدَّة ثَمَراتٍ وما أَشْبَهَها، فيكونُ الله عَزَّوَجَلَّ امتَنَّ على العِبَاد بالأمرَينِ جميعًا.

والمعنَى الثَّانِي أعَمُّ فيكونُ أَوْلَى، على أنَّ القاعِدَة: «أنَّ الآيَةَ إذا كانَتْ صَالِحَة للاحتمالَينِ فلا مانِعَ من أن تُحمَلَ عليهما» فنقول: إنَّ الله أراد هذا وهذا، أراد أنَّ أيْدِينا لم تعمَلْ هذه الثَّمَراتِ التي تَخْرُج من النَّخِيل والأعنَابِ، ولا هذه الحُبُوب التي تَخْرُج من الزُّرُوع، وأراد أيضًا ما نَعْمَلُه نحن بأيدينا على حَسَبِ ما نريد، فكل هذا نِعْمَة.

وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهامُ هنا للتَّوبِيخِ، والجمْلَةُ مَعْطُوفة على مُقدَّر يُعلَم من السِّيَاقِ، يعني: أَغَفَلُوا عن ذلك فلا يَشْكُرونَ، أو أَكَفَرُوا به فلا يشكرون؟ لأن انتفاءَ الشُّكْرِ يكون إمَّا بالغَفْلَة، أو بالكُفْر المتعَمَّد؛ فكثيرٌ من النَّاس بالنِّسْبَة للنِّعَم إمَّا غَافِلٌ ويرى هذا أمرًا معتادًا وكأنَّها شيءٌ جارٍ على العادة بدون أن يكونَ لله فيه مِنَّةٌ، وهذا يَحْصُل من المؤمن الذي لم يُصَبْ بِضِدِّ تلك النِّعَم؛ لأنَّ الإنسان لا يعرِفُ قَدْرَ النِّعْمَة إلا حيث يُصابُ بضِدِّها، فلا يَعْرِفُ قَدْرَ الشِّبَع إلا مَن جاع، ولا قَدْرَ الرِّيِّ إلا من قد ظَمِئَ، ولا قَدْرَ العافِيَة إلا من مَرِضَ، ولا قَدْرَ الأُنْس

إلا مَنْ فَقَدَ الأَنيسِ، وهكذا، وهذه غَفْلَة.

وإمَّا أن تكون كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل:٨٣] كُفْرًا بالنِّعْمَة وبَطَرًا، يقول: (إنَّما أُوتيتُهُ على عِلْمٍ عِنْدِي) وما أَشْبَهَ ذلك، وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الشُّكر هو: (القِيَام بطاعَةِ المُنْعِمِ، وصرف نِعَمِه فيما جعلها الله له)، فمن صَرَفَ نِعَمَ الله على غير ما جَعَلَها الله له فليس بِشَاكِرٍ، فلو جعل النِّعَم عونًا له على المَعْصِيَة فصار يستعين بنِعَمِ الله على مَعْصِيَته لم يكن شاكرًا؛ لأنَّه صَرَفَها في غير ما جُعِلَت له، وإنَّما أنعم الله علينا بهذه النِّعم لِنَقُومَ بعبادته والتَّقَوِّي عليها، والشُّكْر مُتعلَّقُه ثلاثةُ أشياءَ: القَلْب واللِّسان والجَوَارِح، وعلى هذا قال الشاعر[1]:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

فشُكْرُ القَلْبِ: أن يعتَرِفَ الإنسانُ بقَلْبِه أنَّ هذه النِّعْمَة من الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي منَّ بها، إن كانت نِعْمَة إيجادِيَّة، أو كانت دَفْعَ نِقْمَة فإنَّها من الله وهو المانُّ بها، فلا يَجْعَل ذلك من أسبابِ عَمَلِه وذَكَائِه، بل يَجْعَل ذلك من فَضْلِ الله عَزَّوَجَلَّ وإحسَانِهِ.

وشُكْرُ اللِّسَانِ: أن يُثْنِيَ الإنسانُ بِهِ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ لكن لا على سَبيلِ الفَخْر والعُلُوِّ على الآخرين، فإنَّه إذا تَحَدَّث بها على سبيل الفَخْرِ والعُلُوِّ على الآخرين صار هذا كُفرًا لا شُكْرًا.

وشُكْرُ الجَوَارِح: أن يقومَ بطَاعَةِ المُنْعِم عَزَّوَجَلَّ؛ ومِنْ شُكْرِ الجَوَارِح: أن يُظْهِرَ أَثَرَ النِّعْمَة عليه، فإن كان غنيًّا ظَهَرَ ذلك عليه في مَرْكُوبه ومَلْبُوسه وكُلِّ مَظْهَرِه؛

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

لأنَّ الله تعالى إذا أنْعَمَ على أحَدٍ بنعْمَةٍ أحَبَّ أن يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِه عليه.

فإذا قال قائل: هل بَيْنَ الحَمْدِ والشُّكْر فَرْقٌ أو هُما متَّفِقَان؟

فالجواب: أنَّ بينهما فرقًا:

أوَّلًا: أنَّ الحَمْد متعلَّقُه اللِّسَان فقط؛ لأنَّه وَصْفُ المحْمُود بالكَمال مع المحَبَّة والتَّعظيم، فلا يتعدَّى إلى الجَوَارِح.

ثانيًا: أنَّ الحَمْد يكون لإحسان المحْمُود ولكمالِ المحْمُود، والشُّكْر للإحسان فقط، فالشُّكر يكون على النِّعَم فقط، والحَمْد يكون على النِّعَم وعلى أَوْصَافِ الكَمال، فبَيْنَ الحَمْد والشُّكر عُمُوم وخُصُوص من وَجْه، فالحَمْد أعَمُّ من حيث السَّببُ، وأخَصُّ من حيث المتعَلَّقُ، والشُّكْر أخَصُّ من حيث السَّبَب، وأعَمُّ من حيث المتعَلَّق، والله يُحمَد على نِعَمِه، وعلى كماله، فهذا سَبَبُ الحَمْد، والحمد إنَّما يكون باللِّسَان فقط، والشُّكر إنَّما يكون على النِّعَم فقط، فلا تقول: اشْكُر الله على كمال صِفَاتِه، بل على نِعَمِه، فسَبَبُ الشُّكر أخَصُّ، لكنَّه يتعلَّق بالقَلْب واللِّسان والجوارِحِ فهو أعَمُّ من حيث المتعَلَّق.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ على إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها؛ لقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستدلالُ بالشَّاهد على الغائِبِ، فإنَّ إحياءَ الأرضِ بعد الموْتِ مُشَاهَد، ويُستَدَلُّ على إحياءِ الله الموتى عند بَعْثِهم يوم القيامة، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدَّلِيل بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ

وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جوازُ وصْفِ الجمَاد بالموت والحيَاة؛ فإنَّه ليس خاصًّا بذي الرُّوحِ المتحرِّك؛ لقوله: ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ فوَصَفَها بالموتِ، ووَصَفَها بالحياة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ عظَمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾، ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ بضَمِير العَظَمَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ نِعمَة الله عَزَّوَجَلَّ بما أَخْرَج للنَّاس من الأرض من الحُبُوب والثِّمار؛ الحبوب قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ والثِّمار قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ حاجَةِ العَبْدِ لِرَبِّه؛ لقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، وكأنَّ هذا الحَصْر فيه إشارةٌ إلى تحَدِّي الإنسان أنَّه لا يُمكِن أن يأكُل إلا مِن هذا الذي أخرجه الله له، وهذا مِنْ فَوائِدِ الحَصْر، كأنَّه يقول: إنْ كنتَ قادرًا فأخْرِجْ لنَفْسِك ما تأكُلُه، إنَّكَ لن تأكُلَ إلا مِمَّا أخرجناه لك.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيانُ ما أنعم الله به على العبادِ من هذه الأشْجَار العظيمَةِ الكثيرة المُظِلَّة؛ لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فما أعْظَمَ نِعَمَ الله على العَبْد من هذه النَّخِيل والأعنابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بيانُ فضْلِ النَّخِيل والأعنابِ؛ لأنَّها ثَمرٌ يُؤكَل بلا تَعَبٍ، وثَمر يُقْتَات رطبًا ويابسًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بيانُ قُدرَة الله عَزَّوَجَلَّ في تفجيرِ الأرضِ عيونًا، هذه الأرض اليابِسَة جامِدةٌ يَخْرُج منها هذا الرطبُ السَّائِل، وهو الماء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ [البقرة:٧٤].

وهذا من عظيمِ قُدْرَةِ الله، وكان موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَضْرِب الحَجَر اليابِسَ، إمَّا حَجَرًا معيَّنًا -كما قيل- يَحْمِلُه معه، وإمَّا أيَّ حجرٍ كان يضرِبُه فيتفجَّر اثْنَتَي عَشْرَة عينًا، على قَدْرِ قبائلِ بني إسرائيلَ، وهذه من تَمامِ قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بيانُ احتياج النَّخِيل والأعناب إلى المَاء، وأن ثَمَرَه يَكْثُر بِحَسَب الماء؛ لأنَّه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ فدلَّ هذا على أنَّ الماء له أثَرٌ في كثْرَة الثِّمار وطِيبِها، وهذا هو الوَاقِع.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على الجَبْرِية بإثبات العِلَّة والحِكْمة في قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ والنُّصُوص الدَّالَّة على إثباتِ حكمة الله عَزَّوَجَلَّ كثيرةٌ جدًّا؛ منها ما صَرَّح الله تعالى به مثل قوله: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٥]، ومنها ما صَرَّح الله به على وَجه السَّلْب والنَّفْي: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٢٧]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]. ولا أدَلَّ على الصِّفَة من إثباتِها ونَفْيِ ضِدِّها، فإنَّ إثباتَها يَدُلُّ على الثُّبُوت، ونَفْي ضِدِّها يَدُلُّ على كمالِها، وأنَّها غير مَشُوبة بهذا النَّقْص الذي يَحْصُل بفقدها، أو بِفَقْد كمالِهَا، ولا شَكَّ أنَّنا إذا نفينا الحِكْمَة عن فِعْلِ الله عَزَّوَجَلَّ، أو عن شَرْع الله، لزم من ذلك النَّقْص العَظِيم، وأن يكون الله عَزَّوَجَلَّ يفعل الشَّيْء سَفَهًا وعَبَثًا؛ تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: بيانُ ما أنْعَمَ الله به على العِبَاد من هذا الثَّمر الذي يُؤكَل،

أرأيتَ لو أنَّ هذا الثَّمر صار مُرًّا هل يُنتَفَعُ به؟! ولِهَذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في الماء: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٦٨-٧٠]، فلم تستطيعوا شُرْبَه، هذا الثَّمر جعله الله شهِيًّا للنُّفوس، تأكل منه، وتتغذَّى به الأبدانُ؛ ولِهَذا قال: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ فلو شاء الله عَزَّوَجَلَّ لجَعَل هذا الثَّمر فاسِدًا، فقد يكون حُلْوًا لذيذًا شهيًّا لكِنْ يجعَل الله فيه آفَةً تُفْسِده، وهذا موجود بكثْرَةٍ، ولكنْ من نِعْمَة الله أنَّه يبقى ويُؤْكَل من ثَمره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّنا لا نَمْلِك لأَنفُسِنا أن نُوجِدَ هذا الثَّمر، وأنَّ ذلك مُجَرَّدُ فَضْلٍ من الله؛ لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإنَّ هـذا ليس من صُنْعِنا، فلو اجتَمَـعَ النَّاس كُلُّهم على أن يُخْرِجوا رطبَةً واحدةً أو حَبَّةَ عِنَب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ومع هـذا يَخْلُق الله عَزَّوَجَلَّ هـذه العناقِيـدَ التي لا تُحْصَى كثرةً، وهـذه الأعْذَاقُ التي لا تُحصَى كثرةً، ونحن لم نعمل ذلك بأيدينا، غايةُ ما هنالِك أنَّنا نُوَجِّه هذا الثَّمـر حَسَـب ما علَّمَنا الله عَزَّوَجَلَّ، فنأْخُذُ من طَلْعِ الفَحْل ما نَجْعَلُه في طَلْع النَّخْلة حتى يطيبَ الثَّمر، أمَّا أنَّنا خَلَقْناه وأوجَدْناه فلا. وهذا على جَعْل (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ نافية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: بيانُ نِعْمَة الله عَزَّوَجَلَّ بما عَلَّمَنا مِمَّا نصنعه من هذه الثِّمار، وعلى وجهٍ يُخالِفُ ما خُلِقَت عليه، حتى يتكوَّنَ من هـذا طَيِّب على طَيِّب؛ لقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ فإنَّ الله تعالى علَّمَنا كيف نصنع هذه الثِّمار على وجه نتلذَّذُ بها، ونَنْتَفِع بها أكثرَ مِمَّا هي عليه في الخِلْقَة، وهذا على جَعْل (ما) موصولةً.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: وُجوبُ شُكْرِ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الله وبَّخ من لا يَشْكُر، والشُّكْر مع كَوْنِه طاعة لله يُثابُ الإنسانُ عليه، ويَعْرِف به قَدْر نِعْمَة الله

عليه، فهو سببٌ للمَزِيدِ من هذه النِّعم؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

فإن قالَ قائِلٌ: نَحْنُ نرى كثيرًا من النَّاس قد أَغْدَق الله عليهم النِّعَم مع كُفْرِهم بها؟ فبماذا نُجِيب عن هذه الآية؟

الجواب: على هذا أن نقولَ:

أوَّلًا: إنَّ الله تعالى قد عاقَبَهُم عُقُوبةً عظيمةً؛ لأنَّ العُقُوبة لا تنحَصِر في فُقْدَان النِّعْمَة، بل العُقُوبةُ تكون بفُقْدَان النِّعمة، وتكون بقَسْوَة القلب ومَرَضِ القلب، وإن كان أكثرُ النَّاس يظنُّون أنَّ العُقُوباتِ إنَّما هي بزوالِ النِّعم، والواقع أنَّ عُقُوباتِ القلوب بالمرضِ والقَسْوَة والإعْرَاض عن الله وعن ذِكْرِه؛ هذه أكبرُ عُقُوبة، ثمَّ هؤلاء المُنَعَّمُون في أبدانِهم لا تَظُنُّون أنَّهُم مُنَعَّمُون في قلوبِهم أبدًا، ففي قُلُوبِهم من الضِّيقِ والحَرَج، وعَدَم الصَّبْر على القضاء والقَدَر ما يجعلُهُم دائمًا في نارٍ، ولا تجد أطْيَبَ حياةً من حياةِ المؤْمِن وإن كان أفْقَرَ النَّاسِ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، فهؤلاء قد عُوقِبُوا عُقُوبةً أعْظَمَ من إتلافِ الأمْوَالِ والثِّمَار وغيرِها، وهي قَسْوَة القَلْب ومَرَضه وإعراضه، فإنَّ هذا يُوجِب للإنسانِ ضِيقَ الصَّدْر، والتَّعَب من الحياة؛ لأنَّه لا يرضى بالله ربًّا، ولا بِشَرْعِه دينًا.

ثانيًا: أن نقولَ: هذه النِّعَمُ عُجِّلَتْ لَهُم عُقُوبةً لهم واستدراجًا، ولِهَذا لما جاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النَّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو على سرير مَخِيطٍ من اللِّيفِ فإذا هو قد أثَّر في جَنْبِه، فبكى، فقال له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**» قال: يا رسولَ الله، فارس والرُّوم يُنَعَّمُونَ بما نُعِّمُوا من الدُّنْيا وأنتَ على هذه الحال؟ فقال: «**يَا عُمَرُ، إِنَّ هَؤُلَاءِ**

قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا»[١] فهؤلاء يعاقَبُون بهذه النِّعْمَة التي تَدِرُّ عليهم؛ لأنَّه استدْرَاجٌ؛ ولأنَّهم إذا ماتوا وصاروا في العذاب صار هذا أشَدَّ عليهم؛ لأنَّهُم فارقوا دُنْيا تعلَّقَت بها قلوبُهُم، ونُعِّمُوا به ثم أعْقَبَها هذا العذابُ -والعياذ بالله- فصار أشَدَّ حسرةً.

ويُذْكَر عن ابْنِ حجرِ العسقلانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو قاضي القضاة في مِصْـر أنَّه مرَّ ذات يومٍ بيهودِيٍّ زَيَّاتٍ يبيع الزَّيْتَ، قد تَعِبَ من الزَّيْتِ، وثيابه وَسِخَة، وقاضي القضاة بمصْرَ يَمْشِي على عَرَبَة تَجُرُّها الخُيُول، والنَّاس حوله يمينًا وشِمالًا، فأَوْقَفَ اليَهودِيُّ الموكِبَ، وقال: يا قاضِيَ القُضاةِ كيفَ تكونُ أنتَ في هذا الحال وأنا في هذا الحال، ورسولُكُم يقول: «**الدُّنْيا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**»[٢] فقال له ابنُ حجـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أنا فيه من النَّعِيم في الدُّنْيا هو سِجْنٌ بالنِّسْبَة لِنَعِيم المؤْمِن في الآخِرَة، وما أنت فيه من التَّعَبِ والبَلَاء هو بالنِّسْبَة لِعَذَاب الآخِرَة جَنَّةٌ، فأنـت الآن في جَنَّةٍ؛ لأنَّكَ سوف تَنْتَقِلُ إلى عذابٍ لا تتصوَّرُه. فلما قال ذلك، قال اليهوديُّ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ»[٣] فأسلَمَ.

فهؤلاء المنَعَّمُون نعيمُهُم في الحقيقة شقاءٌ وعذابٌ، وإنْ نُعِّمَتْ أجسادُهُم، لكنَّ أكثَرَ النَّاس في غفلةٍ عن هذا، ومع الأسَفِ أنَّ هذا الدَّاءَ دَبَّ إلى المسلمِيـنَ، فصار أكثرُ المسلمينَ اليوم لا يَنْشُدُون إلا هذا النَّعيمَ؛ أعني: نعيمَ الدُّنْيا، وفي غفلةٍ عن نعيم الآخرة؛ ولِهَذا تَجِدُهم يتحدَّثون دائمًا عن التَّرَف واللَّهْو وما أشْبَه ذلك،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح، رقم (٢٤٦٨)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، رقم (١٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

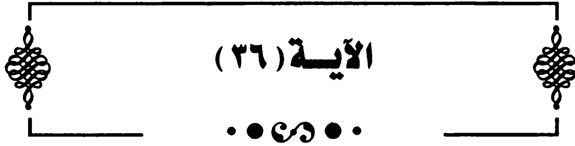
(٣) ذكر هذه القصة المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٥٤٦).

كأنَّهم ما خُلِقُوا إلا لهذا، وهذا من أكبَرِ ما يَصُدُّ الإنسانَ عن دينه؛ أن يكون قلبُهُ معلَّقًا بالدُّنْيا، ولا ينظُرُ إلا إلى التنعُّم بها.

ونحن لا نُنْكِرُ أن ينالَ الإنسانُ من الدُّنْيا ما يستفيد منه في الآخرة، بل إنَّ الدُّنْيا إذا جُعِلَت وسيلةً للآخرَةِ صارت من الآخرة في الحقيقة، لكنْ نُنْكِرُ أن تكون الدُّنْيا أكبَرَ هَمِّ الإنسان، كأنَّما خُلِقَ لها فقط، وهذا من نَقْصِ دِينِهِ، ونقص عقْلِهِ، فكيف تجعلُ نفسَكَ وحياتَك الثَّمِينَة، كيف تجعَلُها مُهِمَّة غايةَ الاهتمامِ بأمرٍ ليس بمضمونٍ، وليس بمخَلَّد؟! قال الله تعالى مُنكِرًا على قومِ هُودٍ على لسانِ هودٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩].

فأنت لَسْتَ بِخَالِدٍ، فكيف تجعَلُ هذا المَمَرَّ الذي أنت تعيش فيه؛ تجعَلُه أكبَرَ هَمِّكَ، مع أنَّكَ لا تدري متى تفارقه؟! كلٌّ مِن هؤلاء المُتْرَفِينَ لا يدري متى يموتُ، لكنَّه يدري أنَّه سوف يبقى في الآخِرَة -إن كان مُؤْمِنًا بها- ومع هذا يعمل للدُّنْيا التي لم يُخلَق لها، ويَدَعُ الآخِرَة التي خُلِقَ لها.





الآية (٣٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

• • • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من الحُبُوب وغَيْرِها ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ من الذُّكُور والإناثِ ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ من المخْلُوقاتِ العَجِيبَة الغَرِيبَة]، ﴿سُبْحَانَ﴾ تأتي دائمًا منصوبةً على أنَّها مفعولٌ مطلَقٌ حُذِفَ منها العامِلُ وُجُوبًا، وأصْلُها تَسبيحًا لله، وتسبيحًا مصدرُ سَبَّحَ، فالعامِلُ محذوفٌ وهو (سَبَّحَ)، والمصدرُ مُحَوَّل إلى اسْمِ مَصْدَرٍ، وهو التَّسْبيحُ، حُوِّلَ إلى سبحانَ وهو مأخوذ من سَبَحَ؛ أي: أبْعَدَ في الماء، فمعنى التَّسبيحِ في سُبحان الله تَنْزيه الله تعالى عمَّا لا يَلِيقُ به، والذي لا يليق بالله عَزَّوَجَلَّ أمران:

أحدُهُما: النَّقْص في صِفَاته.

الثَّانِي: مماثَلَةُ المخْلُوقين فيها، على أنَّه يُمكِن أن نَرُدَّ الثَّانِيَ إلى الأوَّل، ونقول: إنَّ مُماثَلَة المخلوقينَ نَقْص؛ لأنَّ مُماثَلَة الكامِلِ بالنَّاقِصِ يجعله ناقِصًا، قوله: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الآيةُ كقوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

فكلُّ المخلوقاتِ لا تقوم إلا بتركيبِ مادَّتَينِ فأكثر، وليسَ فيها شَيءٌ يقوم من

شيء واحدٍ أبدًا، فكلُّ شيء سواءٌ مِمَّا تُنْبِتُ الأرض، أو من بنِي آدَمَ، أو من البهائِمِ، أو مِمَّا لا نعلَمُ، وهذه عامَّة من أعَمِّ ما يكون فإنَّه مُكوَّنٌ من شيئَينِ ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ تنزيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يليقُ به؛ ولهذا جاءت الآية هنا ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ فالمخلوقُ لا بدَّ فيه من تعدُّدٍ، والخالِق منزَّهٌ عن التَّعدُّد، وهذه هي الحِكْمَـة -والله أعلم- في أنَّه قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ ولم يَقُلْ: (الحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ)، بل قال: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ لأنَّ كَوْنَ كُلِّ شيءٍ يَحتاجُ إلى ازدِوَاجِيَّة يَدُلُّ على كمالِ الواحد المتفرِّد، الذي لا يُماثِلُه شَيْء من مخلوقاته، فبَنُو آدم لا بُدَّ من ازدواجِيَّة ذَكَـر وأنثى، وحتـى المعاني التي فيه والأوصاف فيه تَجِـد أنَّها مُزْدَوِجَة، فيه غَضَـبٌ ورِضًا، وكراهة ومحبَّة، وقوةٌ وضَعْفٌ، إلى غيـر ذلك، لكنَّ الخالِقَ عَزَّوَجَلَّ واحِدٌ مُنْفَرِدٌ، لا يماثِلُه شَيْء من مخلوقاته لا في ذاتِهِ ولا في صِفَاتِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَنْزِيهُ الله تعالى نَفْسَه عن كُلِّ نَقْصٍ وعَيْـبٍ؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّنْبيه على وحـدَانِيَّته عَزَّوَجَلَّ، ومخـالفته للمخلوقـاتِ؛ لقـوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ فلم يَقُـلْ: (سبحانَ الله) بل قـال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ والجَمْع بين ما يَثْبُت للعبادِ وما يُنَزِّه اللهُ عنه قد وَرَدَ في غيرِ مَوْضِع من القُرْآنِ؛ منها قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمَن:٢٦-٢٧] فلما ذَكَـرَ حالَ الخَلائِقِ ذكر حالَ الخالِقِ؛ لأنَّه عَزَّوَجَلَّ يبقى مع فَنَاء غيره، كذلك هنا المخْلُوق كُلُّه مُزْدوج لا بُدَّ فيه من زَوْجَيْن ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ

فإنَّهُ واحِدٌ؛ ولِهَذا قال: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ما من شَيء مَخْلوقٍ إلا وفيه زوجَانِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهذا لَفْظٌ من أَعَمِّ ما يكون من الكَلِمات.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ بَنِي آدمَ على أصْنَاف مُتَنَوِّعَة كما كان ذلك أيضًا فيما تُنْبِتُه الأرض، بل وفي الأرض نفسها، قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ [الرعد:٤] فإثباتُ التَّجَاوُرِ لها يقتَضِي أنَّ كُلَّ واحِدٍ منها يخالِفُ الآخَرَ، لأنَّ الجارَ غَيْرُ جارِه.

وكذلك هنا ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ يَدُلُّ على أنَّ في الأرض أصنافًا مُنَوَّعَة من النَّبَاتات، كذلك ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ فيما خَلَقَ الله عَزَّوَجَلَّ مِن بَنِي آدم أصناف: ذَكَر وأنثى، أَسْوَد وأبيض، طَوِيل وقَصِير، شَقِيٌّ وسعيد، ذَكِيٌّ وبَلِيد، عاقِل وسَفِيه، وهكذا ليَعْتَبِرِ الإنسانُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ على خَلْقِ هذه الأشياء المتَضَادَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الجَهْل للإنسانِ وأنَّه لا يُحيط بكلِّ شيء؛ لقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهذا إذا أَضَفْتَها إلى قوله: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء:٨٥] تبيَّنَ لك مدى جَهْل الإنسانِ في الأُمُور.



الآيــة (٣٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ نقول: في إعرابِها ما قُلْنَا في آيةِ ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ فيكونُ اللَّيْلُ مبتدأً، وآيةٌ خَبَرٌ مقدَّم، ونقول في ﴿نَسْلَخُ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ أي: إنَّه يَجُوز أن تكون صفةُ اللَّيلِ على حدِّ قول الشاعر[1]:

وَلَقَـدْ أَمُـرُّ عَـلَى اللَّئِـيمِ يَسُـبُّنِي

ويجوز أن تكون الجُمْلَةُ اسْتِئْنافِيَّةً لبيانِ هذه الآيةِ، كيف كان اللَّيْلُ آيَةً؟ قال: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾: ﴿نَسْلَخُ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَفْصِلُ]، وسَمَّى الله هذا الفَصْل سَلْخًا؛ لأنَّه يُشْبِه سَلْخَ الجِلْد من البَهِيمَة ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾، لأنَّ النَّهارَ أَمْرٌ وُجُوديٌّ يُوجَد بوُجُود الشَّمْس، فهو وارِدٌ على اللَّيلِ، فإذا غابَتِ الشَّمْس تَبِعَها هذا الضَّوْء كالجِلْدِ يُسْلَخُ منَ البَهِيمَة، وأنت عندما تَسْلَخ الجِلْد من البَهِيمة تَجِدُه يتراجَعُ شيئًا فشيئًا، هكذا ضَوْءُ النَّهارِ بالنِّسْبَة للَّيلِ يَسْلَخُ الله عَزَّوَجَلَّ النَّهار من اللَّيلِ، كما يُسْلَخُ الجِلْدُ من البَهِيمة.

قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخِلُون في الظَّلام ﴿فَإِذَا﴾ فُجَائِيَّة تدُلُّ على أنَّه

---

(١) نسبه الأصمعي في الأصمعيات (ص١٢٦) لشمر بن عمر الحنفي.

بمُجَرَّد هذا الانسلاخِ يُظْلِمُ الجَوُّ، وكما نُشَاهِدُ أنَّ الانْسِلاخَ يأتي شيئًا فَشَيئًا، لكنْ إذا تكامَلَ الانْسِلاخُ وُجِدَت الظُّلْمَة كاملةً، وهذه من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه لو وَرَدَ الظَّلام الدَّامِس على الضَّوْء السَّاطِع لأَخَذ هذا بالأَبْصَار، وبالأشْجَار، وبكثيرٍ من الأشياء، لكنْ كَوْنه يأتي شَيئًا فَشَيئًا، يَتَنَزَّل الأَمْرُ من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظُّلْمَة شيئًا فشيئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: هذه الآيَةُ العظيمةُ في اللَّيْل؛ حيثُ يَسْلَخُ الله تعالى منه النَّهَار سَلْخًا، كما يُسلَخُ الجِلْد من الشَّاة، وهذا يَدُلُّ على أَنَّه يأتِي شيئًا فشيئًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأَصْلَ هو الظَّلام؛ لقوله: ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، فهذا يَدُلُّ على أنَّ الأصْلَ هو الظَّلام، وأنَّ النَّهَار طارِئٌ عليه؛ ولهذا يُسْلَخُ منه وهو كذلك، فإن أَصْلَ الضَّوْء من الشَّمْس، والشَّمْس حادِثَة ووارِدَة على اللَّيْل، فيكون الأَصْلُ الظَّلامَ ويأتي النُّور بعده.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تذكِيرُ الخَلْق بهذه النِّعْمَة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ وأنَّه لولا نِعْمَةُ الله علينا بهذا النَّهَار الذي يُسلَخُ من اللَّيْل لكُنَّا دائمًا في ظُلْمَة، وهذا بلا شَكٍّ مُتْعِبٌ للنَّاسِ وضَارٌّ بِهِم، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص:٧١].



الآيـة (٣٨)

• • ••• • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [يس:٣٨].

• • ••• • •

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾: الواو حرفُ عَطْفٍ و(الشَّمْس) أيضًا معطوفة على اللَّيْل؛ يعني: وآيةٌ لهم الشَّمْسُ أيضًا ﴿تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾ ويجوز أن تكونَ الواوُ استِئْنَافِيَّة، الشَّمْسُ مبتدأٌ، لكن المعنَى الأوَّل أقوى؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والشَّمْسُ تَجْرِي إلى آخِره من جُمْلَة الآيةِ لهم، أو آية أخرى، والقَمَر كذلك] أي سَوَاء قلنا الجُمْلَة اسْتِئْنافيَّة وأنَّ هذه الآيَةَ الأخرى جديدةٌ، أو قُلْنا: إنَّ الواوَ حَرْفُ عَطْف؛ فإنَّه لا شَكَّ أنَّ الشَّمْس على الوَصْف الذي ذَكَرَ الله تعالى آيةٌ من آيات الله.

فالشَّمْس آيةٌ مِنْ آيات الله في ذاتِها، فهـذا الجِرْم الكَبيـرُ العَظِيمُ الذي تَصِلُ حرارَتُه إلى الأرض مع بُعْدِ المَسَافَة بينها وبين الأَرْض، لا شَكَّ أنَّ هذه من آياتِ الله، من يستطيعُ أن يُوجِدَ مِثْلَ هـذه الكُتْلَة النَّاريَّة الملتَهِبَة المضيئَة التي يَصِلُ ضَـوْؤُها وشُعاعُها وحرارَتُها إلى الأرض مع هذه المسافَةِ العَظِيمَة؟!

الجَوَاب: لا أَحَدَ يَسْتَطيعُ، إِذَن فهي آيةٌ مـن آياتِ الله، ثم ما يَحْصُل فيها مـن المَنَافِع من إِنْضَاجِ الثَّمَر، وتَدْفِئَة الأرض، والنُّور العَظِيم، كَمْ طَاقَةً يستَفِيدُها الإِنْسَانُ

بنورِ هذه الشَّمْس من الكَهْرُباء؟ طاقَة عَظِيمَة سَوَاء كان هذا فيما يَحْصُل من الحَرَارَة في أيامِ الشِّتَاء التي يُستَغْنَى بالشَّمْس عند تدفئة المنازل، أو فيما يَحْصُل بالإضاءة، فإذا هذا أمْرٌ لا يُقَدَّر له ثَمَنٌ، أما إنضاجُ الثَّمَر، وإيباسُ الرطَب وما أشبه ذلك مِمَّا فيه مصلحة الخَلْق فحَدِّثْ ولا حَرَجَ، فهي آية عظيمة من آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ.

وهي آيَةٌ في مَسِيرِهَا، قال: ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ يعني تَسِيرُ جَرْيًا، والجَرْيُ هو المشْيُ بِشِدَّة، وهكذا الشَّمْسُ تسير بسُرْعَة عظيمة جدًّا لا يعلم قَدْرَها إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أو قد يُعْلَمُ بالوسائِلِ الحديثةِ مَدَى سُرْعَتِها، لكن تأمَّلِ الطائِرَةَ تسير في سرعة عظيمةٍ وهي قريبة منَّا، ومع ذلك نراها تَمْشِي ببطء؛ لبُعْدِها عنَّا، فما بالُكَ بالشَّمْسِ؟! نحن نراها تَسِير لا شكَّ في هذا، حتى إنَّكَ إذا نَظَرْتَ إلى الظِّلِّ عند انْفِصَالـه من الشُّعَاعِ تَجِدُه يتحرَّكُ كأنَّه يرتَعِدُ، وهذا يَدُلُّ على أنَّها تمشِي مشيًا عظيمًا، ومع هذا وهي بعيدة جدًّا ونشاهِدُها تَسِير هذا السَّيْرَ إذن فسَرَيانُها سريعٌ جدًّا، وقد عُلِمَ تَقْدِيرُهُ عند الفَلَكِيِّينَ الآنَ.

وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلَيْهِ لا تتجاوَزُهُ]، والمستَقَرُّ موضِعُ القَـرار، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، وقال: ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١]. فالمسْتَقَرُّ موضِعُ القَرَار، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦] فما هذا القرارُ الذي تجري الشَّمْسُ إليه؟ هل هو قرارٌ زَمَنِيٌّ؟ أو قرارٌ مكانِيٌّ؟ أو هما جميعًا؟

ثبت في الحديثِ الصَّحيح عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان مع النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسْجِد حين غَرَبَت الشَّمْسُ فقال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟» فقال أبو ذَرٍّ: الله ورسوله أعْلَمُ، قال: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ وَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَتَسْتَأْذِنُ، فَذَلِكَ

مُسْتَقَرُّهَا»[١]، ثم قرأ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وهذا الحديث يَدُلُّ على أن مُستَقَرَّها مكانِيٌّ؛ لأنَّها تسجُدُ تَحْتَ العرش، وهذا السُّجُود لا نعلَمُ كَيْفِيَّتِه؛ لأنَّ الشَّمْسَ لَيْسَت كالبَشَرِ حتَّى يقاس سُجُودها بسُجُودِ البَشَر، بل هي مَخْلُوق أعظَمُ، ولا ندري كيف تَسْجُد؟ فإِذَن لا يَرِدُ علينا السؤال: هل هي تَسْجُد وهي سائِرَة أو تَقِفُ؟ وكيف يَصِحُّ أن نقول: إنَّهَا تسْجُدُ وتستأْذِنُ، وهي لا تزال مستمِرَّةً في الأُفُق؟ كُلُّ هذه الأسئِلَة إيراداتٌ نُجيبُ عليها عند ذِكْرِ الفَوائِد.

وقيل: إنَّ المُسْتَقَرَّ مستقَرٌّ زَمَنِيٌّ، وذلك عند تكويرِهَا يومَ القِيَامَةِ؛ أي: عند مُنْتَهَى سيرِهَا في يومِ القِيامَة؛ أي: تجري إلى يوم القيامة الذي هو مَوْضِع قَرَارِها الزَّمَنِيِّ.

وقيل: إنَّ المرادَ بالمستقَرِّ مُنتهَى تنقُّلِها في البُرُوج الشَّمَاليَّة واليَمَانِيةِ، فلها حَدٌّ تَنْتَهِي إليه من الشَّمَال لا تتجاوَزُه، ولها حدٌّ تنتَهِي إليه من الجَنُوب لا تتجاوَزُه، وبناءً على هذا يكونُ المستَقَرُّ زمانيًّا ومكانيًّا؛ لأن غاية سَيْرِها في الشَّمَال يكون به ابتداءُ فَصْلِ الصَّيْف، وغايةُ سَيْرها في الجَنُوب ابتداءُ فَصْل الشِّتاء، فهذا مستقَرٌّ زمنِيٌّ مكانِيٌّ، فهذه الشَّمْسُ العَظِيمة التي لا يَعْلَم قَدْرَها إلا الذي خَلَقَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لِمَا فيها مِنَ المَصَالِحِ العظِيمَة ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ كلُّ شيء له غايةٌ، وكلُّ شَيْءٍ له منتهًى إلى الله عَزَّوَجَلَّ. قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جَرْيُها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ في مُلْكِه ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بِخَلْقِه] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جَرَيانُها لمُسْتَقَرِّها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وأضافَ التَّقْدِيرَ هنا إلى هذا الاسْمِ الكريمِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ لأنَّ هذه الشَّمْسَ العَظِيمةَ تَحتَاجُ إلى قُوَّة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠).

وسُلْطَان قاهر؛ فلِهَذا أتى باسْمِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾؛ لأنَّ العزيز يَشْمَل ثلاثةَ معانٍ:

أوَّلًا: العزيزُ في قَدْرِه.

ثانيًا: العزيزُ في قَهْرِهِ.

ثالثًا: العزيزُ في امْتِناعِهِ.

أمَّا في قَدْرِه فمعناها: أنَّ الله ذو شأنٍ عظيمٍ لا يُماثِلُه أحدٌ، وأمَّا في قَهْرِه فمعناه أنَّ الله له الغَلَبَة والسُّلْطَان المطْلَق، يقول الشاعر الجاهلي(١):

أَيْـــنَ المَفَـــرُّ وَالْإِلَـــهُ الطَّالِـــبُ وَالْأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِـبُ

وأمَّا في امتناعه فالمعنى: أنَّه مُمتَنِعٌ عن كُلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ.

أمَّا ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ فمعناه ذو العِلْم الكامل الشَّامِل، فإنَّ عِلْمَ الله تعالى عِلْمٌ كامِلٌ لم يُسبَقْ بِجَهْلٍ ولا يَلْحَقُه نِسْيانٌ، وشامل لكلِّ صغيرٍ وكبيرٍ، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩] وما كُتِبَ في كتاب مُبِينٍ إلا بَعْدَ أن كانَ معلومًا عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ المجْهُولُ لا يُكْتَب، فهذا يَدُلُّ على سَعَةِ عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه مُحيطٌ بكُلِّ شيء جُملَةً وتفصيلًا.

فذَكَرَ الله هذين الاسْمَينِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ لمناسبة المقام؛ لأنَّ الشَّمْس ليست بالشَّيْء الهَيِّن الذي يَسْهُل قِيادُهُ، بل هي شيءٌ عظيم يحتاج إلى عِزَّة وعِلْم.

---

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الشَّمْس تجري؛ أي: تسير، وهذا هو الواقع، وظاهِرُ القُرْآن الكريم أنَّ سَيْـرَها ذاتِيٌّ، وليس المراد أنَّها تجـري برأْيِ العَيْـنِ، وأنَّ الذي يَدُور هو الأرض، والواجب إجراء القُرْآن الكريم على ظاهِرِه حتى يقومَ دليلٌ صريحٌ يكون لنا حُجَّةً أمام الله عَزَّوَجَلَّ إذا خَرَجْنا عن ظاهر القُرْآن؛ لأنَّ الذي تكلَّمَ بالقُرْآن هو الله الخَالِقُ عَزَّوَجَلَّ وهو العليم بِخَلْقِه، فإذا قال: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي﴾ وجب أن نقول: إنَّ الشَّمْس تَجْري، ولا يجـوز أن نقول: إنَّنا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقديرِ العَزيزِ العَلِيمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه الشَّمْسَ التي هي دائمًا ودَائِبَة لا بدَّ لها من مُنْتَهَى؛ لقوله: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾، ويتفرَّعُ على هذا:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ جَميعَ الخَلائِـقِ لها مُنْتَهَى، فكلُّ ما في الدُّنْيا من الخلائِـقِ له مُنْتَهَى، وسـوف يزولُ ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هـذه الشَّمْس مُقَدَّرَة تقديرًا بالغًا مُنَظَّمًـا؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ ويشهَدُ لِهَذا الواقِعُ، فإنَّ هذه الشَّمْسَ منذ خَلَقَها الله إلى أن تزولَ وهي في فَلَكِها لا تتقدَّم ولا تتأخَّر عن السُّنَّة التي أمرها سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن تكون عليها، ولا ترتَفِعُ ولا تَنْخَفِضُ، حتى قيل: إنَّهَا لو تَنْخَفِض مِقْدَارَ شَعْرَةٍ لأَحْرَقَت الأرض، ولو ارتفعَتْ مِقْدار شَعْرَة لَجَمُدَت الأرضُ، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَها على هذا التَّقْدِير البَدِيعِ المحْكَم الذي لا يتغَيَّر ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ اسْمَينِ من أَسْمَاء الله وهما العزيزُ العليمُ، ويؤخَذُ منهما: إثباتُ صِفتَيـنِ تَتضمَنُّهُما وهما العِـزَّة والعِلْم، ويؤخَذُ منهما أيضًا: إثباتُ الأَثَـر، أو الحُكْم وهو أَنَّه غالِبٌ لكلِّ أحَدٍ، وعليمٌ بكلِّ شيءٍ.



الآيــة (٣٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يس:٣٩].

يقول المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [(القمر) بالرَّفْع، والنَّصْب]، ففيه وجهان في الإعراب: القمرُ بالرَّفْع على أنَّه مبتدأٌ، وخَبَرُه ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾. والقَمَرَ بالنَّصْبِ على أنَّه مفعولٌ به لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ يُفَسِّرُه المذْكُور، فيكون من بابِ الاشتغالِ، وهنا يتساوى الرَّفْع والنَّصْب في الرُّجْحَان؛ لأنَّ الجُمْلَة التي قبله ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي ﴾ جُمْلَة اسْمِيَّة، خبرُها فعل.

فلِهَذا جاز في القَمَرِ الوَجْهان، والمعروف أنَّه يترجَّح الرَّفْع إذا عُطِفَ المشْغُول عنه على جُمْلَة اسْمِيَّة، ويترجَّح النَّصْب إذا عُطِفَ على جُمْلَة فعليَّة. قال المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [وهو منصوب بفِعْلٍ يُفَسِّره ما بعده] يعني يفسِّرُه المذكُورُ، والتَّقْدِير على هذا: (وقَدَّرْنَا القَمَرَ منازِلَ) ولا حاجةَ أن نقولَ كما يقول بعض النَّاس: التَّقْدِير: وقَدَّرْنا القَمَرَ قَدَّرْنَاه؛ لأنَّه لا يُجمَع بين المفسِّر والمفسَّر، فإذا أَرَدْتَ أن تقدِّرَ فَقُل: التَّقْدِير (وقَدَّرْنا القَمَرَ مَنازِلَ).

فإذا قلْتَ: لماذا لم يَقُلْ عَزَّوَجَلَّ: (وقدَّرْنا القَمَرَ منازِلَ).

قلنا: لأنَّه إذا أتى بالجُمْلَة الاسْمِيَّة التي خبرها فِعْلٌ صار كأنَّه أُسْنِدَ هذا إليه مرَّتينِ؛ أي: أُسْنِدَ الفِعْلُ الذي هو التَّقْدِير إلى القَمَر مرَّتينِ؛ مرَّةً بذِكْرِه اسمًا ظاهِرًا،

ومرَّةً بذكْرِه اسمًا مُضْمَرًا ﴿قَدَّرْنَهُ﴾.

قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ﴾ وتقدير الله عَزَّوَجَلَّ للقَمَر منازِلَ؛ لأنَّه بهذا التَّقْدِير يُمكِنُ أن يأتِيَ على هذا الوَجْه الذي نشاهده، يتغيَّر كلَّ ليلة عن الأخرى، ولولا هذا التَّقْدِيرُ ما تغيَّر، لكنَّه مُقدَّر منازِلَ؛ ثمانيةً وعِشْرينَ مَنْزِلًا، على حَسَبِ النُّجُوم المعروفَةِ عند العَرَب، فكُلَّ ليلَةٍ يَنْزِل منزلةً، ويبقى ليلةً واحدةً إن كان تسعًا وعشرينَ ليلةً، أو لَيْلَتَيْنِ إن كان ثلاثين، وتُسمَّى هاتان اللَّيْلتانِ ليالِيَ الاستِسْرَار -يعني الاختفاء- يختَفِي فيها القَمَر، إمَّا في أوَّلِ الشَّهْر التالي أو في آخِرِ الشَّهْر السَّابِق.

ومن أراد التَّفْصيلَ العِلْمِيَّ فلْيَقْـرَأْ ما كتبه أهلُ العِلْم في ذلك، ولا سيمـا في عصرنا هذا، فإنَّهم اطَّلَعُوا على أشياءَ عَجِيبةٍ في هذا التَّقْدِير، والقَمَرُ قدَّرَه الله منازلَ كُلَّ يومٍ منزلةً فهو يختَلِفُ كلَّ ليلةٍ عن الأخرى؛ ولِهَذا يبدو صغيرًا، ثم يَكْبَر، ثم يعود ويَصْغُر، بحَسَبِ قُرْبِه من الشَّمْس، كلَّما قَرُب من الشَّمْس ضَعُفَ نُورُه؛ لأن نور القمر مستَمَدٌّ من نُور الشَّمْس، هو نَفْسُه ليس به إضاءة، جِرْمٌ مُظْلِمٌ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

فهو جِرْم مظلم لا يَستَفِيدُ نورًا إلا بِغَيْره، فإذا قابَلَ الشَّمْس حَصَلَ فيه النُّورُ، وكلَّما أَبْعَدَ عنها كَثُرَت المقابَلةُ؛ لأنَّ السَّيْر كُرَوِيٌّ، فكلَّما قَرُب ضَعُفَت المقابَلَة، فإذا ارتفع زادت المقَابَلَةُ؛ ولِهَذا يمتَلِئُ نُورًا فيما إذا كان في المَشْرِق، والشَّمْسُ في المغرِب لتَمامِ المقابَلَةِ حينئذ؛ فيَمْتَلِئُ نورًا، والجُزْءُ المنِيرُ من القَمَر هو الذي يلي الشَّمْس.

ولِهَـذا تَجِدُه في أيام الشِّتَاء إذا كانت الشَّمْسُ خَلْفَه تكون فتحَةُ قَوْسِه نحـوَ المشْرِقِ، وفي أيامِ الصَّيْف تكون فتحةُ قوسِهِ نحو الجَنُوب؛ لأنَّ الشَّمْس تكون عنه شَمالًا، ويكون عنها جنوبًا فنجِدُ فَتْحَتَه نحو الجَنُوب؛ ولِهَذا يَغْلَط بعضُ النَّاس الذي

يظُنُّ أنَّ اتِّجاه فتحة القَمَر -أي فتحة قَوْسِه- دائمًا إلى المشْرِق أو الجَنُوب، هذا ليس بصوابٍ، وإذا أردْتَ أن تَعْرِف هذا فتَدَبَّرْهُ.

﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: عاد القَمَرُ بعد تقديرِ هذه المنازِلِ كالعُرْجُون القديم، والعُرْجُون هو: أصْلُ الشَّمارِيخِ الذي في طَلْعِ النَّخْل، وهو إذا يَبِسَ يتقوَّس ويصْفَرُّ، فشَبَّه الله عَزَّوَجَلَّ القَمَر في رؤيةِ العَيْنِ بهذا العرجون القديم؛ أي: إنَّه يبدو دقيقًا أصفرَ متقوِّسًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذا القمـر آيةٌ من آيات الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيـث هو موضوعٌ في فَلَكِه، ومع ذلك له منازلُ ينزِلُها كلَّ ليلة، فليس مطلقًا ولكنَّه مُقَدَّر بمنازِلَ ينْزِلها كلَّ ليلة، والحِكْمة من هذه المَنَازِلِ هي أن يَعْرِفَ النَّاس عَدَدَ السِّنينَ والحِسَابَ؛ كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥]، حتـى إنَّ العالِمينَ بمنازِلِ القَمَرِ يعرفـون اللَّيْلةَ من الشَّهْر وإن كانوا لم يَحْسِبـوا من أوَّلِ الأمر، بناء على معرفة المنازِلِ؛ لأنَّ هذه المنازل لا تتغيَّر، وحلولُ القمر فيها أيضًا لا يتغيَّر، فهي منظَّمَة من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ القِياسِ؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وكلُّ تَشْبِيه أو مَثَلٍ في القُرْآن الكريم فإنَّه يَدُلُّ على القِيَاس؛ لأنَّ التَّشْبيهَ أو المَثَلَ إلحاقُ شَيْء بِشَيْء لعِلَّةٍ، وهي التي تُسمَّى في البلاغَةِ وَجْهَ الشَّبَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إطلاقُ القَدِيم على غَيْـرِ الله خلافًا للمُتَفَلْسِفَة، أو الفلاسِفَـة الذين يقولون: إنَّ أَخَصَّ وَصْـف الله هو القِـدَم. وهذا خطأ، فلو كان هذا أخَصَّ وَصْف الله لـم يُوصَفْ به سـوى اللهِ، والقِدَم لا يَدُلُّ على الأزلِيَّة، فهذا العُرْجُـون

وَصَفَه الله بأَنَّه قديمٌ، ومع ذلك فإنَّه ليس أزليًّا؛ إذ إنَّه حادِثٌ بعد أن لم يَكُنْ، وبه يتبيَّنُ بُطلان قولِ هؤلاء الذين يقولون: إن أَخَصَّ وَصْف الله عَزَّوَجَلَّ هو القِدَم. ولو قالوا: أخصُّ وَصْف هو الأوَّلِيَّة، لكُنَّا نُوافِقُهم على ما قالوا؛ لأنَّ الله هو الأوَّلُ الذي ليس قبله شَيْءٌ، أمَّا أن نقولَ: إنَّ القِدَم أخَصُّ وصْف الله مع أنَّه يُوصَف به الحادِثُ، فهذا لا يكونُ ولا يصِحُّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فيها دليلٌ على قُدْرَة الله من حيث نورُ القَمَر، حيث يبتدِئُ ضَعيفًا، ثم يزدَادُ في القُوَّة، ثم يرْجِعُ إلى الضَّعْف، فإنَّ هذا من قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ لو شاء لجَعَلَه ممتلئًا دائمًا، أو ناقصًا دائمًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإشارةُ إلى حالِ الإنسانِ، فإنَّ الإنسانَ إذا تدَبَّر القَمَرَ وجد أنَّه مطابِقٌ لحالِ الإنسانِ، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤] فحالُ الإنسانِ مساوِيَةٌ تمامًا لحالِ القَمَر، فالقمر يبدو ضعيفًا، ثم يزدادُ في القوَّة حتى إذا تكامَلَ في القوَّة أَخَذَ في النَّقْص، وهكذا الإنسانُ بالنِّسْبَة لحَيَاتِه.



الآيــة (٤٠)

• ● ♦ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٤٠].

• ● ♦ ● •

لَمَّا ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الشَّمْس تجري لِمُستَقَـرٍّ لها، وأنَّ هذا أمْـرٌ مُقدَّر من قِبَل العزيز العليم، وأنَّ الله تعالى قَـدَّر القَمَرَ منازِلَ يَنْزِلُها منْزِلةً منْزِلةً حتى يعود بعـد امتلائِهِ نورًا فيصيرُ كالعُرْجُون القديم، بَيَّنَ أنَّ هذا النظام لا يُمكِنُ أن يتصادم أبدًا؛ لأنَّه مُقدَّر من عنـد الله عَزَّوَجَلَّ العزيز العليم منازِلَ لا يتجاوَزُها ولا يتعدَّاها، قال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَسْهُل ويَصِحُّ]، لكنَّ الأَوْلَى أن نقول: بمعنى يُمكِنُ؛ أي: لا يُمْكِنُ للشَّمْس أن تُدْرِك القَمَر. وقد تقدم أنَّه إذا جاءت كَلِمَة (لا ينبغي) في القُرْآن فالمعنى المُمْتَنِع غايَةَ الامْتِناعِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] يعني أن ذلك مستحيلٌ، وقال النَّبِيُّ عليه أفْضَلُ الصَّلاة والسَّلام: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»[1]، أي إن ذلك مُستحيلٌ.

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى﴾ أصلها: (الشَّمْسُ لَا يَنْبَغِي لَهَا)، ولكِنْ قَدَّمَ النَّفْي ليكونَ المَنْفِيُّ الجُمْلَةَ الاسْمِيَّـة كلَّها، فقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ يعنـي:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**إن الله لا ينام**»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لا يُمكِنُ أن تُدْرِكَ القَمَرَ فتجتمع معه في اللَّيْل، فإذا غابَتْ لا يُمكِنُ أن تَخْرُج في زَمَنِ اللَّيْل.

فإذا قَدَّرْنا أنَّها تَغِيب في السَّاعة الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ، وتخرج الساعةَ الثَّانِيَة عشرةَ، فَبَيْنَ غُرُوبِها وطُلُوعها اثْنَتَا عَشْرة ساعةً، لا يُمكِن أن تَطْلُع في السَّاعَة الثَّامِنَة، فيكون بينَ غُرُوبِها وطُلُوعها ثَمانِي ساعاتٍ؛ لأنَّ هذا خلافُ التَّقْدِير الذي قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ لَهَا، والذي جَعَلَها تسيرُ عليه لتمامِ قُدْرَة الله تعالى، ونِظَام هذا الكون، وأنَّه لا يُمكِنُ أن يَخْتَلِف أو يَضْطَرِب، لكن إذا جاء يومُ القيامَةِ فإنَّه يُجْمَع الشَّمْسُ والقَمَر ويَخْتَلُّ نظامُ الفَلَك، بل كلُّ النِّظَامِ يَخْتَلِف ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم:٤٨].

﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: اللَّيْلُ لا يَسْبِق النَّهار، بل لا يأتي إلا بعدَهُ، وهنا قال: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ كان اللَّيْلُ هو الذي يُمكِن أن يَسبِقَ النَّهار، فنفى الله عَزَّوَجَلَّ أن يَسْبِق اللَّيْلُ النَّهارَ، قيل: المرادُ أنَّ اللَّيْل لا يأتِي قبلَ انتهاءِ النَّهار، فيكون الله عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ الشُّرُوق في قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ يعني لا يُمكِن للشَّمْس أن تَطْلُع في اللَّيْل ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي لا يُمكِنُ لِلَّيْل أن يأتِيَ في زمن النَّهار، فإذا قَدَّرْنا أنَّ الشَّمْسَ تَغْرُب السَّاعةَ الثَّانِيَة عَشْرَة، فلا يُمكِن أن تَغْرُب السَّاعةَ التاسعةَ مثلًا؛ لأنَّها لو غَرَبَت السَّاعة التَّاسِعَة لسَبَقَ اللَّيْلُ النَّهار ولو في بَعْضِ أجزائه.

وقيل: المعنى ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: لا اللَّيْلُ يَحُلُّ مَحَلَّ النَّهارِ فيَتَوالى ليلتان سواءً.

والمعنى صحيحٌ على كلا القَوْلَيْن، فلا يُمكِنُ لِلَّيْل أن يأتِيَ وقد بَقِيَ شيءٌ من

النَّهار، ولا يُمكِن أن يأتِيَ اللَّيْلُ كُلُّه في مكان النَّهار؛ لأنَّ هذا ينافِي تقديرَ الله عَزَّوَجَلَّ الذي سَمَّى نفسَه بأنَّه العزيزُ العليمُ. قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: (كلٌّ) قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [تنوينُ عِوَض عن المُضَافِ إليه من الشَّمْس والقَمَر والنُّجُوم، ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مستديرٍ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يَسِيرون، نُزِّلُوا منزِلَةَ العُقَلاء]، ذكر المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ النُّجُوم، والنُّجُومُ في الآية غيرُ مَذْكُورة، فالصَّوَاب من الشَّمْس والقَمَر، والمعنى: كلٌّ من الشَّمْس والقمر واللَّيْلُ والنَّهار يَسْبَح في فَلَكِه، والفَلَك هو الشَّيْء المستدِيرُ، ومنه (فَلَكَة المِغْزَل) للشيء المستدِيرِ في أعلاه، والذي تَغْزِلُ به النِّسَاء الصُّوفَ، له شيءٌ شِبْه الطَّار في أعلاه مُسْتَدِير، هذا فَلَكَة المِغْزَل. فالفَلَك المستديرُ تَدُور فيه الشَّمْسُ والقَمَر واللَّيْلُ والنَّهار، وقوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يسيرُون] ولكنَّ المعْنَى أدقُّ مما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لأنَّ السَّبْح هو العَوْم في الماءِ، فكأنَّ هذه عائِمَةٌ في الفَلَك الوَاسِع، تدور ولَيْست تسيرُ على أرضٍ مسطَّحَة، أو على ماءٍ، بل هي تَعُوم في هذا الأُفُق.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يسيرُون، نُزِّلُوا مَنْزِلَة العُقَلاءِ] أي: الشَّمْس والقَمَر واللَّيْلُ والنَّهَارُ نُزِّلُوا (منزِلَة العُقَلاء) وذلك بأنْ أُتِيَ بالوَاوِ التي هي للعُقَلاء، فالواوُ ضميرُ جمْع لا تأتِي إلا للعُقَلاء؛ وغيرُ العُقَلاء إذا أَرَدْنا أن نُضِيفَ إليهم شيئًا على سبيلِ الجَمْع نأتِي بنونِ النِّسْوة، والعُقَلاء نأتِي بالواو، أو الميم، فنقول مثلًا: الإبِلُ رَكِبَهُن أربابُهُنَّ، ولا تقول: الإبِلُ رَكِبَهم أربابُهُم؛ لأنَّ الميمَ للعَاقِل، وتقول: الإبِلُ شَرِبْنَ، ولا تقول: شَرِبوا؛ لأنَّ الواو للعاقِلِ، وهنا ﴿يَسْبَحُونَ﴾ أتى بالواو التي للعاقل، يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إنَّهَا نُزِّلَت مَنْزِلَة العُقَلاء] بإضافة السَّبْح والجَرَيان إليها، والجَرَيان والسَّبْح إنَّما يكون من ذي الإرادة والعَقْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في الآيةِ دليلٌ على أنَّ سُنَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ لا تتغيَّر، هذا هو الأَصْلُ كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣] فسُنَّةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تتغيَّر في الكون، ولكن هل هي سُنَّةٌ لازِمَة بحيث يمتَنِعُ على الله أن يغيِّرَها؟

الجواب: لا، ولكنَّ الله تعالى أخبَرَنا بأنَّ هذه السُّنَّة لا تتغيَّـر، لكنَّها تتغيَّـر بتَغْييرِهِ؛ ولِهَذا حُبِسَت الشَّمْسُ ليُوشَعَ بْنِ نون كما جاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ[1]؛ ولِهَذا أيضًا إذا كان قُرْبُ الساعةِ فإِنَّهَا تَخْرُج من مغربِها، ولِهَذا انشَقَّ القَمَر في عهد النَّبِيِّ ﷺ وصار فِرْقَتَينِ[2]، فهذه السُّنَن الكَوْنِيَّة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، ولكنَّ الله قادِرٌ على أن يبدِّلَها، أو يُغيِّرَها ويكون هذا لسببٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الشَّمْسَ لا يُمكِنُ أن تَخْرُج ليلًا بحَسَبِ السُّنَّةِ الإلَهِيَّة، أمَّا بِحَسَب قُدْرَة الله تعالى فإنَّه يُمكِنُ أن تَخْرُج ليلًا؛ لأنَّ الله يقول: (كن) فيكونُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللَّيْلَ لا يَسْبِق النَّهار فلا يدخُلُ عليه، ولا يتقدَّمُه بحيث تتوالَى ليلَتَانِ جَميعًا ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ هذا ما يَظْهَرُ لنا من الآية الكَريمَة، وقد يكون لها معنًى غيرُ ما نفهَمُه من ظاهرها، ولِهَذا رُبَّما يكون الذين يدْرُسُون في عِلْمِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم»، رقم (٣١٢٤)، ومسلم: كتاب الجهاد، باب تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة، رقم (١٧٤٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية، رقم (٣٦٣٦)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب انشقاق القمر، رقم (٢٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفَلَكِ يتبيَّنُ لَهُم من هذا التَّعْبِير أكثر مِمَّا تبيَّنَ لنا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ واللَّيْلَ والنَّهَارَ في فَلَكٍ؛ يعني في شيءٍ مُسْتَدِيرٍ كفَلْكَةِ المِغْزَل، وأنَّها تدور؛ لقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ضَعْفُ قولِ من يقول: (إنَّ الشَّمْسَ في السَّماء الرابعة، والقَمَرَ في السَّماءِ الدُّنْيا)، فيجعلون الكَوَاكِبَ والشَّمْسَ والقَمَر كواكبَ معيَّنَةً؛ في كلِّ سماءٍ كوكَبٌ على هذا التَّرتِيبِ من الأعلى للأدنى: زُحَل، المشْتَرِي، المرِّيخ، الشَّمْس، الزُّهْرة، عُطَارِد، القَمَر، هذه سبعة؛ يقولون: كُلُّ واحدٍ في سماءٍ: (زُحَلُ) هو أعلاها في السَّمَاء السَّابِعَة -على كلام السابقين من عُلَماء الفلك- (المشْتَرِي) في السَّماء السَّادسَة. (المرِّيخ) في السَّماء الخَامِسَة. (الشَّمْس) في السَّماء الرَّابِعَة. (الزُّهْرة) في السَّماء الثَّالِثَة. (عُطَارِد) في السَّماء الثَّانِيَة. (القَمَر) في السَّماء الدُّنْيا كما قيل[1]:

زُحَلُ شَرَى مَرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ لِعُطَارِدَ الأَقْمَارُ

فهذا البيتُ فيه ترتيبُ هذه الكواكِبِ، وهذا التَّرْتِيبُ لا نعلَمُه من كتابِ الله، ولا من سُنَّةِ رَسُولِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونحنُ نعرف أَنَّ هذه الكواكِبَ بَعْضُها فوقَ بعضٍ بالكُسُوفِ، فإذا كان القمر يكسِفُ الشَّمْسَ عَرَفْنا أنَّه تَحْتَها، كما نعرِفُ أنَّ الغَيْمَ تَحْتَ الشَّمْس؛ لأنَّه يَحْجُبُها، فإذا كَسَفَ القَمَرُ شيئًا مِنَ النُّجُوم عرفنا أنَّ القَمَر تَحتَها؛ ولِهَذا القَمَرُ يكسِفُ كُلَّ النُّجُوم والشَّمْسَ، ولا شَيْءَ يكسِفُه منهما إلا الأَرْض؛ لأنَّ الأَرْض تَحْتَه فتحْجُبُ نورَ الشَّمْسِ عنه، فحينئذ ينكسِفُ القَمَر، وقد شاهَدْتُ أنا وغيري أنَّ القَمَر يكسِفُ بعضَ النُّجُوم؛ تجري يسير حولَهَا ثم يغطِّيهَا، وهذا

---

(١) غير منسوب، وانظره في: الفروق للقرافي (٢/ ١٨٣)، المواعظ والاعتبار للمقريزي (١/ ١٣)، حاشية ابن عابدين (١/ ٢٩).

يَدُلُّ على أنَّ القَمَرَ نازِلٌ عن عُلُوِّ هذه الكواكب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على قولِ من يقول: (إنَّ الشَّمْسَ ثابِتَةٌ وأنَّها لا تَدُور)، والعَجَبُ أنَّهُم يقولون: إنَّهَا ثابِتَةٌ، وأنَّ القَمَرَ يدور على الأَرْض. وهذا غَلَطٌ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل الحُكْمَ واحدًا، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فإذا فسَّرْنَا السَّبْحَ بالدَّوَران، وأثبَتْنَا ذلك للقَمَرِ فَلْنُثْبِتْهُ أيضًا للشَّمسِ.



الآيـة (٤١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١].

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ على قُدْرَتِنا ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وفي قراءةٍ «ذُرِّيَّاتِهِمْ» أي آباءَهُم الأُصُول في ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ أي: سَفِينة نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المَمْلُوء].

قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: للنَّاسِ جميعًا، يقول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آيـةٌ عَلَى قُدْرَتِنا]، ونحن نسلِّم بذلك، لكنْ فيه أيضًا آيةٌ على شيء آخَرَ، وهو رحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ بالخَلْقِ ونِعْمَته علينا، فالآيَةُ لنا دالَّةٌ على قُدْرَة الله ورَحْمَته وفَضْلِه علينا بهذا الفُلْكِ، الذي سَخَّرَه الله عَزَّوَجَلَّ يَجْـري في البَحْر يحمـل الأرزاقَ من جهةٍ إلى جِهَةٍ، ويحمِـلُ النَّاس، ويحمِلُ المواشِيَ، ويحمل كلَّ ما فيه مصلحَتُنا، فهو من الآياتِ الدَّالَّة على قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى رَحْمَته، وقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذه الجُمْلَة في تأويل مصدَرٍ هي المبتدأ؛ يعني (وآيَةٌ لَهُم حَمْلُنا ذُرِّيَّتَهُم).

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: آباءَهُم الأُصُول]، فجعل المرادَ بالذُّرِّيَّة هنا الأُصُولَ؛ يعنِي الآباءَ، مع أنَّ المعروفَ في اللُّغة العربيَّة، أنَّ الذُّرِّيَّة هم الفُـرُوع وليسوا الآباء، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٦]، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن ذهب مذهَبَهُ في تفسير الآية يقول:

إنَّ الذُّرِّيَّة لَفظٌ مشتَرَكٌ بين الأُصول والفُرُوع؛ لأنَّها مأخوذةٌ من ذَرَا، والذَّرُّ كائِنٌ للأُصول والفُرُوع، ثم يقولون أيضًا: إنَّ سياقَ الآية يَدُلُّ على ذلك ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأنَّ ذُرِّيَّتَهم الصِّغَارُ الموجودون معهم، إذا حُمِلوا هم فسيُحْمَلُون معهم في الفُلْك، وإن كان المراد بالذُّرِّيَّة من يأتِي فيما بعد، فكيف يكون ذلك آيةً، وهي غيرُ مَشْهُودة لهم؟

إذن: يتعيَّنُ أن يكون المرادُ بالذُّرِّيَّة الأُصولَ؛ لأنَّ الصِّغار المشْهُودِين حَمْلُهم حَمْلٌ لآبائِهم؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّهُم لا يُحمَلُون إلا مع آبائِهم، والصِّغَارُ غيرُ المشْهُودينَ الذين يأتونَ فيما بعدُ لا يكونون آيةً لِمَنْ لَمْ يُشاهِدْها، فتعيَّنَ أن يكونَ المرادُ بالذُّرِّيَّة الآباءَ.

وهذا الذي ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوافِقُ ظاهِرَ الآيةِ، لكنَّه يخالِفُ ما كان معهودًا في اللُّغَة العَرَبِيَّة من أنَّ الذُّرِّيَّة هم الفُرُوع؛ ولِهَذا ذَهَبَ بعض العُلَماء إلى أنَّ المراد بالضَّمِير هنا الجِنْس لا العَيْن، والمعنَى ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذُرِّيَّة جِنْسِهم، كنوحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، من جِنْسِنا آدمِيٌّ بَشَر، فحَمَلَ الله ذُرِّيَّته في الفلك المشْحُون، قالوا: وهذا لا يَمْتَنِع في اللُّغَة العَرَبِيَّة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢-١٣]، ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ أي: جِنْسَ الإنسانِ وليس عينه؛ لأنَّ الذي جُعِلَ نُطفةً ليس آدم الذي خُلِقَ من سلالةٍ من طينٍ، ولا يُمْكِنُ أن يكون نُطفَةً في قرارٍ مكينٍ، بل غيره بلا شكٍّ، فالضَّميرُ عاد إلى آدمَ باعتبارِ الجِنْس، فَلْيَعُدِ الضَّمِيرُ في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى الموجُودِينَ باعتبَارِ الجِنْس، فمن هو الجِنْسُ؟ قالوا: هو نوحٌ؛ لأنَّه بَشَرٌ وآدمِيٌّ، وذُرِّيَّته هي المحمولَة، فيكون المعنى: أنَّا خلقْنَا ذُرِّيَّتَهُم؛ أي: ذُرِّيَّة جِنْسِهم، وهو نوحٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حلَّتْ ذُرِّيَّته

في الفُلك المشحون، وخَلَقَ لَهُم مِن مِثْلِه ما يركبون، وهذا قريبٌ جدًّا ولا يُخالِف ظاهِرَ الآيةِ، ويشيرُ إلى أنَّ هذه السَّفِينة جُعِلَت آيةً لمن بَعْدَ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْتَبِرون بها ويَصْنَعُون مِثْلَها قولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة القمر: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥]. فالمرادُ بالذُّرِّيَّة هنا ذُرِّيَّة نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأُضِيفَتْ إلى هؤلاء باعتبارِ الجِنْسِ يعني (حَمَلْنا الذُّرِّيَّة من جِنْسهم في الفُلك المشْحُون). وهذا القول هو الذي تطمَئِنُّ إليه النَّفْسُ ولا يأباه السِّيَاقُ.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: سفينة نوحٍ فـ(أل) هنا للعَهْدِ الذِّهْنِي؛ لأنَّه لم يَسْبِقْ لَهَا ذِكْر، وليست للاستغراق؛ لأنَّ المرادَ بها فُلْك واحِدٌ، فتكون (أل) هنا للعهد الذِّهْنِي، يعني: في الفُلْك المعهود في أذهانِكم، وهو الذي قال الله تعالى لنوح: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون:٣٧]، والفُلْك يطلَقُ على الجَمْع، ويطلَق على المفْرَد، فمِن إطلاقه على المفْرَد هذه الآيةُ، وعلى الجَمْع مثلُ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس:٢٢] أي: الفُلْكُ، وهذا الضَّميرُ ضَمِير جَمْع، ولا يعود للمُفْرَد؛ ولِهَذا قال بعض الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: (إنَّ الأَحْدَب الذي حَدبتُهُ كالرُّكُوع ينوي الرُّكُوع، وهذا كَفُلْكٍ في العربيَّة) لا يُدْرَى هل هو جَمْع، أو مفرد إلا بالنِّيَّة، فالأحدَبُ المقَوَّس الظَّهْر يركَعُ بالنِّيَّة ينوي الركوعَ؛ لأنَّه ما زال راكعًا أحْدَبَ، ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: المَمْلُوء بأُناسٍ من البَشَر الذين آمنوا مع نوح، وما آمن معه إلا قليلٌ، مَمْلُوء ببقيَّةِ الحَيَوانات؛ لأنَّ الله قال فيه: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ ما في إنقاذ البَشَرِيَّة من الغَرَق في زمن نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنَّه لو لا أنَّ الله أبقى هؤلاءِ لزالَتِ البَشَرِيَّة من الأَرْض، لكنَّ الله تعالى أبقى نوحًا

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ومن معه، ومع هذا لم يبْقَ من نَسْلِ الذين معه أَحَدٌ، وإنَّما الذين بَقُوا هم نَسْلُ نـوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقط، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧]، أمَّا غيرهم فلم يَبْقَ منهم أحَدٌ؛ ولِهَذا يُسمَّى نوحٌ أبا البَشَرِ الثَّانِيَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ نِعْمَـةِ الله عَزَّوَجَلَّ بما أنعم على هـؤلاء بتعليمِ السُّفُن التي يركبُونَها في البَحْر، لولا هذه السُّفُن ما استطاع أحدٌ أن يعْبُرَ من يابسة إلى أخرى بينهما ماء، ولكنَّ الله تعالى أعْلَمَهُم بصناعةِ هذه حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ السَّفِينة التي كان فيها نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانت مَمْلُوءة من البَشَرِ وغيرِهِم؛ لقوله: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾.



الآيـــة (٤٢)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢].

• ● ● •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: مِثْلِ فُلْكِ نوحٍ، وهو ما عَمِلُوه على شَكْلِه من السُّفُن الصِّغَار والكِبَار بتعليمِ الله تعالى ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ فيه] يذَكِّرُهم الله عَزَّوَجَلَّ:

أوَّلًا: بِحَمْل آبائهم السَّابِقينَ الذين هم ذُرِّيَّة نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وثانيًا: بأنَّ الله تعالى خَلَقَ لهم مِن مِثْل هذه الفُلْك ما يركبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥] فالنَّاسُ تعلَّمُوا كيف يصنعون السُّفُن، وصاروا يَصْنَعُون مثل هذه السُّفُن، ولعلَّ قولَهُ تعالى في سورة القمر: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣] فيها الإشارةُ إلى موادِّ هذه السَّفِينة، أو الفُلْكِ لأَجْلِ أن يتعلَّمَ النَّاس؛ لأنَّه لم يقل (حَمَلْنَاه على فُلْكٍ) بل قال: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ كأنَّه يقول: إنَّ هذه الفُلْكَ مصنوعةٌ من الألواح والمسامِير، حتى يتعلَّمَ النَّاسُ موادَّ هذه الفُلْك.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ المرادُ بِمِثْله هنا الجِنْس، وليس المراد المماثَلَة من كل وَجْه، وذلك لأنَّ المماثَلَة من كل وَجْهٍ قد تكون متعذِّرَةً، لكن يكفي الجِنْس، أمَّا النَّوْعُ فيختَلِفُ باختلافِ الأَعْصَار، فلكُلِّ عَصْرٍ نوعُ سُفُنِه، وما زالَتْ ترتَقِي السُّفُن في البِحَار إلى أن وَصَلت إلى ما وَصَلَت إليه في عهدنا الحاضِر، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بتعليم الله تعالى] إشارةً إلى سؤالٍ مقدَّر؛ كأنَّه قال: كيف قال الله

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؟ وهذه السُّفُن مصنوعةٌ بأيدي البَشَر وليست بخَلْقِ الله كخَلْقِ البَعِير التي نَرْكَب والفَرَسِ وما شَابَهَها؟ فأجاب المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بأنَّ الله تعالى أضافَ خَلْقَها إليه لأنَّها كانت بتعليمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المماثَلَة قد لا تقتَضِي المسَاوَاةَ من كل وَجْه؛ لقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وليست السُّفُن الموجودَةُ والتي كانت في عهد نزولِ القُرْآن كَمِثْل سفينةِ نوحٍ من كل وَجْه، ويَدُلُّ على أنَّ المماثَلَة قد لا تقتضي المساوَاةَ من كُلِّ وَجْه قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإنَّ المرَادَ هنا المماثَلَة في العَدَد فقط، وإلا فإنَّ بيْنَ السَّماء والأَرْض من الفُرُوق العظيمَة ما هو ظاهِرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارةُ إلى الرَّاحَة الحاصِلَة بهذه السُّفُن، وأنَّها محَلُّ رُكوبٍ واسْتِقْرارٍ؛ لقوله: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باستقرارِ الراكبينَ على هذه السُّفُن.



الآيتان (٤٣، ٤٤)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس:٤٣-٤٤].

• • • •

في الآية جُمْلَة شَرْطِيَّة؛ فِعْلُ الشَّرْط فيها ﴿نَّشَأْ﴾ وجَوابُه ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾ وفيها أيضًا استثناءٌ مُفَرَّغٌ، يعني: من أَعَمِّ الأَحْوَالِ، وهو قوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهي مفعولٌ من أَجْلِه؛ أي: إلا لأَجْلِ الرَّحْمة التي مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني إذا ركبوا السُّفُن، والأَمْرُ كذلك، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٢-٣٤]. فحَذَّرَ الله عَزَّوَجَلَّ من أَمْرَينِ في هذه السُّفُن: إمَّا إسْكَانُ الرِّيحِ فتبقى راكدَةً على ظَهْرِها، وإمَّا أن يُغْرِقَها، وهنا يقول: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ وهم في سُفُنِهِم ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصَّرِيخُ بِمَعْنَى المُغِيث، وسُمِّيَ المُغِيثُ صريخًا؛ لأن عادةَ الإنسانِ إذا هاجَمَه أحدٌ صَرَخَ يستَغِيثُ، ومنه حديثُ غَزْوَةِ بدْرٍ؛ أن أبا سفيانَ بَعَثَ صارِخًا إلى أَهْلِ مكَّة يَسْتَغِيثُهم(١).

﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي: لا أَحَدَ يُغِيثُهم، ولا أحد يُنْقِذُهم إذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

(١) بمعناه في: سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٧)، والأقرب منه عن عمرو بن شعيب مرسلًا: «أن رسول الله ﷺ بعث صارخًا يصرخ في أهل مكة: ألا إن زكاة الفطر حق واجب» أخرجه عبد الرزاق في مصنفه رقم (٥٨٠٠)، والدارقطني (٣/ ٦٨).

أن يُغْرِقَهُم ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: لا يُنْجِيهِم أحَدٌ إلا رَحْمَةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، والاستثناء هنا قيل: إنَّه منقطِعٌ؛ لأن قولَهُ: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بِمَعْنَى: لَكِنْ رَحْمَةً مِنَّا يَنْجُون ويُنقَذُون، وقوله: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إنَّهُم يُمتَّعُون إلى حينِ أجَلِهِم؛ لأنَّ الله تعالى جعل لكل شيءٍ قَدْرًا؛ أي لا يُنجِيهِم إلا رَحْمَتُنا لهم، وتَمْتِيعُنا إيَّاهُم بلذَّاتِهِم إلى انقِضَاء آجالِهِم.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ مَشِيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله إذا أراد بقومٍ سوءًا فلا مَرَدَّ له؛ لقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإنجائِهِم من الغَرَق، وأن نجاتَهُم من الغَرَقِ ليسَتْ بكَسْبِهِم وعَمَلِهِم، ولكنَّها من رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولِهِ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله تعالى قد يُنقِذُ الإنسانَ من الهَلاكِ إلى أن يأتي أَجَلُه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الخُلُود في هذه الدُّنْيَا متعَذِّر ومستحيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وما كان له غايَةٌ فلا بُدَّ أن ينقضِيَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَجِبُ على الإنسان أن يَنْظُر إلى نِعَم الله تعالى بالإنقاذِ من الشَّدَائِد، أو بِحُصُول المحْبُوب؛ أن ينظُرَ إلى النِّعَم على أنَّها فَضْلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ وليست بِكَسْبِه، ولكنَّها من الله؛ لقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾.

الآيــة (٤٥)

• • ✿ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٥].

• • ✿ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [من عَذَابِ هَمِّ الدُّنْيَا كَغَيرِهِم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذابِ الآخِرَة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أَعْرَضُوا]، قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ هذه الجُمْلَة شَرْطِيَّة، فِعْلُ الشَّرطِ فيها ﴿قِيلَ﴾ وجوابُهُ محذوفٌ، قدَّرَهُ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: [أَعْرَضُوا] وهذا التَّقْدِيرُ لا شَكَّ أَنَّه التِماسٌ من المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وإلا فَقَدْ يكون الأمْرُ أوسَعَ مِمَّا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وحَذْفُ مثل هذا فيه من البَلاغَـةِ أنَّ الذِّهْنَ يُقَدِّرُ كُلَّ ما يُمكنُ أن يقَدِّرَه مِمَّا يترتَّب على هذا القول، هذا من جهةٍ، ومن جِهَةٍ أخرى أنَّ النَّاسَ إذا قيل لهم: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ تختلفُ إجاباتُهم؛ منهم من يُعْرِضُ ويَسْكُت، ومنهم من يَسْتكبِر ويَسُبُّ، ومنهم من يقاتِلُ، إلى غيرِ ذلك مِنَ الأُمُور التي لا تَخْفَى، فكان في حذْفِ هذا من البلاغَةِ ما هو ظَاهِرٌ ليَذْهَبَ الذِّهْنُ كُلَّ مَذْهَبٍ في تَقْديرِ هذا المحذُوفِ.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ القائِلُ هنا مُبْهَمٌ؛ لأنَّ الفعل مبْنِيٌّ للمجهولِ، ليَشْتَمِلَ أيَّ واحِدٍ يقول، سواء كان من قَوْلِ الله عَزَّوَجَلَّ في كتابِهِ، أو كان من قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ في سُنَّتِه، أو كان من قَوْلِ الدُّعاةِ بعدَ ذلك ﴿لَهُمُ ٱتَّقُواْ﴾ أي: الكُفَّارِ.

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من عذاب همِّ الدُّنْيَا] ولكنَّ الهَمَّ ليس هو العذابَ فقط، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يُعَذِّب الكافِرَ في الدُّنْيَا كما عَذَّبَ الأُمَم السَّابِقَة، وكما عذَّبَ هذه الأمَّة أيضًا، لكنَّ عذابَ هذه الأُمَّة يكون بابتلاءِ بَعضِهِم ببعضٍ ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤]، ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦].

كانت هذه في غزوة بَدْرٍ حين قُتِلَ صناديدُ قُرَيشٍ، فسمَّاها الله عَزَّوَجَلَّ البَطْشَةَ الكُبْرَى، أمَّا الأُمَم السَّابِقَة فعُقُوباتُهُم معروفةٌ، فهنا ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذابِ الدُّنْيَا؛ العَذَاب المتَنوِّع، سواءٌ كان بأيدي المؤْمِنينَ، أو كان مِن فِعْل الله عَزَّوَجَلَّ؛ كالقَحْطِ والزَّلازِلِ والغَرَق وغيرِ ذلك.

﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أَمْرِ الآخِرَة، وعذابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وأَشَدُّ وأَبْقَى.

قد يقول قائل: لو كان الأمْرُ في التَّفْسيرِ بالعَكْسِ لكان أَقْرَبَ إلى الصَّوابِ، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: مِن عَذَابِ الآخِرَة؛ لأنَّه مستَقْبَل ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: من عذابِ الدُّنْيَا؛ لأنَّ الدُّنْيَا هي التي يُخَلِّفُها الإنسانُ وراءه.

ولكنْ يجابُ عن هذا: بأنَّ الذي بين أيديهِمْ حقيقَةً هي الدُّنْيَا، وأمَّا خَلْفَهُم فإنَّ الخَلْفَ هو الوَرَاء قد يُطْلَق بِمَعْنَى الأمام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف:٧٩] قال العلماء: معناه: أمامَهم. وكقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧] أي: من أمامه.

وقيل: المراد بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ المعاصِي التي في مُسْتَقْبَلِهم ويُخْشَى أن يَفْعَلُوها ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ المعاصي الماضِيَة فيجعلون المرَادَ بها بين أيديهِمْ وما خَلْفَهُم منَ الأَعْمَال لا من عذابِ الله، وقد سبق أنْ قُلْنا: إنَّ الآيَةَ إذا كانَتْ تحتمِلُ المعانِيَ المقُولَةَ فيها

بدونِ تعارُضٍ فإنَّهَا تُحمَل على الجَمِيع. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لعلَّ هنا للتَّعليلِ؛ أي: لأَجْلِ أن يَرْحَمَهُم الله عَزَّوَجَلَّ إذا قيل لهم هذا الشَّيء، فجَمَعَ لَهُم بين التَّرغِيب والتَّرهِيب؛ التَّرغِيبُ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والتَّرْهِيبُ في قوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

فهؤلاء جُمِعَ لهم بين التَّرْغيب والتَّرْهِيب، ومع ذلك لا يسْتَجِيبونَ، بل يُعْرِضُون ويَسْتكْبِرُون ويسخَرُون، ويَقُولون: هذا أساطيرُ الأوَّلِينَ، وما أَشْبَهَ ذلك مِمَّا هو مَعْرُوفٌ عن هؤلاء إذا دُعُوا إلى الله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هؤلاء الكُفَّارَ قد أُقِيمَتْ عليهم الحُجَّةُ وبَلَغَتْهُم الدَّعْوَة ووُعِظُوا، ولكنْ لم يَنْفَعْهُم ذلك؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنْسانَ إذا أعْرَضَ عن دِينِ الله واستكْبَر كان عُرْضَةً للعَذَابِ إمَّا في الدُّنْيَا، أو في الآخِرَة، أو في الدُّنْيَا والآخِرَة؛ لِقَولِه تعالى: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإقبالَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ واجْتِنَابَ مَعْصِيَتِه سببٌ للرَّحْمَة؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:٤٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ العِلَلِ والأَسْبَاب؛ لِقَوْله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ فإنَّ لَعَلَّ هذا للتَّعليلِ، ولا أَحَدَ يُنكِرُ أنَّ للأَسْبَابِ تأثيرًا إلا مَنْ صُرِفَ عن مقتَضَى الفِطْرَة، والنَّاس اختلفوا في الأَسْبَاب والعِلَل على ثلاثةِ أَقْوَال:

فمنهم من قال: إنَّ الأَسْبَابَ والعِلَل مؤَثِّرة بذَاتِها، وأنَّه لا بدَّ لكُلِّ سببٍ من تأثيره في مُسَبَّبِه، ولا بُدَّ في كلِّ عِلَّة من تأثيرِها في مَعْلُولِها.

ومنهم من قال: إنَّه لا تأثيرَ للعِلَل والأسْبَابِ، وإنَّما هي علاماتٌ وأَمَاراتٌ فقط، فإذا وُجِدَ المُسَبَّب أو المعْلُول لم يقولوا: إنَّ ذلك من أجْلِ السَّبَب أو العِلَّة، ولكن يقولون: إنَّ ذلك حَصَلَ عنده لا بِهِ. ولا رَيْبَ أنَّ هؤلاء يُخَالِفُون المنْقُولَ والمعقُولَ، ولا أحَدَ يوافِقُهُم على ما ذهبوا إليه.

القول الثَّالِث الوسطِ يقولون: إنَّ الأَسْبَابَ والعِلَلَ تُؤَثِّرُ في مَعْلُولاتِها ومُسَبَّباتِها، ولكن بِجَعْل الله ذلك فيها؛ فهي ليست مؤثِّرَة بِنَفْسِها بل بما أودَعَهُ الله تعالى فيها من الأَمْرِ المُوجِب للسَّبَب، أو للمَعْلُول، وهذا القول هو المتَعَيَّنُ وهو الصَّوَاب؛ بدليلِ أنَّ الله تعالى قد يَسْلِبُ هذه العِلَّة أو هذا السَّبَبَ التَّأْثِيرَ فلا يبقَى له تأثيرٌ إطلاقًا، وما قِصَّةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِغَريبةٍ؛ حيث أُلْقِيَ في نارٍ تتأَجَّجُ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ لهذه النَّار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فكانَتْ بردًا وسلامًا، مع أنَّها هي سَبَبٌ للإحراق، ولكنَّها صارَتْ بردًا وسَلامًا على إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا يدلُّ على أنَّ الأَسْبَابَ والعِلَل إنَّما تؤثِّرُ بإرادةِ الله عَزَّوَجَلَّ وجَعْلِ هذه العِلَّةِ أو السَّبَب مؤَثِّرًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصِّفَات الذَّاتِيَّة الفِعْلِيَّة، فهي من الصِّفَات الذَّاتيَّة؛ لأنَّ الله لم يَزَلْ رَحيمًا بعِبادِهِ ولا يَزَالُ، ومن الصِّفَات الفِعْلِيَّة باعتبار تَعَلُّقِها بالمرْحُوم، فإنَّها تتجدَّد باعتبار المرْحُوم، لا باعتبار أنَّها صِفَة من صِفَاتِ الله؛ فهذا الذي رَحِمَه الله من البَشَرِ حادِثٌ بعد أن لم يكن فتعَلَّقت به الرَّحْمَة.

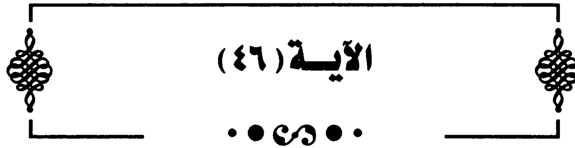
ولا يَخْفَى ما ذَهَبَ إليه الأشاعِرَة من إنكارِهِمُ الرَّحْمَة على وَجْهِ الحقيقة،

وادِّعائِهِم أَنَّه يُرَاد بها الإحسْان، أو إرادَة الإِحْسَان. ففَسَّرُوها بالإِرَادَة؛ لأَنَّهُم يُثْبتُون أنَّ لله تعالى الإِرَادَةَ، وبالإحسانِ؛ لأَنَّه مخلوقٌ منفَصِلٌ ليس من صِفَاتِ الله، وهـذا بلا شكٍّ قولٌ باطِلٌ، وقد مـرَّ علينا بيانُ تَعْلِيلِهم لإنكارِهِ والرَّدُّ عليهم. قالـوا: إنَّ الرَّحْمَةَ تقتضي رِقَّةً ولِينًا وضَعْفًا، وهذا لا يليقُ بالله عَزَّوَجَلَّ، وأيضًا الرَّحْمَة لا يدُلُّ عليها العَقْل، ونحن لا نُثْبِـتُ من الصِّفَات إلا ما دلَّ عليه العَقْل، وقد بَيَّنَّا أنَّ هذا القولَ ليس بالصَّوَابِ:

أوَّلًا: أنَّ الرَّحْمَةَ قد تقَعُ من إنسانٍ قَوِيٍّ وذي سلطانٍ ويوصَف بالرَّحْمَة.

ثانيًا: ادِّعاؤُهُم أنَّ العَقْلَ لا يَدُلُّ عليها باطِلٌ؛ فإنَّ العَقْل يدلُّ عليها أَكْثَرَ دَلالَةٍ وأوْضَح دَلالة من دَلالة التَّخْصِيصِ على الإِرَادَةِ، وقد مرَّ علينا هذا كثيرًا.





الآية (٤٦)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس:٤٦].

• • ❦ • •

﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ الضميرُ يعود هنا على المكَذِّبينَ للرُّسُل، و﴿مِّنْ﴾ هنا زائِدَة لفظًا، وزائِدَة في المعنى، أي: تعطيه معنًى جديدًا، والمعنى الجديدُ تأكيدُ النَّفْي والتَّنْصِيص على عُمُومه؛ أي: أيُّ آيَةٍ تأتِيهِمْ فَإِنَّهُم لا يقبَلُونَها، بل يُعْرِضُون عنها ويَسْتكْبِرون، والآياتُ التي تأتي من الله عَزَّوَجَلَّ تنقَسِمُ إلى قِسْمَين:

الأَوَّلُ: آياتٌ كونِيَّة.

الثَّاني: آياتٌ شَرْعِيَّة.

فالآياتُ الشَّـرْعِيَّة ما جاءت بها الرُّسُـل عليهم أفضلُ الصَّلاة والسَّـلام، والإعْرَاضُ عنها يكونُ بالتَّكْذِيب بالأَخْبَار، والاستِكْبَار عن الأَحْكَام.

وأَمَّا الآياتُ الكَوْنِيَّة فالإعراضُ عنها أنَّه لا يُهْتَمُّ بها، وألَّا تُحـرِّكَ منه ساكنًا، وألَّا يَوْجَلَ منها قَلْبُه، وأن يقول كالذين رأَوُا العَذَابَ يَنْزِلُ من السَّماء: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]، أو كالذين يقولون: إنَّ الكُسُوف ليس أمرًا مُخِيفًا؛ لأنَّه شَيْءٌ طَبِيعِيٌّ، ولا ينبغي أن يُخِيفَ -نسأل الله العافية- أو كالذين يَرَوْنَ الزَّلازِلَ، والغَرَق، والدَّمَار من الرِّياحِ العاتِيَة وغيرها، ثم يقولون: هذا أمْـرٌ

طَبيعِيٌّ، ولا يُحَرِّكُ له ساكنًا، ولا رَيْبَ أنَّ هذا يدلُّ على قَسْوَة القلُوب ومَوْتِها، وإلا فإنَّ الواجِبَ على الإنسانِ أن يتَّعِظَ بهذه الآياتِ، فالإعْـرَاضُ عن الآياتِ الكَوْنِيَّة معناه عَدَمُ المبالاةِ بها، وعَدَمُ الاكْتِرَاث بها، وألَّا تُحَرِّكَ من الإنسانِ ساكِنًا، ولا تَهُزَّ له عَاطِفَـةً ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي: إلا قابلـوها بالإعْـرَاضِ، ولا يتأمَّلُـونَها، ولا يُفَكِّرونَ فيها، فإذا جاءَتِ الآياتُ الشَّرْعِيَّة في خَبَرٍ كَذَّبُوها، وقالوا: هذا كَذِبٌ، هذا سِحْرٌ، هذا شِعْرٌ، وإذا جاءَتِ الأحْكَامُ الشَّرْعِيَّة استكْبَروا عنها، ولم يُذْعِنُوا لها ولم يَنْقَادُوا لها بِدُون أن يتأمَّلُوا فيها وما فيها من المَصَالِحِ، وكذلك في الآياتِ الكَوْنِيَّة لا يكْتَرِثُون بها ولا يَهْتَمُّون بها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هَذِه الآيَةِ دَلِيلٌ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَذْكُرُ، أو يُبيِّنُ لعِبَادِه من الآياتِ ما يُؤْمِنُ على مِثْلِه البَشَرُ، ووَجْهُ ذلك أنَّه لو لا هذا لم يكُنْ في الآياتِ فائدَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ بَنِي آدَمَ قد يَعْتُونَ عن الآياتِ فيُعْرِضُون عنها بدون نَظَر، والواجِبُ على الإنسانِ أنْ يَنْظُر أوَّلًا، ثم يَحْكُم ثانيًا؛ ولهذا يُقَالُ: (الحُكْمُ على الشَّيءِ فَرْعٌ عن تَصَـوُّرِه)، فانظر أوَّلًا في الآياتِ هل هي آياتٌ مُقْنِعَةٌ، مُوجِبَة للصَّـلاحِ، فَلْتكُنْ صالِحًا بها، هل هي لا تنفَعُ، فحينئذٍ تعَذَّرَ الإعْرَاضُ عنها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ قَسْوَة قلوب هؤلاء؛ فإنَّهُم لم يقْبَلُوا آيةً من الآيات، ودَلِيلُه ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الرُّبُوبِيَّة العامَّة؛ لِقَوْلِه: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾. فأثبَتَ الله تعالى أنَّه ربُّ هؤلاء، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ربُّ كلِّ شيءٍ ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ

ﵟٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖﵞ [النمل:٩١] فكُلُّ شَيْء فاللهُ رَبُّه، حتى الكُفَّار، وقد تكون الرُّبُوبِيَّة خاصَّة، أي: إنَّه يُـرَاد بها ربُوبِيَّةٌ خاصَّة، فيها مَـزِيدُ عنايَةٍ واعتناءٍ؛ مثل قوله تعالى: ﵟرَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَﵞ [الأعراف:١٢٢] فإنَّ هذه الرُّبُوبِيَّةَ غيرُ الرُّبُوبِيَّة العامَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَقْبيحُ حالِ هؤلاء والتَّحْذِير من فِعْلِهم؛ لِقَوْلِه: ﵟإِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَﵞ مع أنَّها جاءت من ربِّهم الذي هو مالِكُهُم، وخالِقُهُم، وأَمْرُهُمْ إليه، ومع ذلك يُعْرِضُون.



الآيــة (٤٧)

• • ☙ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:٤٧].

• • ☙ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: قال فقراءُ الصَّحابَة: أَنْفِقُوا علينا مِمَّا رَزَقَكُم الله من الأموالِ]، هكذا سار المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسيرِ الآيَةِ فَجَعَلَ القائِلَ هُم الفقراءَ، وعلى هذا فتكون الآيةُ في سؤالِ الفُقَرَاء من الأغنياء أن يُنْفِقُوا؛ أي: إذا جاء الفُقَرَاء يسألون الأغْنِيَاء أن يُنْفِقُوا تهكَّمُوا بهم، وقالوا: كيف نُطْعِمُكُم، والله تعالى لم يَشَأْ أن نُطْعِمَكُم، ولو شاء أن نُطْعِمَكم لأَعْطَيناكم بدون سؤالٍ، هذا توجيه الآيةِ على ما مشى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لكن الذي يَنبغي أن نَجْعَلَ الآيَةَ عامَّةً؛ لأنَّه أَبْهَمَ فيها الفاعِلَ، وإبهامُ الفاعِلِ يُرَادُ به في بعضِ الأحيانِ التَّعْميمُ، فـ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: إذا قال لهم أحَدٌ من النَّاس، سواءٌ كان الفُقَرَاء يسألونَهُم الإنفَاقَ، أو كانوا الأَغْنِياءَ يَحُثُّونَهُم على الإنفاق؛ لأنَّ الأَغْنِيَاء من الصَّحابَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ مثلًا يُنْفِقُون فيَحُثُّونَ الأغنياء من الكُفَّار على أن يُنْفِقُوا أيضًا، فالصَّوَاب أن نُبقِيَ الآية على إبْهامِهَا ليكونَ أعَمَّ.

وقوله: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ الإنفاقُ بِمَعْنَى البَذْلِ والإعطاء، وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي مِمَّا أعطاكُمُ الله، وفي قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ دون قوله: (أَنْفِقُوا من أمْوَالِكُم) فيه تَنْبيهٌ

على أنَّ هذا الذي بين أيْدِيكُم ليس من كَسْبِكُم في الواقِعِ، ولكنَّه من رِزْقِ الله تعالى، فكان عليكم أن تُنْفِقُوا مِن هذا الذي رَزَقَكم الله؛ لأنَّ الله يأمُرُكم به، فالذي أمَرَكُم بالإنفاقِ هو الذي أعطاكم هذا المَالَ، فكيف تُنكِرُون فَضْلَه وتَسْتَكْبِـرُون عن أمْرِه فلا تُنفِقُون؟! هذه هي الفائِدَة من قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فما كان الجَـوَابُ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ...﴾ اللامُ هنا الأصَحُّ أنَّ المَرادَ بها الصِّلَة؛ يعني قالوا قولًا يَصِل للذين آمنوا، والذين آمنوا هُمُ الذين قالوا لهم أَنْفِقُوا مِمَّا رزقكم الله ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اسْتِهْزاءً بهم] يُحْتَمَل ما ذكره المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنَّه استهـزَاءٌ، ويُحتَمَل أنَّه من باب الاحْتِجَاج بالقَـدَرِ عنادًا وتبَجُّحًا، يقولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ و﴿مَن﴾ هنا بِمَعْنَى الذي، ويجوز أن تكون نكرةً موصوفةً، أي: نُطْعِمُ أحدًا لو يشاء اللهُ أطعمَهُ مِن دُونِنا، أو أَنُطْعِمُ الذي لو يشاء الله أطعَمَهُم.

و﴿لَوْ﴾ هنا حَرْفُ امتناعٍ لِامْتناعٍ، وشَرْطُها قولُه: ﴿يَشَآءُ﴾ وجوابُها: ﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾ وقد أَتَتْ على خلاف الأكْثَرِ حيث حُذِفَت اللام من الجَوَاب، والأصل (من لو يَشَاءُ الله لأَطْعَمَه) فإنَّ جَوَابَ (لو) إذا كان مُثْبَتًا فالأكثرُ فيه إثباتُ اللام.

وقد تُحْذَفُ اللام، وقد اجْتَمَع الأمران في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٧٠].

فأتت اللام في جواب (لو) في الآية السَّابِقَة، وحُذِفَت من الآية الثَّانِيَة، وهذه

الآية من سورةِ يس من باب مَحْذُوفِ اللام.

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّهم يقولون ذلك [اسْتِهزاءً بِهِم] يعني: أَنُطْعِمُ قومًا لو شاء الله أطعمَهُم، فإطْعَامُهُم إلى الله، هذا الوَجْهُ الأوَّلُ.

الوجه الثاني: يُحتَمل أنَّه من باب الاحْتِجَاج بالقَدَرِ فِرَارًا من اللَّوْم؛ يعني: أَنُطْعِمُ قومًا لَوْ يشَاءُ الله أطْعَمَهُم فأطعَمْنَاهم، ولكنَّ الله تعالى لم يَشَأْ أن نُطعِمَهم فلا نُطْعِمُهم.

الوجه الثَّالثُ: يُحتمَل أنَّهم قالوا هذا اعتِرَاضًا على القَدَر كما يقوله الاشْتِرَاكِيُّون والشُّيُوعِيُّون؛ أي: لماذا يَجْعَلُ الله هذا فقيرًا، ولا يُعْطِيه، فكأنَّهم في جوابِهِم هذا يَعْتَرِضُون على الله ويقولون: الذي يُطْعِمُهم والمسْؤُولُ عنهم هو الله، وكان على اللهِ أن يُطْعِمَهُم، لكنْ لم يَشَأْ ذلك، فيكون في هذا نَوْعٌ من الاعْتِرَاضِ على القَدَرِ.

فهذه ثلاثَةُ أَوْجُه:

الأَوَّلُ: الاسْتِهْزَاء.

الثَّاني: الاحْتِجَاجُ بالقَدَر.

الثَّالث: الاعْتِرَاضُ على القَدَر.

ثم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: في قَوْلِكُم لنا ذلك مع مُعْتَقَدِكُم هذا ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّنٍ] يعني: هؤلاء الكُفَّارُ الذين أُمِرُوا أن يُنْفِقُوا على الفُقَرَاء يقولون للذي أَمَرَهُم: أنت تَعْتَقِدُ أنَّ الله لو شَاءَ أَطْعَمَهُم، فيقول: نعم، أعتقِدُ ذلك، فيقولون: إذَنْ كَيْفَ تَأْمُرُنا أن نُطْعِمَهُم، والأَمْرُ بِمَشِيئَةِ اللهِ ما أنت إلا في

ضَلالٍ مُبِينٍ، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾: ﴿إِنْ﴾ هنا نافيةٌ؛ لوُجُود (إلا) بَعْدَها، وإذا جاءت (إلا) بعد (إِنْ) فهي دليلٌ على أنَّ (إِنْ) نافِيَة؛ و(إِنْ) تَرِدُ في اللُّغَة العَرَبِيَّة على أربعَةِ أَوْجُه؛ هي:

الأَوَّلُ: تأتي زائِدَةً، ومثالُهُ قولُ الشَّاعِرِ(١):

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ ... وَلَا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

الثَّانِي: تأتي شَرْطِيَّة؛ مثاله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء:١٣٥].

الثَّالِث: تأتي نافِيَة، مثاله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الرَّابِعُ: مُخَفَّفَةٌ منَ الثَّقِيلَة؛ مثالُهُ قولُ الشَّاعِرِ(٢)):

وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ

وقال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُبِين أي: بَيِّن] فهي من أَبَانَ القَاصِرِ، وأَبَانَ تأتِي مُتَعَدِّيَة، ولازِمَة، فيُقَالُ: أَبَانَ الشَّيْءَ، أي: أَظْهَرَه، ويُقَالُ: أَبَانَ الصُّبْحُ؛ أي: ظهر، إذن ﴿مُّبِينٍ﴾ من الرُّبَاعِيِّ: مِنْ أَبَان يُبِينُ فَهُو مُبِينٌ؛ ويُحْتَمَل أن تكون بِمَعنى (بَيِّن) على أنَّها من القَاصِرِ.

ويُحتَمَل في غير هذا السِّياقِ أن تكون بِمَعْنَى (أَبَانَ) مثل ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر:١] ليس المعنى: وقُرْآنٍ بَيِّنٍ، بل وقُرْآنٍ مُبِينٍ لِلْحَقِّ.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

(٢) هو عجز بيت للطرماح بن حكيم الطائي، وصدره: (أَنَا ابْنُ أُبَاةِ الضَّيْمِ مِنْ آلِ مَالِكٍ). انظر: شرح الكافية لابن مالك (١/ ٥٠٩)، ديوان الطرماح (ص٢٨٠).

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وللتَّصْرِيح بكُفْرِهِم مَوْقِعٌ عَظِيم] أي في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يَقُل: (قالوا) بل قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فله مَوْقِعٌ عَظِيمٌ؛ لأنه:

أوَّلًا: التَّصريحُ بكُفْرِ هـؤلاء، لو قال: (قالوا) لقُلْنا لعلَّهم قالوا ذلك ليس بِسَبَب الكُفْرِ، ولكن بِسَبَب البُخْلِ، هـذه فائدَةٌ؛ أنَّ الإظهارَ في مَوْضِعِ الإضْمَارِ في هذه الآية للتَّصْرِيح بكُفْرِهِم.

الفائِدَة الثَّانِيَة: أنَّ مِثْل هذه المقالة لا تَصْدُر إلا مِنْ كَافِـر، فيكون الكُفْرُ عامًّا لكلِّ من قال هذه المقَالَة.

وقد مَرَّ علينا فيما سَبَقَ أنَّ الإظْهَارَ في مَوْضِع الإضْمَارِ له ثلاثُ فَوَائِدَ:

الفَائِدَة الأُولَى: التَّصْريحُ بالحُكْمِ على هؤلاء الذين يَرْجِعُ إليهم الضَّمِير.

الفائِدَة الثَّانِيَة: أنَّ من قال بِمِثْل هذا فَهُو كَافِر، أو ظَالِم حَسَبَ السِّياقِ.

الفائِدَة الثَّالِثَة: العِلَّة، وأنَّ هذا القَوْلَ سَبَبُه كذا وكذا حَسَبَ ما يُوصَفُ.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اللامُ بِمعنَى (عن) يعني: قال الذين كفروا عن الذين آمنوا: يعني قالوا في حَـقِّ الذين أُمِـرُوا بالإنْفَاقِ عليهم وهُمُ المؤمِنُون ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هؤلاءِ الذين كَفَرُوا يُوعَظُون ويُنَبَّهُون ولكنَّهم يَسْتَكْبِرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فالحُجَّة قائِمَةٌ عليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ إذا أنفقَ بأَمْرِ الله تعالى فلا مِنَّةَ له على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ الله تعالى هو الذي أعطاه؛ لِقَوْلِه: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ينبغي للمُتكَلِّم الوَاعِظ أن يُبيِّنَ الأسبَابَ التي تَحُثُّ على فِعْلِ ما وَعَظَ به؛ لِقَوْلِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هـؤلاء الذين قالوا هـذا الكلام: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أنَّهم كُفَّارٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ البُخْـلَ من صِفَات الكافِـرِينَ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وإذا كان من صِفَاتِ الكافِرِينَ فإنَّه لا ينبغي للمُؤْمِنِ أن يتَّصِف به؛ فكُلُّ ما كان من صِفَات الكافرين من اليَهُـود والنَّصَارى وغيرهم، فإنَّ اللائِقَ بالمسْلِم ألَّا يفعَلَهُ؛ لأنَّه إذا فعله صار مُتَشَبِّهًا بالكافرين في هذه الخَصْلَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإنسانَ قد يقول كَلِمَة الحَقِّ يريد بها البَاطِلَ ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ فنحنُ نؤمِنُ بأنَّه لو شاءَ الله لأَطْعَمَ هؤلاء، لكنَّ حِكْمَته عَزَّوَجَلَّ اقتَضَتْ أن يَجْعَل هؤلاء فُقَرَاءَ، وهؤلاء أَغْنِيَاءَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المشـركِينَ يُقِرُّونَ بِمَشِيئـةِ الله وأنَّها نافِـذَة في كلِّ شَيْء؛ لِقَوْلِهم: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ والمشْـرِكُون أو الكافِرُون لا يُنْكِرون ربُوبيَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ، بل يُقِرُّون بها حتى الذين تَظَاهَروا بإنْكَارِها إنَّما يُنْكِرونَها بألْسِنَتِهم؛ لِقَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] ولِقَوْلِ موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لفرعونَ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] لكنْ يُنْكِـرُون الرُّبُوبِيَّة استكبارًا ومُكَابَـرةً، وإلا فإنَّ قَـرارَةَ نُفُوسِهم تَشْهَد بها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الأساليبُ الدُّعائِيَّة التي يستعْمِلُها المشْرِكون من قديمِ الزَّمان؛ حيث قالوا لهؤلاء المؤمنين، أو لهؤلاء القائلِينَ: أَنْفِقُوا مِمَّا رزقَكُم الله؛ قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وهذا الوَصْفُ المَشِينُ للمؤمنين من الكافِرين هذا لم يَزَلْ ولا يزال موْجُودًا إلى يَوْمِنا هذا، فهم يَصِفُون أهلَ الخَيْر بالأوصَافِ العَدِيدَةِ المنَفِّرَة منهم، أو التي يَقْصِدُون بها استِعْدَاء الحُكَّام على هؤلاء المؤمِنينَ، يقولون: هؤلاء رَجْعِيُّون، وهؤلاء مُتَخَلِّفُون، هؤلاء متشدِّدُون، هؤلاء مُتَزَمِّتُون، وما أَشْبَهَ ذلك من الكَلِمات التي يصفون بها أولياءَ الله عَزَّوَجَلَّ.

ونَحنُ لا نُنْكِرُ أنَّه يُوجَد مِن أهلِ الخَيْر وأهْلِ الدِّينِ من يَغْلو ويبالِغُ في عَمَلِه، أو في وَصْفِه لغَيْره من التَّكْفِير والتَّفْسِيق، حتى يُكَفِّرَ من لم يُكَفِّرْه الله، ويُفَسِّق من لم يُفَسِّقْه الله، نحن لا نُنْكِر أنَّ هذا موْجُودٌ، ولكنْ يبدو لي -والله أعلم- أن وُجُود مِثْل هؤلاء المتشَدِّدينَ إنَّما جاء نتيجةً لتَطَرُّف الآخَرينَ في المعاصي والفُسُوق، فيريدون أن يُحْدِثُوا رَدَّةَ فِعْل بالنِّسْبَة لهؤلاء، ولو اسْتَقَام النَّاس كُلُّهُم على الدِّينِ ما حصل هذا التَّطَرُّف، لكن إذا رأَوْا جانبًا متَطَرِّفًا في الفُسُوق والعِصْيَان، وأنَّه مُسْتَمِرٌّ على ذلك ومُقَرٌّ على ذلك من بَعْضِ وُلاة الأُمُور، حصل رَدُّ فِعْلٍ مُقابِلٌ لهؤلاء، فتَشَدُّد هؤلاء في مُقابِلِ تراخِي هؤلاء، ولكنَّ التَّوَسُّطَ هو الخَيْر.

ومع هذا فإنَّ المتَوَسِّطِينَ المعتَدِلينَ لا يَسْلَمُون من أَلْسِنَة المتَطَرِّفينَ الضَّالِّينَ، ولا من أَلْسِنَة المتطَرِّفِينَ الغالِينَ، فالغَالُون مثلًا يقولون لهؤلاء المتَوَسِّطينَ: أنتم مُفَرِّطون، أنتم مُدَاهِنُون، أنتم تُقِرُّون أَهْلَ الشَّرِّ، وأهلُ الشَّرِّ يقولون: هؤلاء مُتَشَدِّدون، هؤلاء يريدون منَ النَّاس أن يكونوا على شاكِلَتِهم، وإلا فَهُم كافرون

وما أَشْبَهَ ذلك.

والمهمُّ: أن ألقاب السُّوءِ التي يُلَقَّبُ بها أعداءُ الله أولياءَ الله لم تَزَلْ موُجُودةً ولا تزال موُجُودةً إلى يومِنَا هذا، حتى أهْل البِدَع يلَقِّبُون أهْلَ السُّنَّة بألقابِ السُّوء يقولون: هؤلاء مُشَبِّهَة إذا أثبتوا الصِّفَاتِ على الحَقِيقَة، وهؤلاء حَشَوِيَّةٌ، هؤلاء نوابِتُ وما أشبه ذلك من الكَلِمات التي تَسْتَوْجِب النُّفُور منهم والنَّيْلَ من قَدْرِهم، ولكنَّ هذا لا يَضُرُّ أهلَ الخَيْر، ولكن يُؤْذِيهِم، والأَذِيَّةُ غيرُ الضَّرَر، فقد يتأذَّى الإنسان بالشَّيْء ولكن لا يتضَرَّرُ به، فها هو الإنسان يتأذَّى من رائِحَة البَصَلِ والكُرَّاث، والشَّيْء المستَقْذَر، ومع ذلك لا يتضرَّر به.

وقد أثبت الله لنَفْسِه أنَّه يؤذَى من المنافِقِينَ وغيرِهم، ونفى عن نَفْسِه التَّضَرُّر، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧] وقال في الحديثِ القُدُسِيِّ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[1]، وقال في الحديث القُدُسِيِّ: «يَا عِبَادِ، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»[2].

المهمُّ: أنَّ مِثْلَ هذه الألقابِ لا شكَّ أنَّها تؤذي المؤمنينَ، ويتأذَّوْن منهم، وتَضِيق بها صدُورُهُم، لكنَّها لا تَضُرُّهم، بل هي نافِعَة لهم؛ لأنَّهُم إذا صبروا عليها أُجِرُوا على الصَّبْر، وإذا تأذَّوْا بِدُونِ صَبْرٍ صَارَتْ كُفَّارةً لهم؛ لأنَّه لا يُصِيبُ المؤْمِنَ مِنْ هَمٍّ ولا أَذًى ولا غَمٍّ إلا كَفَّر اللهُ به عَنْهُ حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، لا سيَّما وأنَّه يؤذَى هنا في ذاتِ الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون هذا مَنْقَبَةً لهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ويكون هذا الإنسانُ الذي أوذِيَ في الله قد ناله ما نال أولياءَ الله من الأنبياءِ والصِّدِّيقِيـنَ والشُّهَدَاء، وقد أَخبَـرَ النبيُّ عليه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّـلامِ أَنَّه يُبْتَلَى الصَّالِحُون الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ(١)، فإذا كان فيه قوَّةٌ في دِينِه فإنَّه يؤذَى أَكْثَرَ؛ لِيَكُونَ أَبْلغَ في الامتحَانِ، وإذا كان دِينُه أَقَلَّ، فإنَّ الله قد يَرْحَمُه فلا يَحْصُل له من الأَذِيَّةِ ما يَحْصُل للآخرِ، وقد يَبْتَلِيه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١] نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ.

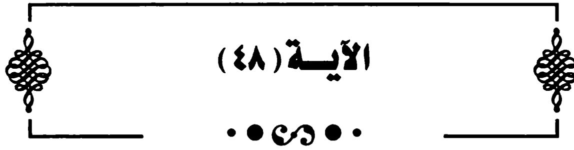
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: المبَالَغَة من أعـداء الله بما يُسَمُّونَ به أولياءَ الله؛ لِقَوْلِهِم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كأَنَّهُم حَصَـرُوا حالهُم من كلِّ وَجْهٍ في الضَّلال المُبِينِ، كأَنَّه لا هِدَايةَ فيهم إطْلاقًا (مَا أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) وهـذا غايةُ ما يكون من العُدْوَان من هؤلاء.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْبَاتُ مَشِيئَةِ الله، وهي كثيرةٌ في القُرْآن، ولكِنْ كُلُّ ما ذَكَرَ الله تعالى من المشِيئَةِ فَهِي مقرونَةٌ أو مُقَيَّدَةٌ بالحِكْمَة؛ إذ لَيْسَت مَشِيئَةُ الله مُجَرَّدَ مَشِيئَةٍ بل هي مَقْرُونةٌ بالحِكْمَة.



---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٣)، والإمام أحمد (١/ ١٧٢)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (٤٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس:٤٨].

•••

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي يقول الكُفَّارُ المُكَذِّبون بوَعْدِ الله عَزَّوَجَلَّ، ومِنْه القيامَةُ ﴿مَتَىٰ﴾ هنا استفهامُ اسْتِبْعَادٍ وتحَدٍّ؛ أي: يقولون مُسْتَبْعِدينَ هذا الأمرَ مُتَحَدِّينَ من يقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، و﴿مَتَىٰ﴾ خبـرٌ مُقدَّم و﴿هَٰذَا﴾ مبتـدأ مُؤَخَّر؛ وذلك لأنَّ ﴿مَتَىٰ﴾ وَاقِعـةٌ مَوْقِعَ النَّكِـرَة و﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مَعْرِفَة، والمعْهُود أنَّ المعرفَة هي المبْتَدَأ، والخبَرُ يكون نكِرَةً، وقد يكون مَعْرِفَة، لكن إذا وُجِدَ نكِرَة ومَعْرِفَة، وأمْكَنَ أن تكون المعْرِفَة للمُبْتَدَأ فهي المبتَدَأ؛ لأنَّ المبْتَدَأ محكومٌ عليه فلا بُدَّ أن يكون مَعْرِفَة، والمعْرِفَة تُعَيِّنُ المدْلُول وتُخَصِّصُه، فلا بد أن يكونَ المحْكُومُ عليه معلومًا؛ ولهذا قال العُلَمَـاء في هذه القاعِـدَة: «إذا وُجِدَت كلمَتَانِ إحْدَاهُما مَعْـرِفةٌ والأخرى نكِـرةٌ، وأَمْكَنَ أن تكون المعْـرِفَةُ هي المبتَدَأَ فَلْتَكُنْ هي المبْتَدَأ».

وتعليلُ ذلك أنَّ المبْتَدَأ محكومٌ عليه، فلا بدَّ أن يكونَ معلومًا مُتَعَيَّنًا، يقول: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بأَنَّنا نُبْعَثُ، فمتى يكون؟ ولا شكَّ أنَّ هذه الشُّبْهَة داحِضَة؛ لأنَّ الذين قالوا بالبَعْثِ لم يُعَيِّنُوه بيومٍ مُعَيَّن، وانظر إلى حُجَّتِهِم في آيةٍ أخرى تَكُنْ أَبْيَنَ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن

﴿قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، وهل الذين قالوا: إنَّهم يُبْعَثُون قالوا يُبْعَثُون في الدُّنْيَا حتى يقولوا: ائْتُوا بآبائِنَا، وإنَّما قالوا ستُبْعَثُون يوم القِيَامَة.

وقولهم: (ائْتُوا بآبَائِنا) أي: ابْعَثُوهم لنا، هذا التحَدِّي في غير مَحَلِّه؛ لأنَّه ما قيل لهم: إنَّكُم ستُبْعَثُون في الدُّنْيَا، بل في يوم القِيَامَةِ، وهنا يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الجَوَابُ: ذكَرَ الله تعالى هذا في القُرْآنِ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٥] فالوَعْدُ لم يَحِنْ وقْتُه بعْدُ، انتظروا وسوف يأتي هذا الوَعْدُ.

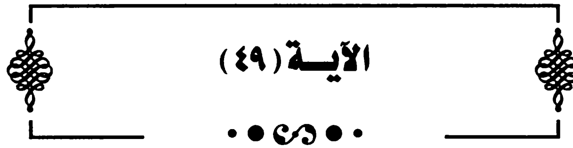
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ بَنِي آدم يَصِلُون إلى حَدِّ التحدي لرَبِّ العالَمِينَ، ولِمَن بلَّغَ رسالته؛ لِقَوْلِهِم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام بَلَّغُوا البلاغَ المُبِينَ، وبيَّنُوا للناس أنَّهُم سيُبْعَثُون ويُجازَوْن، وأنَّهُم وُعِدُوا بذلك؛ لِقَوْلِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هؤلاء الذين قالوا هذا القَوْلَ تَحدِّيًا واستبعادًا لم يُصَدِّقُوا الرُّسُل، بل كَذَّبُوهم، ولَيْتَهُم نظَرُوا في الأمْرِ وفكَّرُوا؛ لِقَوْلِه هنا: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.





الآية (٤٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس:٤٩].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتَظِرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي نَفْخَةُ إسرافيلَ الأولى] (نَظَرَ) تُستَعْمَل متعَدِّية بنَفْسِها، بِمَعْنَى الانْتِظَار؛ مثل: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [فاطر:٤٣] ولها أمثلة كثيرة، وإِنْ تَعدَّت بـ(في) صار المرادُ بها نَظَرَ الفِكْرِ؛ تقول: (نَظَرَ في كذا) أي: فكَّرَ فيه وتأمَّلَه، وإذا تعدَّتْ بـ(إلى) فهي النَّظَرُ بالعَيْنِ تقول: (نَظَرْتُ إليه)؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القِيامَة:٢٢-٢٣] ﴿صَيْحَةً﴾ يعني: يُصاحُ بهم، وذلك بالنَّفْخَة الأولى في الصُّورِ؛ لأنَّ هذه النَّفْخَة يكون لها صَوْتٌ عظيم مُزْعِج يُفْزِعُ الخَلائِقَ، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧] فكلُّ الخَلائِقِ تفزَعُ إلا من شاء الله عَزَّوَجَلَّ، فيفزَعُون فزَعًا شديدًا يؤدِّي إلى صَعْقٍ ثم إلى الموْتِ وحينئذ تكون نَفْخَة وَاحِدَة فيها فزَعٌ، وفيها صَعْقة ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي: تأخُذُهم كما يأخُذُ العَدُوُّ عَدُوَّه بحيث لا تُمْهِلُهُم ولا تُنْظِرُهُم.

﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالتَّشْدِيد، أصْلُه يَخْتَصِمُون نُقِلَت حركةُ التاءِ إلى الخَاء، وأُدْغِمَت في الصَّادِ، أي: وهُمْ غَفَلَةٌ عنها بتَخَاصُم وتَبايُع،

وأكْل وشُرْب وغيـر ذلك، وفي قراءة «يَخْصِمون» كيَضْـرِبُون أي: يَخْصِمُ بعْضُهم بعضًا].

القراءات التي ذَكَرَ المُفسِّـر قراءتان فقط، يقول: بالتَّشْدِيد أصله يَخْتَصِمون، نُقِلَتْ حركةُ التَّاءِ إلى الخَاءِ، وحركةُ التَّاءِ هي الفَتْحَة، وأُدْغِمَت التَّاء بالصَّاد فصارت على هذه القِراءَة «يَخَصِّمُونَ»، والقِراءَة التي في المصحف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾، بكسر الخَاءِ، والقِراءَة الثَّالِثة «يَخْصِمُونَ»، كيَضْرِبُون، والقِراءَة الرابعة التي أشار إليها المحَشِّي[1] هو أن تجعل الخاء لا مفتوحة خالِصَة، ولا مكْسُورة خَالِصَة وإنَّما تَخْتَلِسُ الفَتْحَـة، فتكون بين الفَتْحَة والكَسْرة، هذه القِراءَة الرابعة، والثَّالِثَة التي في المصْحَفِ لم يُشِرْ إليها المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ووَجَّهَ المحَشِّي القِراءَةَ المَوْجُودة في المصْحَف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ بأنَّ الحركةَ أُزِيلَت من التاء، فصارَتْ ساكِنَةً، فلما صارت ساكنة حُرِّكَتِ الخاءُ بالكَسْرِ لالتقاءِ السَّاكِنَينِ على الأصل.

فالمهِمُّ: يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أي: وهم في غفلة عنها بتَخَاصُمٍ وتَبَايُعٍ وأَكْل وشُرْبٍ وغير ذلك.

فالصَّيْحَة إذن أَخَذَتْهُم على غِرَّةٍ، وهم غافلون عنها، لاهُون بأُمُورهم ودُنْيَاهُم، يتخاصَمُ بَعْضُهم مع بعضٍ، وهذا يدلُّ على عدم ائتلافِ قُلُوبِهِم في تلك السَّاعَـةِ، وأنَّهُم من جِنْسِ البَهَائِم؛ ولهذا لا تقومُ السَّاعَةُ إلَّا على شِرَارِ الخَلْقِ، ولم يذْكُرِ الله عَزَّوَجَلَّ سـوى التَّخَاصُمِ كأنَّ أكْثَـرَ ما هُمْ عليه في ذلك الوَقْـتِ هو التَّخَاصُم والتباغُـض والتَّدَابُرُ؛ لأنَّهُم ليس عندهم إيمانٌ؛ فهم شِرَارُ الخَلْقِ في معامَلَةِ الله، وشِرَارُ الخَلْقِ

---

(١) المحشي هو: الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤هـ رَحِمَهُ اللَّهُ وحاشيته هي: (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية).

في التَّعامُلِ فيما بينهم، وفي قراءة «يَخْصِمُونَ» كيَضْرِبُون؛ أي يَخْصِمُ بَعْضُهم بعضًا، فيكون الظُّهورُ للغَالِبِ في الخُصُومَةِ لا للحَقِّ؛ لأنَّهُم في هَرَجٍ ومَرَجٍ، وليس عندهم إيمانٌ، ولا مُرُوَّةٌ، ولا خُلُقٌ، هم شِرَارُ الخَلْقِ، فكانت هذه -والعِيَاذُ بالله- حالهُم عند قيامِ السَّاعَةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثْباتُ عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ وسَمْعِه؛ لأن قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ جوابُ قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تهديدُ هؤلاء المُكَذِّبين بهذه الصَّيْحَة التي تأخُذُهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قُدْرَةُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيثُ يأخُذُ هؤلاء كُلَّهُم بصَيْحَة واحدةٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهنا أَكَّدَ الصَّيْحَة بـ(واحدة) لِيُبَيِّنَ أنَّه لا يُعِيدُها مرَّة ثانيةً، بل بأوَّلِ مرَّةٍ يُؤْخَذُون.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هذه الصَّيْحَة تَأْتِيهم بَغْتَةً؛ لِقَوْلِه: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ غافلون عنها.

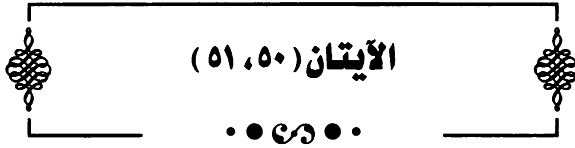
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَانُ حالِ هـؤلاء الذين تقـوم عليهِمُ القِيَامـة، وتأخُذُهم الصَّيْحَة، وهي الخُصُومة والتَّنَازُعُ؛ مِمَّا يدلُّ على سُوء أحْوَالِهِم، وسُوء أخْلاقِهِم، وأنَّه لا هَمَّ لَهُم إلا هذه المخَاصَمَةُ والمنَازَعَةُ؛ شُحًّا وطَمَعًا في الدُّنْيَا، وغَفْلَةً عن الآخِرَة؛ ولهذا جاءَ في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن، باب قرب الساعة، رقم (٢٩٤٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وهؤلاء مِنَ المعلومِ أنَّهُم يأكُلُون ويَشْرَبُون، لكِنْ لم يذْكُرِ الله إلا هذا التَّخَاصُمَ لبيانِ سُوءِ حَالِهِم في ذلك الزَّمَن.





الآيتان (٥٠، ٥١)

• ● ○ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس:٥٠-٥١].

• ● ○ ● •

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إذا أَخَذَتْهُم لم يتجاوزوا مكانَهُم، بل لا يَسْتَطيعونَ الكلامِ لشِدَّةِ ما هم فيه من الفزَعِ. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: لا يَسْتَطيعون أن يُوصُوا إلى أَهْلِيهم، وإلى صِغَارِهم، وإلى سُفَهَائِهم؛ لأنَّ الأمر عَظِيمٌ لا يتكلَّمون فيه ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنَّهُم لا يَتَجَاوَزُون مكانَهُم، فلا هُمُ الذين وَصَلُوا إلى أَهْلِيهِم وشَاهَدُوهم، ولا هُمُ الذين استطاعوا أن يُوصُوا فيهم أحدًا، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمْرَ الذي أَخَذَهُم أمْرٌ عَظِيمٌ، وهو كذلك؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الصُّور: [وهو القَرْنُ، النَّفْخَة الثَّانِيَة للبَعْثِ، وبَيْنَ النَّفْخَتَينِ أَرْبَعونَ سَنَةً] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النَّفْخُ في الصُّورِ يَذْكُرُه الله عَزَّوَجَلَّ دائمًا بالبِنَاء لِلمَجْهُول (نُفِخَ)؛ لأنَّ الإبْهَام أبلَغُ في التَّهْوِيل والتَّعْظِيم مِمَّا إذا ذُكِرَ الفَاعِلُ.

ولهذا تَجِدُ قولَ الله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨] أَبْلَغَ مِمَّا لو بيَّن هذا الذي غَشِيَهُم، فالإبهام أحيانًا يُفِيدُ التَّهويلَ والتَّعظِيمَ، وهنا أَبْهَمَ النَّافِخَ وفي كل الآياتِ النَّافِخُ مُبْهَمٌ لِبيانِ عِظَمِ هذا الأمْرِ، وقد ثبت عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الذي وُكِّلَ بالنَّفْخِ في الصُّورِ هو إِسْرافِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحَدُ حَمَلَةِ العَرْشِ، وقد ذكر الله تعالى النَّفْخَ في الصُّور في هذه الآيَةِ وفي سُورَة الزُّمَر، وفي سورة النَّمْل، وفي سورة الأَنْعَامِ وغيرها.

وقد اختلَفَ العُلَمَاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في النَّفَخَاتِ هل هن ثَلاثٌ أو هُمَا اثْنَتَانِ؟

فمِنْهُم من قال: إِنَّهُن ثلاثٌ.

النَّفْخَةُ الأولى: فَـزَعٌ، والنَّفْخَةُ الثَّانِيَة: صَعْـقٌ ومَـوْتٌ، والنَّفْخَةُ الثَّالِثَةُ: بَعْـثٌ.

وفي سورة الزُّمَر قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] فذكـر اثنتيـنِ، وفي سورة النَّمْل ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]. ثم ذَكَرَ يومَ القِيَامَة وطوى ذِكْرَ الثَّانِيَةِ، فيكون هذا الفَزَعُ قَبْلَ المَوْتِ، ثم الموْت ثم البَعْث.

ومنهم من قال: إِنَّهُما اثنتانِ.

والظَّاهِرُ أَنَّهُما اثنتانِ فقط، لكنَّ الأُولَى منهما فيها فَزَعٌ وصَعْقٌ، والثَّانِيَة فيها بَعْثٌ، وهذا ظاهِرُ ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: [النَّفْخَةُ الثَّانِيَة للبَعْثِ].

﴿فِي ٱلصُّورِ﴾ الصُّورُ قَرْنٌ عظيمٌ واسِعٌ، ورد في الحديـث: أنَّ سَعَتَهُ كما بيْنَ

السَّمَاءِ والأَرْض[1]، يُنْفَخُ فيه للبَعْثِ فتَخْرُج الأرواحُ منه، وتأْوِي كلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها الذي تَعْمُرُه في الدُّنْيَا لا تُخْطِئُهُ على كثْرَةِ الأَرْوَاح الخارِجَة من هذا الصُّورِ، حتى لو قُدِّرَ أن عَشَرَات النَّاس دُفِنُوا في مكانٍ وَاحِدٍ فإنَّ رُوحَ كُلِّ وَاحِدٍ لا تَأْوِي إلا إلى جَسَدِه؛ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾: ﴿فَإِذَا هُم﴾ الفاء عاطفة و(إذا) حرفٌ دالٌّ على المفاجَأَةِ و﴿هُم﴾ مبتدأٌ وجُمْلَة ﴿يَنسِلُونَ﴾ خَبَرُه و﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقَةٌ بـ﴿يَنسِلُونَ﴾، ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي: بمُجَرَّدِ ما يَحْصُل النَّفْخُ لا يَحْصُل وَقْتٌ بينَ النَّفْخِ في الصُّور والخُرُوج من القُبُور ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور يخرجون إلى الله تعالى مُسْرِعِين.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ الضَّمِيرُ في ﴿هُم﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي المَقْبُورُونَ] وعلمنا أنَّ المرادَ المَقْبُورُون؛ لِقَوْلِه: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ لأنَّ الأجْدَاث هي القُبُور، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ هذا بناء على الأغْلَبِ الكَثِيرِ؛ لأنَّ من النَّاس من لا يكونُ في جَدَثٍ بل يُلْقَى في اليَمِّ، أو يُلقَى في الأَرْضِ على ظاهِرِهَا، أو تأكُلُه السِّبَاع، أو يَحْتَرِق وتَذْرُوه الرِّيَاحُ، لكنَّ الغَالِبَ والأكْثَرَ أنَّهم في القُبُور، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيها تَقْديمُ المعمولِ لإفادة الحَصْر، يعني لا يَنْسِلُون إلى دُنيا، أو إلى قَرِيبٍ، أو إلى صَدِيقٍ، وإنَّما يَنسِلُون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والنَّسلانُ معناه: السَّيْرُ بِسُرْعَةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦] أي: يَخْرُجُون بسُرعَةٍ.

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٨٤)، والطبراني في الأحاديث الطوال رقم (٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة رقم (٣٨٦)، والبيهقي في البعث والنشور رقم (٦٠٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ النَّفْخَ في الصُّور إذا وَقَعَ لم يستَطِعْ أَحَدٌ أن يتكَلَّم ولا أن يتزحْزَحَ من مكانه؛ تؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ هذا الكَلامُ ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يَتَزَحْزَحُون من مكانِهِم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُوَّةُ هذه الصَّدْمَة التي تُصِيبُهُم من هذه الصَّيْحَة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا قَوِيَتِ الصَّدْمَة أُعْجِمَ على لِسَانِه فصار لا يَقْدِرُ على التَّكَلُّم، وكذلك رِجَلاه تَضْعُفَ حتى لا يَسْتَطيع الوقوفَ كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قِصَّةِ وفاةِ رَسُولِ الله ﷺ لما سَمِعَ قولَه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] قال: «وَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وكذلك يدلُّ على عِظَمِ هذه الصَّيْحَةِ أنَّهُم لا يَسْتَطيعونَ الرُّجُوع إلى أهليهم مع شِدَّةِ تَشَوُّقِهِم إليهم، لكِنْ لا يَسْتَطيعونَ؛ لأنَّ الأمْرَ أعْظَمُ من أن يتمكَّنُوا من ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ النَّفْخِ في الصُّور، وهو من الأُمُور الغَيْبِيَّةِ التي يَجِبُ علينا أن نُؤْمِنَ بها دون التَّعَرُّض لكيفِيَّتِها.

فلو قال قائلٌ: كيف يكون النَّفْخُ في الصُّور؟

قلنا: هذا أمر لا نَعْلَمُه، إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه غَيْبِيٌّ ولم يُخْبَر بكَيْفِيَّتِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تمامُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ حيث كان مُجَرَّدُ النَّفْخِ يُوجِبُ أنْ يَخْرُج

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٤).

النَّاسُ جميعًا من قُبُورِهِم مُسْرِعينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ البَعْثِ وأنَّه حياةٌ حقيقيةٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿يَنسِلُونَ﴾ لأنَّ الإسراعَ لا يكون إلا بحياةٍ حقيقِيَّةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ النَّاس يُسْرِعُون إلى مكانٍ مُعَيَّنٍ يَنْزِلُ الله تعالى فيه للْفَصْلِ بينَ عِبَادِهِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الإشارَةُ إلى الأَجْدَاثِ التي جعلها الله تعالى مَنَازِلَ للأمْوَاتِ، امْتَنَّ الله بها على عِبَادِه، كما امْتَنَّ عليهم بالقُصُور في الدُّنْيَا، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦]. فكما أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منَّ علينا بهذِهِ القُصُور نَسْتَتِرُ بها ونَقْضِي بها حوائِجَنا ونكون مع أهْلِنَا فكذلك منَّ علينا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالقُبُور التي يَسْتَتِر بها الإنْسَانُ عن الرُّؤْيَة، ويَحْتَمِي بها عن الوُحُوش، إلى غيرِ ذلك ممَّا تَتَضَمَّنُه هذه النِّعْمَة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ الرُّبُوبِيَّة العامَّة؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهذه عامَّة لكل من يَخْرُج من الأجْدَاثِ، وقد مرَّ علينا أنَّ الرُّبُوبِيَّة تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَينِ: عامَّةٍ وخاصَّةٍ.



الآيـة (٥٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(يا) للتَّنْبِيهِ (وَيْلَنَا) هلاكَنَا، وهو مَصْدَرٌ لا فِعْلَ له مِنْ لَفْظِهِ ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ لأَنَّهُم كانوا بين النَّفْخَتَيْنِ نائمينَ لم يُعَذَّبُوا].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا للتَّنْبِيه. بناءً على أنَّ الوَيْلَ ليس له عَقْلٌ وإرادَةٌ، وإذا وُجِّـهَ النِّدَاء إلى من ليس له عَقْلٌ ولا إرَادَة كان للتَّنْبِيهِ.

ولكن لو قيل: إنَّ (يا) للنِّدَاء بدليلِ أنَّها عَمِلَـت فيمـا بعدها؛ لأن (وَيْلَنَا) منصوبٌ بـ(يا) النِّدَاء، كأنَّه قال: يا وَيْلَنَا احْضُرْ، فهذا نظيـر قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦]، ونظير قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾.

والويل هو الهَلاكُ، وهو مصدَرٌ ليس له فِعْلٌ من لَفْظِه، كما تكون بعضُ أسْمَاء الأَجْنَاسِ ليس لها مُفْرَد من لَفظِها، كإبِلٍ ليس لها مفـرَدٌ من لفْظِهَا، وتكون بعضُ الأفعال ليس لها مصدَرٌ مثل (يَذَرُ) فإن أَكْثَرَ النَّحْوِيِّينَ يقولون: إنَّه ليس لها مَصْدَرٌ. وبعضهم يقول: لها مَصْدَرٌ وهو الوَذرُ.

﴿مَنۢ﴾ للاسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبِي؛ أي: ما الذي أَخْرَجَنا؟

﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ والمَرْقَدُ مكانُ الرُّقَادَة، والمرَادُ بها القُبُور؛ أي: مَنْ بَعَثَنَا من هذه

الأَمْكِنَة التي كنَّا رَاقِدِينَ فيها. واختلفَ العُلَماء في هذا: هل أَنَّهُم يَرْقُدُون ثم يَسْتَيْقِظُون عند النَّفْخَة الثَّانِيَة، أو أنَّ وُجُودَهُم في القُبُور بالنِّسْبَة إلى ما يُشَاهِدُون في القِيَامَة كأَنَّه رُقُودٌ؛ لأنَّ الشَّيْء إذا نُسِبَ إلى ما هو أعْظَمُ منه صَارَ هيِّنًا؟

القولُ الأخير هو الأَصَحُّ، وهو الذي مشى عليه ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره[(١)]؛ لأَنَّه ليس هناك دليلٌ على أَنَّهُم ينامُون بين النَّفْخَتَينِ كما ذكره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [لأَنَّهُم كانوا بينَ النَّفْخَتينِ نائِمِينَ لم يُعَذَّبُوا] وهذا يَحتاجُ إلى نَقْل صحيحٍ؛ لأَنَّه من أُمُور الغَيْبِ، والمَرْقَد قد يكون للإنسانِ وإن كان يَتَأَلَّمَ بعضَ التألُّمِ، فها هو الإنسانُ ينامُ ويرى في مَنَامِه أحْلامًا مُزْعِجَة مُرَوِّعَة حتى إنَّه من شدَّتِها في بَعْضِ الأحيانِ يسْتَيْقِظُ، ومع ذلك فإنَّه إذا قام يُقَالُ: قام من مَرْقَدِهِ.

فالصَّوَابُ أنَّ المَرْقَد هنا مكانُ الرُّقَاد، وأنَّ عَذَابَهُم في قُبُورِهم بالنِّسْبَة لعَذابِ الآخِرَة كالرُّقَادِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَٰذَا﴾ أي: البَعْثُ ﴿مَا﴾ أي: الذي ﴿وَعَدَ﴾ به ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ﴾ فيه ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أقرُّوا حين لا يَنْفَعُهُم الإقرارُ، وقيل: يُقَالُ لهم ذلك].

هذه الآية فيها سكْتَةٌ ينبغي الوُقُوفُ إن لم يَجِبْ على قوله: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾ عند بَعْضِ القُرَّاء؛ لأجْلِ أنْ يَسْتَأْنِفَ، فيُقَالُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وهذه الجُمْلَة قيل: إنَّها تُقَالُ جوابًا لهم حينَ قالوا: من بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنا؟

وقيل: إنَّها مِنْهُم يُقِرُّون، إذا شاهدوا أقَرُّوا فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥١٧).

وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. والآيَةُ مُحْتَمِلَة: يُحتَمَل أنَّهُم يَقُولونَ ذلك، ويُحتمَل أنَّه يُقَالُ لهم، وفي سورة الصَّافَّات قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات:٢٠-٢١] فظَاهِرُ هذه الآية أنَّ القَائِلَ هم هؤلاء وأنَّ بَعْضَهم يقولُ لبَعْضٍ: هذا يومُ الفَصْلِ الذي كُنْتُم به تكَذِّبونَ. فآيَةُ الصَّافَّات أظْهَرُ مِن هذه الآيةِ مِنْ سُورَةِ يَس.

ولو قال قائلٌ: هل يمكِنُ أن يكونَ القَوْلُ صادرًا مِنْهُم وإليهم؟

فالجواب: أنَّ هذا ليس بِبَعيدٍ، وإن كان الإنسانُ لا يكادُ يَجْزِمُ به.

﴿هَـٰذَا﴾ المشارُ إليه البَعْثُ ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ ما اسم مَوْصُول، والصِّلَةُ قَوْلُه: ﴿وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ وقدَّرَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ العائِدَ بِقَوْلِه [به] والمعْرُوفُ أنَّ العائِدَ المَجْرُورَ لا يُحْذَفُ إلا إذا كان عَامِلُ المَوْصُولِ موافقًا لعَامِلِ المحْذُوفِ لفظًا ومعنًى، هذا هو المعروفُ عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ، ولكِنَّ الرَّاجِحَ أنَّه يَجُوزُ حَذْفُ العَائِدِ، سواءٌ كان عامِلُهُ من جِنْسِ عامِلِ المَوْصُولِ، أو مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ، وأنَّ القاعِدَة التي ذكرها ابنُ مالِكٍ بقوله[1]:

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ

عامَّة لكُلِّ شَيْءٍ، ليست خَاصَّة بالمبتَدَأ والخَبَر، بل لكُلِّ شَيْءٍ.

وقوله: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ اسمٌ من أسْماء الله عَزَّوَجَلَّ المخْتَصَّةِ به، التي لا تُطْلَقُ على غَيْرِه فلا يُسَمَّى أحَدٌ (الرَّحْمَن) أمَّا رَحِيمٌ فيُوصَفُ به الخَلْقُ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

---

(١) الألفية (ص١٨).

حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] لكن رَحْمن لا يجوزُ أن يُوصَفَ بِهِ أَحَدٌ، والفَرْقُ بين الرَّحْمن والرَّحِيم: أنَّ الرَّحيمَ باعْتِبَارِ الفِعْل، والرَّحْمَنَ باعتِبَارِ الوَصْفِ، فإذا قال: (الرَّحْمَن) يعني ذو الرَّحْمَةِ الوَاسِعَة، والرَّحيمُ الذي تَصِلُ رَحْمَتُه إلى من يشاء من عبادِهِ.

وهنا ذَكَرَ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ولم يَقُلْ: (ما وَعَدَ الله)؛ لأنَّ رَحْمَةَ الله يومَ القِيامَة تتجَلَّى تَجَلِّيًا أكثَرَ منها في الدُّنْيا؛ فإنَّ للهِ تعالى مِئَةَ رَحْمَةٍ جعَلَ منها رَحْمَةً في الأَرْض، فإذا كان يومُ القِيامَةِ صارَ له مِئَة رَحْمَةٍ، التِّسعَة والتِّسْعون الباقِيَة، والرَّحْمَةُ الأولى، وهذا يدلُّ على تَجَلِّي رَحْمَة الله تعالى في ذلك اليوم؛ ولهذا قال هنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

والرَّحْمَنُ مُشْتَقٌّ يدلُّ على صِفَة الرَّحْمَة، ويَجِبُ علينا في أسْماءِ الله تعالى أن نُؤْمِنَ بالاسْمِ، وما دلَّ عليه من الصِّفَة، والأَثَر المترتِّب على ذلك، ويجوز أن نَقُول والحُكْم، فهنا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ اسْمُه، والرَّحْمَة صِفَتُه، ويَرْحَمُ من يشاء فِعْلُه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وهو أَثَرُ الرَّحْمَة، قال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وعَدَ الرَّحْمن بأنَّه سيكون يومَ يَبْعَثُ فيه النَّاسَ، فيَجْزِي فيه المحسِنَ بإحْسَانِه، والمسِيءَ بإساءَتِه، ومُجَازَاة المحْسِن الحَسَنَة بعَشْرِ أمثالِهَا إلى سَبْعِ مِئَة ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أخبر بالصِّدْق (وصَدَقَ القَائِلُ) بِمَعْنَى التَّصديقِ من المخاطَبِ، فالصِّدْقُ من المتكَلِّم، يُقَالُ: صَدَق، ويُقَالُ: صدق بِمعنَى أَخْبَرَ بالصِّدْق. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢] وصدَقَ القَائِل، أي: أَقَرَّ بقَوْلِه واعْتَرَفَ به، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر:٣٣] فهو صَادِقٌ وصِدِّقٌ، والله أعلم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هَذِه الآيَةِ دَلِيلٌ على شِدَّة حَسْـرَة المُكَذِّبين الذين يكَذِّبون بالبَعْثِ إذا بُعِثُوا، يقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ ودليلُ ذلك قولُهُم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ وهذه الكَلِمَةُ دُعَاء بالثُّبُور والحَسْرَة على من نَطَقَ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ عذابَ البَرْزَخِ بالنِّسْبَة إلى عذابِ الآخِرَة هَيِّنٌ، حتى إنَّه مِثْلُ النَّوْمِ عِنْدَ النَّائِم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ البقاء في القُبُور ما هو إلا كَنَـوْم النَّائِم، ثم يستيقِظُ ويغَادِرُ المكانَ؛ لِقَوْلِه: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَوْبيخُ هؤلاء المُكَذِّبين حين يُقَالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله تعالى صادِقُ الوَعْدِ لا يُخلِفُه؛ وذلك لأنَّ إخْلافَ المَوْعِدِ يكون لأَحَدِ أَمرينِ: إمَّا الكَذِب، وإمَّا العَجْز، وكلاهُما مُنْتَفِيانِ عن الله عَزَّوَجَلَّ فلا كَذِبَ في وَعْدِه، ولا عَجْزَ عن تَنْفِيذِه؛ ولهذا فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا يُخْلِفُ الميعادَ لِكَمالِ صِدْقِه وقُدْرَتِه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: صِدْقُ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام فيما يُخْبِرُون به عن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وعَنْ غَيْرِه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المُشْرِكين يُقِرُّون إذا شاهدوا الحَقَّ بأنَّ ما وعد الله تعالى به فَسَيَقَعُ بناءً على أنَّ قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ من كلامِهِم، والإقْرارُ بالحَـقِّ بعد مُشاهَدَتِه لا ينفَعُ؛ لأنَّ الإقرارَ بالحَقِّ إذا لم يكنْ غَيْبًا لم يكن الإنسانُ مؤمنًا بالغَيْبِ، بل يكون مؤمِنًا بالشَّهادة.

فإن قلْتَ: قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣] فهنا أَنْكَرُوا الشِّرْكَ مع أَنَّهُم كانوا مُشْرِكين، بل إِنَّهُم يُقِرُّون بِشِرْكِهِم كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٤٢] فكيفَ الجَمْعُ؟

الجَمْعُ بَيْنَهُما أَنَّه يُقَالُ: إنَّ يومَ القِيَامَة ليسَ لَحْظَةً ولا ساعةً قليلةً بل هُو خَمْسُون ألفَ سَنَةٍ، فهم يتقلَّبُون؛ أحيانًا يُقِرُّونَ بكُلِّ ما عملوا، وأحيانًا يُنْكِرُون، إذا رَأَوْا نَجَاةَ المؤْمِنِ قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ لعلَّهُم يَنْجُون كما نجا غيرُهُم، ولكن يُخْتَمُ على أفواههم وتَتَكَلَّمُ أَيدِيهِم وأَرْجُلُهُم، وحينئذ يُقِرُّون ولا يَكْتُمُون الله حديثًا، والله أعلم.



الآيــة (٥٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣][١].

• • • •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هَذِه الآيَةِ دَلِيلٌ على كمال قُدْرَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وأنَّه يُصاحُ بأَصْحَابِ القُبُور صَيحَةٌ وَاحِدَةٌ، فيَخْرُجون جميعًا لا يتخَلَّفُ منهم أحَدٌ؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إذا أَمَرَ بشَيْءٍ لا يُعيدُ الأمْرَ مرَّةً ثانِيَةً، بل يكون الشَّيْءُ بأوَّلِ أَمْرٍ، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] والذي يُعِيدُ الأَمْرَ والكَلامَ هو العَاجِزُ، وأمَّا القادِرُ فلا يُعِيدُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارةُ إلى أنَّ الله تعالى يَنْزِلُ للقَضَاءِ بيـن عِبادِهِ، تُؤْخَذُ من قوله: ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: عندنا، والعِنْدُ يدلُّ على القُرْبِ، وقد ثَبَتَ بالنُّصُوص أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَنزِل للقَضَاءِ بين عِبَادِهِ فيَقْضِي بينهم.

• • ❁ • •

---

(١) لم أجد تفسير هذه الآية فيما بين يدي من أشرطة مسجلة.

الآية (٥٤)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس:٥٤].

(اليَوْم) أي: يَوْم القِيامَة حين يَحْضُرُ النَّاس للفَصْلِ والقضاء، فـ(أل) هنا للعَهْدِ الحُضُورِيِّ؛ أي: ففي حَضْرَتِهِم ذلك اليوم حينما يَحْضُرُون ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تُنقَصُ، والنَّقْصُ يكون بأحَـدِ أمرَينِ: إمَّا بزيادة السَّيِّئاتِ، وإمَّا بنَقْصِ الحَسَناتِ، وكِـلَا الأمرَينِ مُنتَفٍ؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢] أي: لا يخاف هَضْمًا من حَقِّه من الحسنات، ولا ظلمًا بزيادة السَّيِّئاتِ، يقول: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ ونَفْسٌ نَكِـرَةٌ في سياقِ النَّفْيِ، فتشمَلُ كُلَّ نفسٍ، حتَّى الكَافِرِ يكون عذابُهُ على حَسَبِ عَمَلِه.

ولهـذا قال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تُكَافَـؤُونَ على أعْمَالِكُم إلا ما كُنتم تعمَلُونَ، قال المُفسِّر: [لا تُجْزَوْنَ إلا جَزَاءَ ما كُنْتُم تعملون] إنَّما قدَّرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (جَزَاءَ) لِئَلَّا يتسلَّطَ الفِعْلُ على نَفْسِ العَمَلِ، والعَمَلُ قد مضى وانقضى، والذي يوجَدُ في يوم القِيامَة هو الجـزَاءُ؛ ولهـذا قال: [إلا جَزَاءَ ما كُنْتُم تعملـونَ] لا نَفْسَ العَمَلِ؛ لأنَّ العمل إنَّما كان في الدُّنْيَا وليس في يومِ القِيامَة، والذي في يـوم القِيامَة هو الجَزَاءُ؛ فلهذا قدَّرَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [إلا جَزَاءَ ما كنتُم تَعْمَلُون].

فإن قال قائلٌ: كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: أفلا يكونُ مُنتَقَدًا؛ لأنَّه كالاسْتِدْرَاكِ على كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالجَوَابُ على هذا: أن يُقالَ ليس بِمُنْتَقَدٍ، وليس مقْتَضَاه الاستِدْراكَ على كلامِ الله؛ لأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يُفسِّرَ المعنى المرادَ، ولم يُردْ أنَّ في الكلامِ نَقْصًا، وقد عُلِمَ في البلاغة أنَّ الإيجازَ نوعان: إيجازُ حَذْفٍ، وإيجاز قَصْرٍ، وإيجازُ الحَذْفِ معناه أن تكونَ الجُمْلَة فيها شَيْءٌ محذُوفٌ يُعْلَمُ من السِّيَاقِ، وإيجاز القَصْرِ أن تكون الجُمْلَة ذاتَ كَلِمات يَسيرةٍ، ولها معانٍ كثيرةٌ، فعلى كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكون في الكلام إيجازُ حَذْفٍ.

فإذا قال قائلٌ: إنَّ هذا التَّرْكِيب الذي ذكره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه شَيْءٌ من الرَّكَاكَةِ [لا تُجْزَوْنَ إلا جزَاءَ ما كُنْتُم تعْمَلُونَ].

فالجوابُ: نعم، القُرْآنُ أَفْصَحُ بِلا شَكٍّ، وأَبْيَنُ، وأَسَدُّ؛ لأنَّ التَّعْبيرَ عن الجَزاء بالعَمَلِ أبْلَغُ في التَّأْثِيرِ على النَّفس، فإذا عَلِمَ الإنسانُ أنَّه لا يُجْزَى يومَ القِيامَة إلا عَمَلَهُ، فإنَّه سَوْفَ يزدَجِرُ عن المحرَّماتِ، وسوف يَقْوَى على فِعْلِ المَأْمُورَاتِ؛ لأنَّه يعلم أن عَمَلَهُ هذا نَفْسَه هو الذي سيُجْزَاه يومَ القِيَامَة، فالذي يظهر لي أنَّ الكلام لا يحتاجُ إلى هذا التَّقْدِير الذي ذَكَرَه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لأنَّ جَعْلَ العَمَلِ هو الذي يُجْزَى به الإنسانُ أَبْلَغُ في إثارَةِ النَّفْسِ كما قرَّرْنَاهُ، وقوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: هذا في الدُّنْيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ خبَـرُ كان، وتحتاجُ الجُمْلَةُ إلى عائِدٍ يَعُود على الموصوفِ (ما)؛ لأنَّه قد تَقَرَّرَ في عِلْمِ النَّحْوِ: أنَّ كُلَّ اسمِ مَوْصُولٍ يحتاجُ إلى عائِدٍ يرْبِطُه بصِلَتِه، كما أنَّ كلَّ خَبَرَ للمبتَدَأ يكون جُمْلَةً يَحتاجُ إلى رابطٍ يَرْبِطُ بين الجُمْلَة الخَبَرِيَّة وبين المبتَدَأ التي هي خَبَرٌ عنه، هنا نقول: إنَّ العائِدَ محْذُوفٌ أي: ما كنتم تعمَلُونَهُ، والعَمَلُ يُطلَقُ بلا شَكٍّ

على فِعْل الجَوَارِحِ، ويُطْلَقُ على القَوْلِ، ويُطلَقُ على عَمَلِ القَلْـب، وهو الرُّكُون إلى الشَّيْء، والاطْمِئْنَان به، فإذا أُطْلِقَ العَمَل شَمِلَ هذه الثَّلاثَة: عَمَلُ القَلْبِ: وهو رُكُونُه إلى الشَّيْء ورِضَاه وطُمَأْنِينَتُه به، قَوْلٌ: بمعنَى عَمَل اللِسَانِ، فِعْلٌ: عَمَلُ الجَوَارِح، هذا إذا أُطْلِقَ العَمَل، أمَّا إذا قيل: عَمَلٌ وقَوْلٌ، أو قيل: اعتِقَادٌ وعَمَل، فإنَّ العَمل يُفَسَّرُ هنا بعَمَلِ الجَوَارِح، وهذا يكونُ كثيرًا في اللُّغَة العَرَبِيَّة وفي القُرْآنِ الكَرِيمِ، وهو أنَّ الشَّيْءَ إذا أُفْرِدَ يكون شاملًا، وإذا قُرِنَ بِغَيْرِه صار خاصًّا؛ لأَنَّه إذا قُرِنَ بِغَيْرِه صار الكَلامُ على جِهَة التَّقْسِيمِ، والتَّقْسِيمُ لا بُدَّ فيه من مُقَسَّم، والمُقَسَّم يكون كلُّ قَسِيمٍ منه ضِدَّ القَسِيمِ الآخَرِ.

والخُلاصَةُ الآن: أنَّ المرادَ بالعَمَلِ هنا عَمَلُ القَلْـب والجَوَارِح واللِّسانِ الذي هو القَوْل؛ لأنَّ هذا كُلَّه يُجازَى عليه الإنسانُ يومَ القِيَامَة.

فإذا قال قائل: هل يَشْمَلُ العَمَلُ الكَفَّ؛ أي: إذا تَرَكَ الإنْسانُ المعْصِيَة، هل يُقَالُ: إنَّ هذا عَمَلٌ يُجْزَى عَلَيْه؟

الجواب: نَعَمْ، يُقَالُ: إنَّه عَمَلٌ يُجْزَى عليه؛ ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»**(١) لأنَّ تَرْكَهَا لله، فَمَا وَجْهُ كَوْنِ التَّرْكِ عَملًا؟ لأنَّ التَّرْكَ كَفُّ النَّفْسِ عن جِمَاحِها وإقْدَامِهَا فهو عَمَلٌ، وحينئِذٍ نقولُ: كَلِمَةُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تَشْمَلُ أربَعَةَ أشياءَ؛ هي: عَمَلُ القَلْبِ، واللسان، والجَوَارِح، والتَّرْك. ويُجْزَى عليها الإنسَانُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: انتفاءُ الظُّلْم مُطْلَقًا في يومِ القِيَامَة؛ لأَنَّه يَوْمُ العَدْلِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الإنْسَانَ لا يُظْلَمُ لا بقليلٍ ولا بكثيرٍ؛ لأنَّ ﴿شَيْـًٔا﴾ نكِرَةٌ في سياقِ النَّفْي فتكُونُ للعُمُوم.

فإذا قال قائلٌ: في غير هذا اليومِ هلْ يُظْلَمُ أَحَدٌ؟

فالجَوَابُ: لا يُظْلَمُ، لكنْ ذُكِرَ هذا اليَوْمُ لِبَيَانِ الوَاقِعِ؛ لأَنَّ هذا اليَوْمَ هو يَوْمُ الجَزَاءِ، فكأَنَّه قال: هذا اليَوْمُ الذي هو الجَزَاءُ ليس فيه ظُلْمٌ، ونظِيرُ ذلك قَوْلُه تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الجـزَاء من جِنْسِ العَمَلِ؛ لِقَـوْلِه: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيُسْتَفَادُ منه:

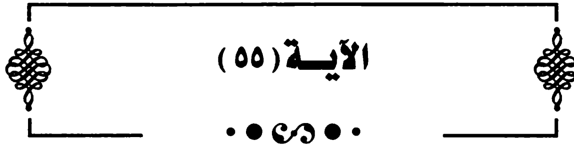
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمَالُ عَدْلِ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه فَائِدَةٌ متفَرِّعَة على الفائِدَة التي قَبْلَها.

فإن قال قائِلٌ: أليسَ الإنْسَانُ العامِلُ الحَسَنَةَ يُجْزَى بعَشْرِ حسنَاتٍ؟

فالجواب: بلى، ولَكِنَّ هذا من الجَزَاء الذي وَعَدَ الله به، فلا يكون مُنَافِيًا لظَاهِرِ الآية؛ لأَنَّ الله تعالى وَعَدَ من جاء بالحَسَنَةِ أن يَجْعَلَ له عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فتكونُ داخِلَةً في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جوازُ التَّعْبِيرِ بالسَّبَبِ عن المسَبَّبِ؛ لأَنَّ العَمَلَ سَبَبٌ للجَزَاءِ، فيكونُ فيه التَّعْبيرُ بالسَّبَبِ عن المسَبَّبِ.





الآية (٥٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس:٥٥].

•••

لَمَّا ذكَرَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ ذَلك اليَوْمَ يُجازَى فيه العامِلُ بعمَلِه، ذكر أصنَافَ العَامِلينَ، وهم صنفان: الصِّنْفُ الأوَّلُ: أصْحَابُ الجنَّة، والصِّنْفُ الثَّانِي: المُجْرِمون.

وأصْحَابُ الجَنَّةِ لم يَذْكُرِ الله تعالى في هذه الآيَةِ عَمَلَهُم، لكنَّه ذَكَرَ في آياتٍ كَثيرةٍ عمَلَهُم الذي يكون سَبَبًا لدُخُولِهِمُ الجنَّة، قال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾: ﴿أَصْحَٰبَ﴾ جمعُ صَحْبٍ، وصَحْبٌ اسْمُ جَمْعِ صاحِبٍ، والصَّاحِبُ هو: المُلازِمُ لمصْحُوبِهِ، ولا يسمَّى الشَّيْء صاحبًا للشَّيْء إلا بَعْدَ المُلازَمَةِ حَسَبَ ما يقتَضِيهِ العُرْفُ، إلا شيئًا واحِدًا استثْنَاه العُلَمَاء، وهو صَحَابَةُ رَسُولِ الله ﷺ، فإنَّ صُحْبَتَه تَثْبُت بمُجَرَّدِ اللِّقَاءِ ولو لِلَحْظَةِ، فكُلُّ منِ اجْتَمَع بالنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولو لِلَحْظَة مُؤْمِنًا به وماتَ على ذلك فهُو صحابِيٌّ له.

﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ تقدَّمَ أنَّها في اللُّغَة العَرَبِيَّة اسْمٌ لِلْبُسْتَانِ الكَثِيرِ الأشْجَارِ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه لِكَثْرَةِ أشْجَارِه يُجَنُّ من فيه وما فيه، ويُجَنُّ بِمَعْنَى يَسْتُرُ؛ لأنَّ هذه المادة (الجيم والنون) كُلَّها تدُورُ على هذا المعنى وهو الاسْتِتَارُ، ومنه سُمِّي الجنينُ؛ لاستِتَارِهِ في بَطْنِ أُمِّهِ، وسُمِّيَ الجِنُّ؛ لاستِتَارِهِمْ عن الأَعْيُن، وسُمِّيَتِ الجُنَّةُ؛ لأنَّ المقَاتِلَ يَسْتَتِرُ بها عن السِّهَام؛ فالجَنَّةُ في اللغة كلُّ بُستَانٍ كَثِيرِ الأشْجَارِ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُجَنُّ

مَنْ فيه من السَّاكِنِ، وما فيه من الأَشْجَارِ الصَّغِيرَة التي تكون تحْتَ الأَشْجَارِ الكَبِيرَة، هذا هو أصْلُ مَعْنَى هذه الكَلِمَة في اللُّغَة، ومعناها شَرْعًا هي: الدَّارُ التي أعَدَّها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى للمُتَّقِينَ: فيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ. ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

ولا يصِحُّ أن تقول: إنَّ الجَنَّة في الآخِرَة هي البُسْتَانُ كَثيرُ الأشْجَارِ، ولو قُلْتَ هكذا لَنَزَلَتْ من قِيمَتِها في نُفُوس النَّاسِ، لكنْ إذا قُلْتَ: هي الدَّارُ التي أعَدَّهَا الله للمُتَّقِين، فيها ما لا عينٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، صار ذلك حافزًا للعَمَل لها، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يومَ القِيَامَة و(أل) هنا للعَهْدِ الذِّكْرِي؛ لأنَّه سَبَقَ ذِكْرُه، و(أل) تكون للعَهْدِ الذِّكْرِي إذا سَبَقَ ذِكْرُ مَدْخُولِها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥-١٦] فإذا كان مَدْخُول (أل) سَبَقَ ذِكْرُه فهي للعَهْدِ الذِّكرِيِّ. ﴿فِى شُغُلٍ﴾ الجارُّ والمَجْرُورُ وهو خَبَرُ ﴿إِنَّ﴾، ﴿فِى شُغُلٍ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [بسُكُونِ الغَيْنِ وضَمِّهَا] شُغْل وشُغُل، والقِرَاءتَانِ سَبعِيَّتانِ؛ لأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ من طريقِهِ أنَّه إذا قال: في قِرَاءَةٍ، وفي قراءَةٍ، فهما متساوِيَتَانِ؛ أي كلتاهُمَا قِرَاءةٌ سَبْعِيَّة، أمَّا إذا قال: وقُرِئَ، فإنَّ هذه القِرَاءَةَ تكون شَاذَّةً، فَلْيُعْلَمْ اصْطِلاحُهُ حتى لا يَشْتَبِهَ. فيَجُوزُ لنا أن نقول: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ﴾ و«شُغْل».

وهل الأَفْضَل أن نَقْتَصِر على قراءةٍ واحِدَة، أو أنَّه نَقْرَأ تارةً بهذه وتارة بهذه؟

الصَّحِيحُ أنَّ الأفْضَل أن نقرأ بهذه تارةً وبهذه تارَةً؛ لأنَّ الكُلَّ ثَبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ ونحن إذا بَقِينَا على قراءةٍ واحِدَةٍ هجرنا بَقِيَّةَ القِرَاءَاتِ على أنَّها شَرعِيَّةٌ ثابتةٌ

عن الرَّسُولِ ﷺ، فالأَوْلى أن نقرأ مَرَّةً بهذه ومَرَّةً بهذه إلا أمَامَ العامَّة فلا تَفْعَلْ ذلك؛ لأَنَّكَ إذا قَرَأْتَ بقراءةٍ مُخالِفَة لِمَا بينَ أَيدِيهِم من المصَاحِفِ فَسَوفَ يكُون في ذلك فِتْنَةٌ، ويكون في ذلك زَعْـزَعةٌ للثِّقَة في كتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، لكنْ إذا كُنْتَ تَقْرَأ لنَفْسِكَ، أو تقرأ بينَ طَلَبَةِ العِلْمِ فالأَفْضَل أن تقرأ بهذا أحيانًا وبهذا أحيانًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في ﴿شُغُلٍ﴾ بِسُكُون الغَيْن، وضَمِّهَا، عمَّا فيه أهلُ النَّار مما يتلَذَّذُونَ به] إذَنْ هُمْ مُنْشَغِلُونَ عمَّا فيه أهلُ النَّارِ، ولو أنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعَلَها مُطلَقة على إطلاقها لكانَ أَوْلَى، فهم في شُغُلٍ عن كلِّ شَيْء بما يتلَذَّذُون به؛ يعني كأنَّهُم لا يُفَكِّرُون في أي شَيْءٍ آخَرَ؛ لأنَّ هذا الذي هم فيه من النَّعِيم قد شَغَلَهُم، وانشَغَلُوا به عن غيرهم، هذا كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨] أي: لا يَبْغُون تَحَوُّلًا أو نُزُولًا عمَّا هُمْ فيه، بل ولا صُعُودًا حتى النَّازِل منهم يرى أنَّه أكْمَلُ النَّاس نَعِيمًا.

فالأَوْلى أن نُطْلِق ونقول: ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أي: إنَّهُم مُشْتَغِلُون بما هم فيه من النَّعِيم عن كل شَيْءٍ، لا يَنْتَظِر أحدُهُم نعيمًا أرقى مِمَّا هو فيه بحيث يرى أنَّ نَعِيمَهُ ناقِصٌ ولا يَلْتَفِت إلى شَيْء أبدًا.

﴿فِى شُغُلٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كافتِضَاضِ الأَبْكَارِ] والكاف للتَّشْبِيهِ، وليس للحَصْرِ، أي: من جُمْلَة ما يَنْشَغِلُون به التَّلَذُّذ بافتضَاضِ الأَبْكَارِ من نساءِ الدُّنْيَا، وكذلك الحُورُ العِينُ، وإنَّما مثَّلَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ قال: [كافتِضَاضِ الأَبْكَارِ لا شُغُلَ يَتْعَبُون فيه؛ لأنَّ الجَنَّة لا نَصَبَ فيها]، أي لا تَعَبَ، فهذا الشُّغُل ليس شُغُلًا يتْعَبُون فيه، ولكنَّه شُغُل يستريحون فيه؛ لأنَّه شُغُل فيما يَسُرُّ وفيما يَحْصُل به التَّنَعُّم، قال: ﴿فَٰكِهُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ناعِمُون،

خَبَرٌ ثانٍ لـ(إنَّ) والأَوَّلُ ﴿فِى شُغُلٍ﴾] أي قوله: ﴿فَـٰكِهُونَ﴾ خبر ثانٍ لـ(إنَّ) والأَوَّلُ ﴿فِى شُغُلٍ﴾ الجارُّ والمجْرُورُ، فتكون (إنَّ) لها خبران، والخَبَرُ يجوز أن يتعدَّدَ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦].

فهذه خَمْسَةُ أخبارٍ، فالخَبَرُ يجوز أن يتعدَّدَ، لكنْ تعدُّدُ الخبر قد يكون لكُلِّ كَلِمَة منه معنًى مُسْتَقِلٌّ، وقد تكون الكَلِمَتانِ في معنى كَلِمَة واحدةٍ، فمثلًا إذا قلْتَ: هذا البُرتقالُ حُلْوٌ حَامِضٌ، فهاتان كَلِمَتان، لكنَّهما بِمَعْنَى كَلِمَةٍ واحدة: (مُزٌّ) أي: جامِعٌ بين الحَلاوَةِ والحُمُوضَة، لكن لو قُلْتَ: فلان قائِمٌ مَسْرُور، فالخبران كلٌّ واحِدٍ منهما بمعنًى مُستَقِلٍّ، بدليل أنَّ أَحَدَهُما ينفرِدُ عن الآخَرِ بمعنًى مستقِلٍّ.

والخُلاصَةُ: أَنَّنَا فَهِمْنا من كلام المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الخَبَرَ يجوز أن يتعدَّدَ سواء كان مَنْسُوخًا كما في الآية، أم غيرَ مَنْسُوخٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ النَّاس يَنْقَسِمُون في ذلك اليومِ إلى قِسْمَين: قِسْمٍ هم أَصْحَابُ الجَنَّة، وقِسْمٍ هم أَصْحَابُ النَّارِ؛ أَصْحَابُ الجَنَّة هذا جزاؤُهُم ﴿فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كمالُ النَّعِيم؛ لأَنَّه كُلَّما كَمُلَ النَّعيمُ كَمُلَ التَّفَكُّه بهذه النِّعْمَة التي يتنَعَّمُ بها الإِنْسَانُ.



الآية (٥٦)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٦].

• • ● • •

﴿هُمْ﴾ أي: أصْحَابُ الجنَّة ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ جَمْعُ زَوْجٍ، وتُطْلَق على الذَّكَر والأنثى، فيُقَالُ: هذا زَوْجُ فُلانَة، ويُقَالُ: هذه زَوْجُ فلان، لكنَّ أَهْلَ العِلْمِ قالوا: يجب التَّفْرِيقُ -وإن كان لغةً ضَعِيفةً- في باب الفَرَائِضِ، فيُقَالُ: زَوْجة للأُنْثى، ويُقَالُ: زَوْجٌ للرَّجُل، لِئَلَّا يُشَبَّهَ على المتعَلِّمِ كَوْن المسألَةِ المتوَفَّى فيها زَوْجٌ ذَكَرٌ أو زَوْجٌ أُنْثى، وإلا فاللُّغَة العَرَبِيَّة الفُصْحَى حذفُ التَّاءِ من زَوْج، سواءٌ كان للأُنْثَى أو الذَّكَر.

﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمع ظُلَّةٍ، خبرٌ للمُبْتَدأ هم، أو جَمْعُ ظِلٍّ، والمعنَى لا يختلفُ كثيرًا، فهم في ظِلالٍ ليس عِنْدَهُم شَمْسٌ تَصْهَرُهُم، أو تُسَخِّنُ الجَوَّ، وإنَّما هو أنوارٌ، قال بعض أهل العلم: كالنُّورِ الذي يكون بين طُلُوعِ الفَجْرِ وطُلُوعِ الشَّمْس، فهو نورٌ ساطِعٌ ولكنَّه لطِيفٌ؛ لأنَّ أَلْطَف ما يكون هو مِثْل ذلك الوَقْتِ فهو ظِلٌّ ظَلِيلٌ ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جمعُ أَرِيكَةٍ، وهو السَّرِيرُ في الحَجَلَةِ، أو الفُرُشُ فيها].

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ جَمْعُ الأريكَةِ، هي السَّرِيرُ في الحَجَلَةِ، أو الفِرَاشُ فيها، ولكنَّ الأكثر أنَّها السَّرِيرُ، والحَجَلَة عبارةٌ عن بيتٍ صغيرٍ في وسَطِ البَيْتِ الكَبيرِ؛ أي: إنَّها بمَنْزِلَة الحُجْرَة الخاصَّة بالمنامِ فيما نعْرِفُه بيننا، فالدارُ مثلًا تَشْمَل حُجَرًا كثيرةً مُتَعَدِّدَةً، والحُجْرَة الخاصَّة بالنَّوْم هي مِثْلُ الحَجَلَة؛ خَيْمَةٌ صغيرة تكون خاصَّة بالرَّجُلِ وأَهْلِهِ،

أو بالرَّجُلِ وَحْده، أو بالمرأة وَحْدَها.

﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خبرٌ ثانٍ مُتعَلِّقٌ عَلَى] أي: على الأرائِكِ متعلِّقَة بِمُتَّكِئُون، وعلى كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكون المبتدأُ (هم) و﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ خبرٌ و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ خبرٌ ثانٍ، فالجُمْلَة على كلامه واحدة لكنَّها متعَدِّدَةُ الخَبَرِ: (هم في ظِلالِ متَّكِئُون) و﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ مُتعلِّقَة بمتَّكِئُون، ومناسبة تقديمِهَا على عامِلِهَا: مُرَاعاةُ فواصِلِ الآيات.

والقُرْآنُ الكَرِيمُ يكونُ فيه مراعاةُ الفَوَاصِلِ حتى وإن أدَّى إلى تقديم المفْضُول على الفاضِلِ في سُورَةِ (طه) في قوله: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] فقدَّمَ هارونَ على موسى -مع أنَّ موسى أفضَلُ- مراعاةً للفَوَاصِل؛ لأنَّ الفَوَاصِلَ إذا كانت متَّفِقَة كان لها تأثِيرٌ في الاستماع والإِصْغَاء، والقُرْآنُ أبلَغُ الكَلامِ، هذا ما ذهب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولنا رأيٌ ثانٍ في الإعراب؛ أن تكون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ خبرًا مقدَّمًا و﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ مبتدأً مؤَخَّرًا، وعلى هذا فتكُونُ لدينا جُمْلَتانِ، جُمْلَة ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ والثَّانِيَة: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ وما ذكرناه أعَمُّ؛ لأنَّ ما ذكرناه يشْمَلُ أن يكونوا متَّكِئِينَ على الأرائك مع الزَّوْجَات، أو بدون زَوْجَاتِهم، وعلى كلامِ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقتضي أن يكونوا متَّكِئين على الأرائِكِ مع الزَّوْجَات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ لأهْلِ الجَنَّة زوْجَاتٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ وقد وَصَفَ الله هؤلاء الزَّوْجَات بِصِفَاتٍ كَثِيرةٍ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الرَّحْمَن:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرَّحمن:٥٦]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرَّحمن:٧٠] فقاصِـرَاتُ الطَّرْفِ يعني أنَّها تَقْصُـرُ طَرْفَها على زَوْجِها لا تنْظُرُ إلى غيره؛ لأنَّها ترى أنَّ زَوْجَها أكْمَلُ الأزواجِ فلا يَمْتَدُّ نَظَرُها إلى غيرِه، وهي أيضًا (قاصرات) لِطَرْفِ زوجها عليها، فزَوْجُها لا يَمْتَدُّ بَصَرُه إلى غيرها، فكلٌّ منهما راضٍ بصاحِبِـه، وهنَّ أيضًا ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ خَيْـرَاتُ الطِّبَاعِ، حِسَـانُ الوُجُـوهِ والأَجْسَامِ، وصِفَاتُهُن كثيرةٌ في القُرْآن الكريمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الجنَّة ليس فيها شَمْسٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كمالُ راحةِ أهْلِ الجنَّة؛ لِقَوْلِه: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ فإنَّ المُتَكِئَ عادةً يكون مُسْتَرِيحًا مُطْمَئِنًّا، وكُلَّما اطمأَنَّ الإنْسَانُ ازدادَتْ راحَتُـه، والاتِّكاءُ على الأرائِكِ لا شَكَّ أنَّه دليلٌ على راحة البالِ وعَدَمِ الانْشِغَال.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ لأهْلِ الجنَّة فيها الفَاكِهةَ وهي كُلُّ ما يُتَفكَّه به، وقد ذَكَرْنا أنَّ جَميعَ طَعَامِهِم فاكِهَةٌ يتفكَّهُون بها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ لأهْلِ الجنَّة كلَّ ما يتمَنَّونَه، بل يُعْطَوْن أكثَرَ مِمَّا يَتَمَنَّوْن، وفيها ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هذا القُرْآنَ الكَريمَ مَثَانٍ، تُثَنَّى فيه المعانِي، فيُذْكَرُ الشَّيْءُ ويُذْكَرُ ضِدُّه؛ لأنَّه لو ذُكِرَ ما يكون به الرَّجَاءُ دونَ ما يكونُ فيه الخَوْفُ، لَغَلَبَ جَانِبُ الرَّجَاءِ على جانِبِ الخَوْفِ ووقع الإنْسَانُ في الأَمْنِ من مَكْرِ الله، ولو ذُكِرَ فيه جانِبُ الخَوْفِ دون جَانِبِ الرَّجَاءِ، لَوَقَعَ الإنْسان في القُنُوط من رَحْمَةِ الله، فكان الله عَزَّوَجَلَّ إذا ذَكَرَ النَّعِيمَ ذَكَرَ ضِدَّهُ، وإذا ذَكَرَ أصْحَابَ الجنَّة ذَكَرَ أصْحَابَ النَّارِ وهكذا، وهذا

أَحَدُ معاني قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر:٢٣] يعني أَنَّه تُثَنَّى فيه المعانِي حتى يكونَ اليُسْرُ لله تعالى على الوَجْهِ المطْلُوبِ.



الآية (٥٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس:٥٧].

ثم قال الله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ أي لأصْحَاب الجَنَّة ﴿فِيهَا﴾ أي: الجَنَّةِ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ أي: ما يتفكَّهُون به، وكلُّ أكْلِ أهْلِ الجَنَّة فاكِهَةٌ؛ لأنَّهُم يأكُلُونه على سَبِيلِ التَّفكُّه لا على سبيلِ الحَاجَةِ والضَّرُورة، ففي الدُّنْيَا قد نأكُلُ أحيانًا تفكُّهًا، وأحيانًا للحَاجَةِ، وأحيانًا للضَّرُورَة، أما في الجَنَّة فكُلُّ ما نأكُلُه للتَّفكُّه؛ لأنَّه ليس هناك ضَرُورَة أو حاجة؛ ولهذا يأكُلُ الإنْسَانُ الأَكْلَ ويَخْرُجُ هذا الأَكْلُ رَشْحًا مثل العَرَقِ، أطيَبَ مِنْ رِيحِ المِسْكِ، ولَيْسَ فيها بَوْلٌ أو غَائِطٌ.

فإذا قال قائِلٌ: إذا جُعِلَتِ الفاكِهَة اسْمًا لكُلِّ ما يأكُلُون؛ لأنَّهُم يأكُلُونَه على سَبِيلِ التَّفكُّهِ، فكَيْفَ تُجِيبُ عن قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرَّحْمَن:٦٨] والأَصْلُ في العَطْفِ أن يكون للمُغَايَرَةِ، والنَّخْلُ والرُّمَّانُ يُؤْكَلُ.

فالجوابُ يُعْلَمُ مِمَّا ذكَرْنا آنفًا؛ وهو أنَّ الشَّيْءَ إذا أُفْرِدَ صار له معنًى عامٌّ، وإذا قُرِنَ بِغَيْرِه صار له معنًى خاصٌّ مقابِلٌ لِمَا قُرِنَ معه؛ لأنَّ التَّقْسِيم يقتَضِي أن يكون المقَسَّمُ إليه مِن طَرَف غير المقَسَّمِ إليه من الطَّرَفِ الآخَرِ، فنقول: النَّخْلُ والرُّمَّانُ نُصَّ عليهما بخُصُوصِهِما لخاصِّيَّة فيهما، وإلا فهُما من الفاكهة، فيكونُ هذا من جِنْسِ عطْفِ الخَاصِّ على العَامِّ، وعَطْفُ الخَاصِّ على العامِّ في اللُّغَة العَرَبِيَّة كثيرٌ؛ مثل:

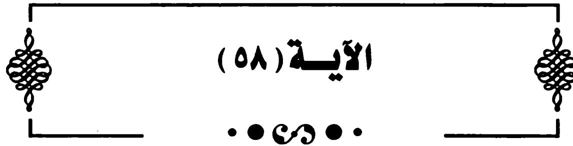
﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] والرُّوحُ هو جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو مِنَ الملائِكَة، ثم قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يَتَمَنَّوْن] كُلُّ ما يَتَمَنَّوْنَه فإنَّه حاصِلٌ، بل إنَّ الله يُعطِيهِم أكثَرَ مِمَّا يَتمنَّون؛ لأنَّ أمْنِيَّة الإنْسَان محدُودةٌ، قد يرى أنَّ هذا أكبَرُ شَيْء، وهناك شَيْءٌ آخَرُ أكبَرُ منه ولكنَّه لا يُدْرِكُه. فالإنْسَانُ في الآخِرَة يُعطَى كُلَّ ما يتمنَّى، بل يُزادُ على ما يتمنَّى.

فإذا قال قائل: هل إذا اشْتَهَى الإنْسَانُ الشَّيْءَ في الجَنَّة يَحْصُل بمُجَرَّدِ هذه الشَّهْوَة، أو لا بُدَّ من الطَّلَب؟

فالجَوَاب: أنَّ هذا أمْرٌ مُحتَمَل، يُحتَمَل أنَّ الإنْسَانَ إذا اشتَهَى شيئًا حَصَلَ له، ويُحتَمَل أنَّه لا بُدَّ أنْ يَدَّعِيَه، والدَّعْوى بِمَعْنَى الطَّلَب، وفائدَةُ الطَّلَبِ إظْهَارُ صِدْقِ الإرادَةِ، كما أنَّ الفِعْلَ يدلُّ على صِدْقِ الإرادَةِ، فلو أنَّ أحدًا من النَّاس قال: أريد أن أزُورَ فلانًا، فإنَّ هذه الإرَادَةَ لا تَظْهَرُ إلا إذا زاره بالفِعْلِ، وإلا فما دامَ لم يَقُمْ بالفِعْل فإنَّ الإرَادَةَ قد تكون غيرَ صادِقَةٍ.

وعلى كلِّ حالٍ: يكْفِينا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقولُ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١] فإنَّ ظَاهِرَ الآيةِ أنَّ كُلَّ ما تَشْتهِيهِ وإنْ لم تَطْلُبْه يَحْصُلُ لَكَ.





الآية (٥٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].

•••

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأٌ ﴿قَوْلًا﴾ أي: بالقَوْلِ، خَبَرُه] على أنَّه منصوبٌ بِنَزْعِ الخافِضِ؛ لأنَّه قال: أي بالقَوْل. والنَّصْبُ بِنَزْعِ الخافِضِ في غَيْرِ (أنَّ) و(أنْ) ليسَ بِمُطَّرِد، بل هو سَمَاعِيٌّ، إنْ سُمِعَ عن العَرَبِ النَّصْبُ عُمِلَ به، وإن لم يُسْمَعْ لم يُعمَلْ به، وقاعِدَة ذلك: أنَّه قد يُحذَفُ حرفُ الجَرِّ، فإذا حُذِفَ حَرْفُ الجرِّ صار مَدْخُولُه منْصُوبًا، ويُقَالُ فيه: منصوبٌ بِنَزْعِ الخَافِضِ، ولكنَّه كما قال ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

.... وَفِي أَنَّ وَأَنْ يَطَّـرِدُ		مَعْ أَمْنِ لَبْسٍ كَعَجِبْـتُ أَنْ يَـدُوا

فالمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى على أنَّ ﴿قَوْلًا﴾ مَنْصُوب بِنَزْعِ الخَافِضِ؛ أي: سلامٌ بالقَوْلِ مِن رَبٍّ رحيم، وهذا أَحَدُ الوُجُوه في الآية الكَرِيمَة، ويجوز أن يكون ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبَرًا لمبتدأٍ مَحْذُوف؛ أي: هِيَ سَلامٌ يعني: الجَنَّةُ سَلامٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥].

ويَجُوز أيضًا أن يكون الخَبَرُ قولَه: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي سلامٌ بالقولِ وَاقِعٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) الألفية (ص٢٨).

وهذه الوُجُوه لا ينافي بعضُها بعضًا من حيث المعنَى، فإنَّ المعنى كلَّه واحِدٌ، وهو أنَّ الله تعالى يُسَلِّمُ عليهم بالقَوْل، ويقول لأهل الجَنَّة: سلامٌ عَلَيْكُم، وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ الرَّبُّ في اللُّغَة العَرَبِيَّة يُطْلَقُ على عِدَّةِ معانٍ:

فيُطْلَقُ على ربِّ العالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ، وهو بِهذا المعنى يشمَلُ الخَلْقَ والمُلْكَ والتَّدْبِير، فالرَّبُّ هو الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ.

ويُطْلَقُ الرَّبُّ على الصَّاحِبِ؛ مثل قولِهم: رَبُّ البَيْتِ، أي: صاحِبُ البَيْت، ومثل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ضَالَّةِ الإبل: «**مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا**»[1]، أي: صاحِبُها.

وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ المرادُ به المعنى الأول؛ يعني: الله تعالى، فاللهُ تعالى هو الرَّبُّ؛ أي: الخالِق المالِكُ المدبِّر، و﴿رَّحِيمٍ﴾ من الرَّحْمَة وهي صِفَةٌ ذاتِيَّة، لم يَـزَلِ الله عَزَّوَجَلَّ ولا يزالُ مُتَّصِفًا بها، لكنَّ أفرادَها تُجدَّد باعتِبَار المَرْحُومِ، فالله عَزَّوَجَلَّ يَرْحَمُ من يشاء، ومَعْلُوم أنَّ المَرْحُوم يتجَدَّد، فرَحْمَة الله تعالى لهذا المَرْحُومِ تتَجَدَّد، أمَّا أصلُ المعنى فإنَّ الله تعالى لَمْ يَزَلْ ولا يَزَالُ رحيمًا، وأهلُ السُّنَّة والجماعة وهُمُ السَّلَف يفسِّرُون (الرَّحْمَة) بمعنًى يليقُ بالله عَزَّوَجَلَّ.

وأهلُ التَّحْرِيف يفسِّرُون (الرَّحْمَـة) إمَّا بالإحْسَانِ، وإمَّا بإرادَةِ الإحْسَان فيقولون: معنى رَحِيم، أي: مُحْسِن، أو مُرِيد لِلإحْسَانِ، قالوا: لأنَّ الله لا يُمكِنُ أنْ يَتَّصِفَ بالرَّحْمَة؛ فإنَّ الرَّحْمَة تدلُّ على الضَّعْـفِ، وعلى الرِّقَّةِ واللِّيـنِ، وهذا لا يليقُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللقطة، باب ضالة الغنم، رقم (٢٤٢٨)، ومسلم: كتاب اللقطة، رقم (١٧٢٢)، من حديث زيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفَسَّرُوها بالإِرَادَة؛ لأَنَّهُم يُثْبِتُون الإِرَادَة، أو بالإِحْسَان؛ لأنَّ الإِحْسانَ مُنْفَصِلٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ وهو مَخْلُوقٌ.

ولا شَكَّ أنَّ هذا تَحْرِيفٌ، والرَّحْمَةُ إن كان يَلْزَم منها الرِّقَّةُ واللِّينُ فهذا باعتِبَارِ رَحْمَةِ المَخْلُوقِ، أمَّا باعْتِبَارِ رَحْمَة الخَالِقِ فلا يَلْزَم منه هذا المعْنَى، على أنَّنَا نَمْنَعُ أنْ يكونَ من لازِمِهَا الرِّقَّةُ واللِّينُ؛ لأنَّا نَجِدُ المَلِكَ القَوِيَّ الشُّجَاعَ يكون فيه رَحْمَةٌ، ولا يَنْقُصُ ذلك من قُوَّتِه وسُلْطَانِه شيئًا، لكنْ لو سَلَّمْنَا جدلًا أنَّها تَسْتَلْزِمُ الرِّقَّةَ واللِّينَ فإنَّما ذلك باعتبارِ رَحْمَةِ المَخْلُوقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هَذِه الآيَةِ الكَرِيمَة دليلٌ على ما يتمَتَّعُ به أهْلُ الجَنَّة من السَّلامَةِ من كُلِّ الآفاتِ، ومن الأمْرَاضِ، ومن المَوْتِ، ومن غيره؛ لأنَّ الله تعالى يَقُولُ لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٤] وهذا اللَّفْظُ الصَّادِرُ من الله عَزَّوَجَلَّ ليس دُعَاءً ولكنَّه خَبَرٌ من الله، وإنَّمَا يكون مِثْلُ هذا دعاءً إذا وَقَعَ من المخْلُوقِ، أمَّا إذا كان من الخَالِقِ فهو خَبَرٌ؛ أي: إنَّ الله تعالى يُخْبِرُهُم بأنَّه سيُسَلِّمُهُم من كلِّ آفةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ أنَّ الله يقولُ ويتكَلَّمُ وهذا حَقٌّ، وقد اختَلَفَ أهل القِبْلَةِ في كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ:

فمِنْهُم من قال: يتكلَّمُ بِحَرْفٍ وصَوْتٍ على وَجْهٍ يَلِيقُ به، ولا يُشْبِهُ صَوْتُه أصْوَاتَ المخْلُوقِينَ.

ومِنْهُم من قَالَ: إنَّه لا يتكَلَّم، ولكِنْ يَخْلُقُ كَلامًا يَنْسِبُه إليه تَشْرِيفًا وتَكْرِيمًا.

ومنهم من قال: إنَّه يتكَلَّمُ، لكنَّ كَلامَهُ ما يُقَدِّرُه في نفسه، وأمَّا ما يُسْمَعُ فهو مَخْلُوقٌ.

فالأَوَّلُ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّة والجَماعَة، والثاني مَذْهَبُ المعْتَزِلَة ومن وافَقَهُم، والثَّالِثُ مَذْهَبُ الأشاعِرَة، وحقيقةُ الأَمْر أنَّ مَذْهَب الأشاعِرَة هو مَذْهَب المعتَزِلَة؛ لأنَّ الكُلَّ منهم متَّفِقُون على أنَّ ما بين أيدينا من المصْحَفِ مَخْلُوقٌ، لكِنَّ الجَهْمِيَّة والمعْتَزِلَة قالوا: هو كلامُ الله، وأولئكَ قالوا: عبارةٌ عن كلامِ الله، فهم أَسْوَأُ منهم في هذه النَّاحِيَة؛ لأنَّ المعْتَزِلَة والجَهْمِيَّة يقولون: إنَّ القُرْآنَ كلام الله، كما قال الله عنه كلام الله ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦] لكنْ هُمْ يقولون ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: الكَلامَ الذي هو عبارةٌ عنْ كَلامِ الله.

والجَهْمِيَّة والمُعْتَزِلَة أقرَبُ إلى الحَقِيقَة من الأشاعِرَة، ولكنْ كُلٌّ منهم في ضَلالٍ مُبينٍ.

والصَّوَابُ أَنَّه كلامُ الله تكَلَّمَ به بِنَفْسِهِ، وسَمِعَهُ منه جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأَلْقَاهُ إلى مُحَمَّدٍ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الرُّبُوبِيَّة، وهي هنا فيما يظْهَر -والله أعلم- من الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة؛ لأنَّ الذي يخاطَبُ به مِن القَوْم المخْلِصِين، والرُّبُوبِيَّة -كما تقدَّم- تنقَسِمُ إلى قِسْمَين: خاصَّة، وعامَّة؛ فالعامَّةُ هي الشَّامِلَة لجميعِ الخَلْقِ، فإنَّ جَميعَ الخلق مَرْبُوبُون لله عَزَّوَجَلَّ، هو خالِقُهم ومالِكُهم، ومدَبِّرُهم، ومنها قولُ الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أَمَّا الرُّبُوبِيَّة الخاصَّة فهي مختَصَّةٌ بعِبادِ الله المخْلَصِين من عِبادِهِ المؤْمِنينَ من الرُّسُل وأتباعِهِم، وهي أَخَصُّ من الأُولَى؛ لأنَّها تقتَضِي عنايةً خاصَّة بالمرْبُوبِ، وتوفيقًا له، وإصلاحًا لحاله، ومنها قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٢] فإنَّ موسى وهارون عليهما الصَّلاة والسَّلام من عبادِ الله المخْلَصِين، فكانت الرُّبُوبِيَّة في حَقِّهِما

خاصَّة، ومنه دعاءُ المؤمنينَ لله عَزَّوَجَلَّ بهذا الاسْم؛ مثل ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران:١٦] فالمرادُ به الرُّبُوبِيَّة الخاصَّةُ؛ لأنَّ التَّوَسُّلَ بالأَخَصِّ أخصُّ بالدُّعاءِ من التَّوسُّلِ بالأعَمِّ، وقد اجتمع القِسْمان في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]. فالأُولى عامَّة، والثَّانِيَة خاصَّة.

والرَّبُّ من أسْمَاء الله؛ دلَّ على ذلك قولُهُ ﷺ: «أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ»[1]، وقولُهُ ﷺ في السِّوَاك: «مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»[2].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الرَّحْمَةِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿رَّحِيمٍ﴾ وكَوْنُ (الرَّحيم) من أسْماء الله لا يَخْفَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفي هذه الآية إشَارَةٌ إلى أنَّهُم إنَّما وَصَلُوا إلى هذه المنزِلَة برَحْمَةِ الله؛ لِقَوْلِه: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ وقد ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» أو قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أنْتَ يا رسُولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[3]. اللَّهُمَّ تَغَمَّدْنَا برحْمَتِكَ، فالرَّسُولُ ﷺ أَخبَرَ أنْ لا أَحَدَ يدخُلُ الجَنَّةَ إلا أن يَتَغَمَّدَهُ الله بِرحْمَتِهِ؛ أي: يُسْبِغُ عليه الرَّحْمَة، فحينئذ يَدْخُلُ.



---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٧)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك، رقم (٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وعلقه البخاري: كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٥٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يس:٥٩].

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويقول: (امتازوا)] يعني أنَّ القائِلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وفي الجَزْمِ بذلك نَظَرٌ، فقد يكون الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يقول للمُجْرِمين: امتَازُوا، وقد يكون القائِلُ مَلَكًا من الملائِكَة؛ ولهذا لو قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويقال) لكانَ أَوْلَى؛ لأنَّ الجَزْمَ بأنَّ القائِلَ هو الله يحتاج إلى تَوقِيفٍ؛ أي: إلى النَّصِّ من الشَّارِع، ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ المرادُ باليوم يوْمُ القِيامَة، فـ(أَلْ) هنا فيه للعَهْدِ الذِّكْرِيِّ.

﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ قال المُفسِّر: [أي: انْفَرِدُوا عن المؤمنين عندَ اختلاطِهِم بهم]، يعني يُقَالُ يوم القِيامَة: امتازُوا أيها المُجْرِمون، وتَمَيَّزُوا عن المؤْمِنينَ، وانْفَرِدُوا عنهم؛ لأن طَرِيقَ المُجْرِمين غيرُ طريقِ الأبرارِ، فالأبرارُ طَرِيقُهُم إلى الجَنَّة، وهؤلاء طَرِيقُهُم إلى النَّار، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾ [مريم:٨٥-٨٦] فيمتازُ هؤلاء عن هؤلاء، يُقَالُ لهم: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾ على سَبيلِ التَّوْبيخِ والإهَانَةِ، لأنَّكَ إذا رأيتَ مُجْتَمَعًا فقلْتَ مثلًا: أَيَّتها الطَّائِفَة الفُلانِيَّة امتازُوا وابتَعِدُوا، صار في هذا من إذلَالِهِم وإهانَتِهِم ما هو ظَاهِرٌ، وقوله: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المُجْرِمُ فاعِلُ الإجرامِ، والإجرام هو: الذَّنْبُ والإثْمُ، أي: أَيُّهَا الآثِمُون المذْنِبُون امتازوا عن المؤْمِنينَ المُطِيعينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الُمجْرِمينَ يُهانُونَ يوم القِيَامَة، بِحيثُ يَمِيزُونَ من المؤْمِنِينَ بلَفْظِ الطَّرْدِ ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: انْفَرِدُوا وأَبْعِدُوا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله تعالى يُمَيِّزُ بينَ الُمجْرِمينَ والأبرارِ يومَ القِيَامَة، كما مَيَّزَ بينهم في الدُّنْيَا؛ فإنَّ طريقَ هؤلاء غيرُ طريقِ هؤلاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه ينبغي لمن قام بِعَمَلٍ أنْ يذْكُرَ الوَصْفَ المناسِبَ لهذا العَمَل؛ فهنا لَّما أُمِرُوا بالانْصِراف وطُرِدُوا ناسب أن يَذْكُرَ سبب ذلك؛ حيث قال: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ كأنَّه قال: (امْتَازُوا لِإجْرَامِكُم)، ولا شكَّ أنَّ ذِكْرَ سبب الحكم يُزيلُ الشُّبْهَة واللَّبْس والاعْتِرَاض، ويَنْبَني على هذه الفائِدَة:

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ تعليقَ الحُكْمِ بِوَصْفٍ يدلُّ عَلى أنَّ هـذا الوَصْفَ هو عِلَّة ذلك الحُكْم، فإذا قلْتَ مثلًا: أكْرِمِ المجْتَهِدَ من الطَّلَبَة، فهنا علَّقَ الإكْرَامَ بالاجْتِهَاد، وهذا يُفيدُ أن عِلَّة الإكرامِ هي الاجْتِهَاد، فهذه القاعِدَة مفيدَةٌ لطالِبِ العِلْمِ، وهي أنَّ تَعْلِيقَ الحُكْمِ بِوَصْفٍ يدلُّ على عِلِّيَّته؛ أي: أنَّه عِلَّةُ ذلك الحُكْم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حُذِفَت ياءُ النِّداء من قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فلماذا؟ يمكِنُ أن يقول عُلَمَاء البلاغَةِ: إنَّها حُذِفَت من باب الإهانَةِ لهم حتَّى لا يُطِيلَ الكَلامَ؛ لأنَّ طُولَ الكَلامِ مع المخاطَبِ مِنْ بابِ التَّبَسُّطِ إليه والانْشِراحِ لمخاطَبَتِه، فإذا اختُصِرَ فهو نوعٌ من الإهانة، وليس هذا على إطلاقِهِ، بل هذا على حَسَبِ السِّياقِ، قد يكون من الإكْرَام أن تَخْتَصِرَ الكلام، وقد يكونُ من الإكْرامِ أن تَبْسُطَ الكَلامَ، لكنَّ المَقَامَ في هذا لا يقتضي ذلك، بل يقتَضِي أنَّ اخْتِصَار الكلامِ وعَدَم تطويلِهِ من بابِ الإهانَةِ لهم.



الآيتان (٦٠، ٦١)

• • ••• • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس:٦٠-٦١].

• • ••• • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [آمُرُكُم ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ على لِسَانِ رُسُلي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لا تُطيعُوهُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ العَدَاوَةِ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ وحِّدُونِي وأطِيعوني ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ طريقٌ ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الاسْتِفْهامُ هنا للتَّقْرِير، والغالِبُ أنَّه إذا وَقَعَ بعد الاسْتِفْهامِ ما يدُلُّ على النَّفْي فالاسْتِفْهامُ للتَّقْرِيرِ؛ مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] فهذا للتَّقْرِيرِ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للتَّقْرِيرِ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر:٧١] للتَّقْرِيرِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] للتقْرِيرِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين:٨] للتَّقْرِيرِ، وهكذا كلَّما جاءَ ما يدلُّ على النَّفْي بعد أداةِ الاسْتِفْهامِ فإنَّ الاسْتِفْهامَ يكونُ فيه غالبًا للتَّقْرِيرِ، هنا يقرِّرُ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه عَهِدَ إليهم؛ ولهذا يصِحُّ أن تُحوَّل -في غير القُرْآن- إلى فِعْلٍ ماضٍ، فيُقَالُ: قد عَهِدْتُ إليكُم.

فإذا قال قائل: ما المرادُ بهذا التَّقْريرِ؟

فالجوابُ: المُرَادُ به التَّوْبيخُ؛ يعني يُقَرِّرُ الله هذا الأَمْرَ توبيخًا لهم، وإقامَةً للحُجَّة عليهم، إنَّ الله عَهِدَ إليهم أنْ لا يعْبُدُوا الشَّيْطَان، والعَهْدُ إلى الشَّيْء فَسَّره

المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه الأَمْرُ، فقال: [آمُرُكُم] ولكنَّه في الحقيقة أبْلَغُ من الأمر؛ لأنَّ العَهْد إليه كأنَّه مُتَضَمِّنٌ للعَهْدِ والميثاقِ، وهو كذلك؛ فإنَّ الله أخذ علينا الميثاقَ أنْ لا نَعْبُد إلا إياه، وأنْ لا نَعْبُد الشَّيْطَانَ؛ لأنَّه عَدُوٌّ.

وقوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ تشمَلُ الذَّكَر والأنثى، وإن كان الابْنُ يُقَالُ في الأصل للذَّكَرِ، والبَنُونَ تقال في الأصل للذُّكُور، لكنْ إذا كان يُرَادُ به القَبِيلَة، أو الجِنْسُ فإنَّه يَشْمَلُ الذَّكَر والأُنْثى، حتى إنَّ الفُقَهَاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قالوا: إذا وُقِفَ على بني تَمِيمٍ، شَمِلَ ذُكُورَهم وإناثَهُمْ، لكن إذا وُقِفَ على بني فلان؛ أي: واحِد من النَّاسِ ليس قَبِيلَةً، فإنَّه يَخْتَصُّ بالذُّكُور فقط، فبَنو آدَمَ هنا قَبِيلَةٌ بل شَامِلٌ لكُلِّ القَبائِلِ فَيَشْمَلُ الذُّكُور والإناث.

وقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ فسَّـر المُفسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ العِبادة هنا بالطَّاعَة؛ لأن طاعَةَ الغَيْـرِ في مَحارِمِ الله تعالى نَوْعٌ من العِبادَةِ؛ كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١] قال عَدِيُّ بنُ حاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رَسُولَ الله: إنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُم -يعني لسنا نُصَلِّي، أو نَرْكَعُ، أو نَسْجُدُ لهم-، قال: «**أَوَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ، وَيُحَـرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟**» قال: نَعَمْ، قال: «**فَتِلْكَ عِبادَتُهُمْ**»(١).

وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا ولكنَّ الوَاقِعَ أنَّ طاعَةَ غَيْـرِ الله في مُخالَفَةِ أمْرِ الله نَوْعٌ من العِبادَةِ؛ لأنَّ العِبادَةَ في الأَصْلِ هي التَّذَلُّل والخُضُوع، وطاعَةُ الأمر تذلُّلٌ وخُضُوع.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

وقوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ هل المُرَادُ بذلك الجِنس، أو المُراد الشَّيْطَانُ المعَيَّنُ؟

الظَّاهِرُ أنَّ المُرَادَ به الجِنْس، فيشمل شَياطينَ الإنْسِ، وشَيَاطِينَ الجِنِّ، فكما أنَّ لِلْجِنِّ شياطينَ فللإنْسِ شَيَاطِينُ، يُوجَدُ من الإنْسِ شَياطينُ يَأْمُرونَ النَّاسَ بالإثْمِ والعُدْوانِ ويَنْهَوْنَهُم عن البِرِّ والإحْسانِ.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشَّيْطَانَ ﴿لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ فكلُّ أحَدٍ يأمُرُكَ بمخالَفَةِ أمْرِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فإنَّه عَدُوٌّ لك شَعَرَ بذلك أم لَمْ يَشْعُرْ، وعلى رَأْسِهم الشَّيْطَانُ الأوَّلُ الذي يقود كُلَّ شَيْطانٍ ﴿عَدُوّٞ﴾ العَدُوُّ ضِدُّ الوَلِيِّ، والوَلِيُّ من يتولَّاكَ ويَحوطُكَ ويعْتَنِي بك، فالعَدُوُّ ضِدُّه وهو الذي لا يُريدُ لك الخَيْر، وإنَّما يريدُ لك الشَّرَّ.

وقوله: ﴿مُّبِينٞ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّنُ العَدَاوَةِ] وفَسَّرَ ﴿مُّبِينٞ﴾ بِبَيِّن؛ لأنَّها من (أَبَانَ) و(أبان) تأتي بِمعْنَى أَظْهَرَ، وتأتي بِمَعْنَى ظَهَر، فإن كانت بِمَعْنَى أظْهَرَ فهي متَّعَدِّيَة، وإن كانت بِمَعْنَى ظهر فهي لازِمَة، ولا يُمْكِنُ أن نقول: إنَّها من المتَعدِّي، أو اللازِمِ، إلا بِقَرينَةٍ من السِّياق، فهنا نقول: ﴿مُّبِينٞ﴾ إذا فسَّرْناها بما فَسَّرَها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّنُ العَدَاوَة] صارت من اللازِمِ، مع أنَّه يُمْكِـنُ أن نَجْعَلَها من المتَعدِّي، ونقول ﴿مُّبِينٞ﴾ مُظْهِرٌ للعَداوَةِ؛ لأنَّه يأْمُرُكَ بالشَّـرِّ، لكنْ هذا ضَعيفٌ؛ إذ لو أبانَ عَدَاوَتَهُ ما تَبِعَه أحَدٌ، وإنَّما يَغُرُّ النَّاسَ؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾ [الأعراف:٢٢] إذَنْ فَجَعْلُ ﴿مُّبِينٞ﴾ هنا من باب اللازِمِ من أبان بِمَعْنَى ظَهَرَ.

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ هذا نَفْيٌ وإثْباتٌ، وهو حقيقَةُ التَّوْحِيدِ ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾: (أن) هنا مَصْدَرِيَّةٌ، ويصح أن تكون مُفَسِّرَةً؛ لأنَّ أعهد مُتَضَمِّنَة معنى القولِ، وإذا سَبَقَ (أنْ) ما يتضَمَّنُ معنى

القول دون حُرُوفِهِ صارت تَفْسيريَّةً؛ مثل قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ [المؤمنون:٢٧] قولُهُ: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي﴾ أنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا أن نَعْبُدَه وَحْدَهُ؛ أي: تذلَّلُوا لي بالطاعَةِ، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [وَحِّدوني وأَطِيعوني] وهذا المعنى صحِيحٌ، فالعِبادَةُ تَوحِيدُ الله عَزَّوَجَلَّ بالطَّاعَةِ، والتَّذَلُّل له بامْتِثالِ أمْرِهِ، واجْتِنابِ نَهْيِهِ.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ المشارُ إليه ترْكُ عِبادَة الشَّيْطَانِ وإفرادُ الله بالعِبادَة ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الصِّراطُ فَسَّرَهُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالطَّرِيقِ، ولكنَّ الصَّحِيحَ أنَّه ليس مُطْلَقُ الطَّرِيقِ صِراطًا، بل الصِّـراطُ هو الطريقُ الواسِعُ المتَساوي؛ لأنَّه مأْخوذٌ من الصِّراطِ أو الزَّرْطِ، والزَّرْطُ كما نَعْلَمُ هو ابتلاعُ الشَّيْءِ بِسُـرْعَة، ولا يكون الطَّرِيقُ طريقًا ذا سُرْعَةٍ إلا إذا كان واسِعًا وكان سَهْلًا.

وأمَّا قوله: ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ فهذا وَصْفٌ له، والاسْتِقامَةُ تَشْمَلُ اعْتِدالَ السَّيْـر، وتشْمَلُ أيضًا انْبِساطَ الأَرْضِ، فإذا قُدِّرَ أنَّ الطريق يذْهَبُ يمينًا وشِمالًا، لم يَصِحَّ أن نقول: إنَّه مُسْتَقيم، وإذا كان فيه مُرْتَفِعَاتٌ ومُنْخَفِضَاتٌ فليس بمُسْتَقيم؛ لأنَّ بَعْضَه مرتَفِعٌ وبَعْضُه نازِلٌ، فالاسْتِقَامَةُ معناها أنَّه خالٍ منَ الانْحِرافِ يمينًا وشِمالًا، وخالٍ من الاخْتِلاف في ارتفاعِه وانْخِفاضِهِ.

وقوله: ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أضافَ الصِّراطَ إلى نَفْسِه، وأضاف الصِّراطَ إلى خَلْقِه؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سـورة الفاتحة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأضاف الصِّراطَ إلى الذين أنْعَمَ الله عليهم، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

فإن قال قائل: كيفَ نَجْمَعُ بين الإضافتَينِ؟

فالجَوَابُ: نقـول: أضافَ الله الصِّـراطَ إلى الذين أَنْعَـمَ الله عليهم؛ لأنَّهُـم السَّالكُونَ له، وأضافه إلى نَفْسِه؛ لأنَّه هو الذي وضَعَهُ لعِبادِهِ، وهو مُوَصِّلٌ إليه، كما تقول: هذا طَرِيقُ مَكَّةَ، أي: المَوَصِّلُ إلى مكَّة، وتقول: هذا طَرِيقُ فلانٍ -إذا كان هو الذي وَضَعَه للنَّاسِ وشَقَّهُ لهم- أو هو الذي سَلَكَه ومشى عليه.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يُحِبُّ الإعْذَارَ من نَفْسِه؛ أي: يُحِبُّ أن يُقيمَ العُذْرَ لنَفْسِه؛ لتقوم الحُجَّة على خَلْقِه؛ لِقَوْلِه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ فإنَّ مَن عَهِدَ إلينا أن لا نَعْبُد الشَّيْطَان وأن نَعْبُدَه وَحْدَه، قد أقام علينا الحُجَّة، وأقام العُذْرَ لِنَفْسِه، وهذا كقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ رَحْمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالخَلْق؛ حيث لم يَجْعَلْ إخلاصَهُم له مَوْكولًا إلى عُقُولِهِم، بل عَهِدَ بذلك إليهم على أَلْسِنَةِ الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لأنَّ الله لو جَعَلَ الإخْلاصَ مَوْكولًا إلى العُقُول لاخْتَلَفَتِ العُقُول في ذلك اختلافًا كَثيرًا؛ لأنَّ الأَهْوَاء لا تَنْضَبِطُ، فجعل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك مِمَّا تكَفَّلَ به هو نفسُهُ لِعِبادِهِ، ففيه إثباتُ رَحْمَة الله عَزَّوَجَلَّ بهذا العَهْد الذي عَهِدَ به إلى عِبادِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه يَنْبَغي التَّصْفِيَةُ قبل التَّحْلِيَة؛ أو يُقَالُ التَّخْلِيَة قَبْلَ التَّحْلِيَة؛ لأنَّه قال: ﴿لَا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ هذا تَخْلِيَـة ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ تَحْلِيَـة، يعني: نَفْـي وإثْبَات، وهـذا هو التَّوْحيدُ، فالتَّوْحيدُ مَبْنِيٌّ على نَفْيٍ وإثْباتٍ؛ لأنَّ النَّفْيَ المُجَـرَّدَ تَعْطِيلٌ مَحْضٌ وعَدَمٌ، والإثباتَ المُجَـرَّدَ لا يَمْنَعُ المشارَكَةَ، فلا يَتِمُّ التَّوْحيدُ إلا بنَفْيٍ وإثْباتٍ؛ ولهذا لو قُلْتَ: (لا قَائِمَ في البَيْتِ) فهذا نفي مُجَرَّد معناه العَدَمُ، وإذا قلت:

(زَيْدٌ قائِمٌ في البَيْتِ) فهذا إثباتٌ مُجَرَّدٌ لا يَمْنَع المشارَكَة، أي: قد يكونُ رَجُلٌ آخرُ في البيت قائِمٌ، فإذا قلْتَ: (لا قَائِمَ في البيتِ إلا زَيْدٌ) فحينئذ تَحَقَّقَ الانْفِرَادُ وتَحَقَّق التَّوْحيدُ، وصار لا يوجَدُ قائِمٌ في هذا البيتِ إلا زَيْدٌ.

إِذَن: التَّوْحيدُ لا بد فيه من هَذَينِ الأمْرَينِ: النَّفْي والإثْبَات، ولكن بماذا يُبْدَأُ؟ يُبْدَأُ أوَّلًا بالنَّفْيِ لَيَرِدَ الإثباتُ على مكانٍ خالٍ مِنَ الشَّوائِبِ خالصٍ صَالِحٍ لاستقرارِ الإثباتِ فيه؛ ولِهَذا يُبْدَأ بالنَّفْي ثم بالإثْباتِ، وهـذا في القُرْآن كثيـرٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] فتَبَرَّأَ أوَّلًا من كل مَعْبودٍ ثُمَّ أَثْبَتَ العِبادَةَ لله وَحْدَه الذي فَطَرَهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ طاعَةَ الشَّيْطَان في مَعْصِيَة الله -ولا تكونُ طاعَةُ الشَّيْطَانِ إلا في مَعْصِيَةِ الله- نوعٌ من العِبادَة؛ لِقَوْلِه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ لأنَّ الطاعَةَ فيها نوعٌ من التَّذَلُّل، والعِبادَة هي التَّذَلُّل، فمن أطاعَ الشَّيْطَان في مَعْصِيَة الله فقد عَبَدَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ العِبادَةَ لا تَخْتَصُّ بالرُّكُوع والسُّجُود والذَّبْح والنَّذْر وما أَشْبَهَ ذلك، بل هي عامَّةٌ شامِلَةٌ لكلِّ طَاعَةٍ يكون فيها كَمالُ التَّذَلُّلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وُجُوبُ الحَـذَرِ من طَاعَةِ الشَّيْطَانِ؛ حيـثُ سَمَّى الله تعالى طاعَتَهُ عِبادَةً، وكلُّ إنْسَانٍ يَحْـذَرُ من أن يَعْبُدَ مع الله غَيْرَه، ففيه التَّحْذيرُ من طَاعَـةِ الشَّيْطَانِ في مَعْصِيَة الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وُجُوب عِبادَةِ الله وَحْدَه؛ لِقَوْلِه: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ والعِبادَةُ تُطْلَقُ على مَعنيَينِ:

أحدُهُما: التَّعَبُّد.

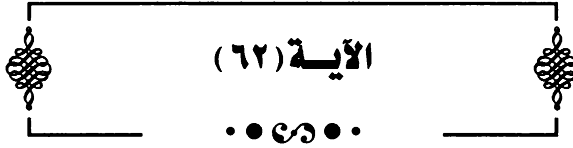
الثَّاني: المتَعَبَّدُ به.

التَّعَبُّدُ يعني التَّذَلُّلَ لله عَزَّوَجَلَّ، وهي بهذا المعْنى فِعْلُ العَبْدِ يعني صلاتَهُ وزَكاتَهُ وقِيامَهُ وحَجَّه، وما أَشْبَهَ ذلك، وتُطْلَق العِبادَةُ على المتَعَبَّدِ به، وهي: اسم جامِعٌ لكلِّ ما يُحِبُّه الله ويرضاه مِنَ الأَقْوَالِ والأَعْمالِ؛ البَاطِنَةِ والظَّاهِرَةِ، القَلْبِيَّةِ والجَوَارِحِيَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الصِّـراطَ المُسْتَقيمَ هو التَّوْحيدُ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: ﴿هَٰذَا﴾ أي تَرْكُ عِبادَةِ الشَّيْطَانِ والالْتِزَامُ بعِبادَةِ اللهِ ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريقٌ مُسْتَقيمٌ لا عِوَجَ فيه، وإِنَّما كان كذلك؛ لأَنَّه مُوَصِّلٌ إلى رضا الله تعالى وجَنَّتِه، فهو صراطٌ مُسْتَقيمٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الصِّـراطَ قد يكونُ مُسْتَقيمًا وقد يكون مُعْوَجًّا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣] فكلُّ واحِدٍ من البَشَـرِ له طريقٌ، فإن كان على شَـرْعِ الله فهو مُسْتَقيمٌ، وإن كان على خِلافِهِ فهُوَ مُعْوَجٌّ.





❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٢].

•••

﴿وَلَقَدْ﴾ هذه جُمْلَةٌ مُؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ؛ هي: القَسَمُ المقَدَّر؛ لأنَّ اللام مُوَطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ، واللام، وقد، والتَّقْدِير: واللهِ لَقَدْ أَضَلَّ.

فإذا قال قائِلٌ: كيف يُقْسِمُ الله عَزَّوَجَلَّ وهو الصَّادِقُ بالقَوْلِ بِلا قَسَمٍ؟

نقول في الجوابِ على ذلك وُجُوهٌ:

الوَجْه الأَوَّلُ: الإشارَةُ إلى أنَّ هذا أمْرٌ هامٌّ يَحتاجُ إلى القَسَمِ عليه؛ لأنَّه لولا أهَمِّيَّتُه ما أقْسَمَ عليه.

الوجْهُ الثاني: أنَّ القُرْآنَ نَزَلَ باللُّغَة العَرَبِيَّة، ومن أساليبِ اللُّغَة العَرَبِيَّة أنَّ الشَّيْء إذا أُريدَ إثْبَاتُهُ وتَحقيقُهُ فإنَّه يُقْسَمُ عليه.

الوَجْهُ الثَّالِثُ: أنَّ المقْسَمَ به إذا كان مُصَرَّحًا به، فإنَّ الإقْسامَ به يَدُلُّ على عَظَمَتِه؛ فإنَّ الله لا يُقْسِمُ بشَيْء إلا لِعَظَمَة ذلك الشَّيْءِ؛ مثل قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس:١-٢]. وما أشْبَهَ ذلك مِمَّا أقْسَمَ الله به، فإنَّه يدلُّ على عظَمَة المقْسَمِ. ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ﴾ بِمَعْنَى أضاعَ وصَرَفَ عنِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ، يعني قادَكُم إلى

ضلالٍ ليس فيه هُـدًى ﴿جِبِلًّا ﴾، قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جِبِلًّا: خَلْقًا، جَمْعُ جَبِيـلٍ كَقَديم، وفي قراءةٍ «جُبُلًا» بضَمِّ الباءِ] والقِراءَةُ هذه سَبْعِيَّة؛ لأنَّ اصْطِلاحَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّه إذا قال: وفي قِراءَةٍ، أو قال: مثلًا بِضَمِّ الباء، فهي سَبْعِيَّة. وإذا قال: وقُرِئَ فهي شاذَّةٌ، إذَن فيها قراءتان سَبْعِيَّتان: جُبْلًا، وجُبُلًا، وفيها قراءة ثالثة ما ذكرها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ «جِبْلًا» وفيها قراءة رابعة «جِبِلًا» بدون تشديد اللام.

ولكن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس تفسيرُهُ جمعًا للقراءات، إنَّما يذكر ما رأى أنَّ المَصْلَحَة تقتضي ذِكْرَه، ولكن لا شَكَّ أنَّه لو ذَكَرَها لكان أحْسَنَ؛ لأنَّه أحيانًا يَذْكُر قـراءاتٍ مُتَعَدِّدَة في صِفَةِ الحَرْفِ كما ذَكَرَ القراءاتِ المتعَدِّدَةَ التي تبلغُ إلى سِتِّ قراءاتٍ في مثل ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ من التَّسْهِيل، والتَّحقيقِ، والحَـذْفِ وما أشْبَهَ ذلك، ولكنَّ الإنْسَان بَشَرٌ، أحيانًا يَغْفُل ويُهْمِلُ ما ينْبَغي أن يُذْكَر، أو يَذْكُر ما لا يَحْتاجُ أَن يُذْكَر.

﴿جِبِلًّا ﴾ أي: خلقًا كثيرًا، ولا يعني ذلك أنَّ الأكثَرَ لم يُضَلَّ من قِبَلِ الشَّيْطَان، بل هو أضَلَّ أكْثَرَ الخَلْقِ؛ لأنَّه ثَبَـتَ في الحديثِ الصَّحِيح أنَّ الله يومَ القِيَامَة يقولُ: «يا آدَمُ». فيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فيَقُولُ: «أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»، فيَقُولُ: يَا رَبِّي وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسعَ مِئَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»، هؤلاءِ كُلُّهُم في النَّار مِنْ بني آدم ووَاحِدٌ في الجَنَّة، فشَقَّ ذلك على الصَّحَابَة وَعَظُمَ ذلك وقالوا: أيُّنا ذلك الوَاحِدُ يا رسول الله؟ قال: «أَبْشِرُوا فَإِنَّكُمْ فِي أُمَّتَيْنِ مَا كَانَتَا فِي شَيْءٍ إِلَّا كَثَّرَتَاهُ: يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ»[1] وهو كذلك فإنَّ من شَاهَدَ الخَلْقَ الآن ونَحْن في جزء يسيرٍ من

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾، رقم (٤٧٤١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النار»، رقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

العُصُور وَجَدَ أن تسعَ مِئَةٍ وتِسْعَةً وتِسْعينَ كلُّهُم على ضلالٍ، حتى المُنْتَسِبونَ منهم للدِّينِ الإسلامِيِّ عند طوائِفَ منهم ضلالٌ عَظيمٌ يبْلُغُ بهم الكُفْرَ، وإن كانوا مُنْتَسِبينَ إلى الإسْلامِ.

إِذَن: المُرَادُ بالكثيرِ هنا الأَكْثَرُ، قال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ الهَمْزَة هنا لِلاسْتِفْهامِ، والمُرَاد بالاسْتِفْهامِ التَّوْبيخُ؛ يُوَبِّخُهم على عَدَمِ العَقْل، والفاء هنا عاطِفَةٌ، والمَعْطُوفُ عليه: إمَّا ما سَبَقَ، وإما جُمْلَةٌ مُقَدَّرَة مُناسِبَة للمقام؛ رأيان لأَهْلِ العِلْم.

فمنهم من يقـول: إنَّ حَرْف العَطْـفِ يَعْطِفُ ما بَعْدَه على ما قَبْلَـه، ولكنْ في الكَلِمَة تقديمٌ وتأخيرٌ بينَ حَرْفِ العَطْفِ والهَمْزَةِ، ولو جُعِلَ كُلُّ واحِدٍ مكانَهُ لكان اللَّفْظُ (فَأَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلونَ).

ومِنْهُم من قال: إنَّ الهَمْزَةَ في مَحَلِّها، وإنَّ الفاءَ عاطِفَةٌ على مُقَدَّرٍ يُفْهَمُ من المقامِ، أو مِنَ السِّياقِ، وهذا قد يكون أَقْرَبَ إلى القَوَاعِدِ لكنَّه أَصْعَبُ؛ إذ إنَّكَ في بعضِ المَواضِعِ لا تستطيعُ أن تُقَدِّرَ شيئًا، ولا تَعْلَمُ أيُّ شَيْءٍ يُناسِبُ، وحينئذ يكون الثاني هو الأَيْسَرَ، والقاعِـدَةُ عندي فيما إذا اخْتَلَفَ النَّحْوِيُّون في مسألَةٍ: أنَّ الرَّاجِحَ هو الأَيْسَرُ، ما لم يَلْزَمْ منه اختلافُ المعْنَى؛ بِحيثُ يكون المعنى التَّابِعُ للأَيْسرِ غَيْرَ صحيحٍ فحينئذ لا نَتَّبِعُ الأَيْسَرَ؛ لأَنَّه يُخِلُّ بالمعنى ويؤدِّي إلى معنًى غيرِ صحيحٍ. لكن ما دام المعنى مُسْتَقيمًا على الوَجْهَينِ، فالأَيْسَرُ هو الرَّاجِحُ؛ «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا**».

﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ يعني أنَّه وَبَّخَهُم على عدم عَقْلِهم، والعقل نوعانِ: عَقْلٌ بِمَعْنَى الإِدْرَاكِ، وهو الذي يتـرَتَّبُ عليه التَّكْليفُ، وعَقْلٌ بِمَعْنَى التَّصَـرُّف، وهو الذي يتـرتَّبُ عليه المدْحُ، أو الذَّمُّ، فالأَوَّلُ هو مناطُ التَّكْليفِ وهو الذي يقول فيه الفُقَهاءُ: مِن شُروطِ العِبادَةِ (العَقْلُ) والمُرَاد بالعَقْلِ في الآية العَقْلُ الثَّاني قَطْعًا؛ لأَنَّه

لو انتفى عنهم عَقْلُ الإدْراكِ لم يكونوا مُكَلَّفِينَ ولا يُتَوَجَّهُ إليهم باللَّوم، لكنَّهُمُ انتَفَى عنهم عَقْلُ التَّصَـرُّفِ، فلم يُحْسِنوا التَّصَـرُّفَ، فصاروا عُقَلاءَ غَيْرَ عُقَلاءَ؛ عُقَلاءُ باعتبارِ الإدْراكِ المتَرَتِّبِ عليه التَّكْليفُ، وغيرُ عقلاءَ باعتبارِ التَّصَرُّف المتَرَتِّبِ عليه المدْحُ أو الذَّمُّ، فهم أُعْطُوا ذَكاءً ولم يُعْطَوا عقلًا.

وما أحْسَنَ عبارةَ شَيْخِ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المتكَلِّمينَ! حيثُ قال في وصفهم: «إنَّهُم أُوتُوا ذكـاءً، وما أُوتُوا زَكاءً، وأُوتُوا فُهُـومًا، ولم يُؤْتَوْا عُلُومًا، وأُوتُوا سَمْعًا وأَبْصارًا وأفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ، وَلَا أَبْصارُهُم، وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ»[1].

«أوتوا ذَكاءً وما أُوتُوا زَكاءً» نسأَلُ اللهَ العافِيَةَ! فكان ذَكاؤُهُم حُجَّةً عليهِمْ، وأوتُوا فُهُومًا؛ عِندَهُم فَهْمٌ لكنَّهم ما عِنْدَهم عِلْمٌ، والإنْسانُ إذا تكلَّمَ بِفَهْمِه لا بِعِلْمِه ضَلَّ وضاع، فلا بدَّ من عِلْمٍ تَبْني عليه عَقِيدَتَكَ وعِبادَتَكَ. فهؤلاء أُوتُوا عقولًا تقومُ عليهم بها الحُجَّة، ولكنَّهم حُرِموا من العُقُولِ التي يترتَّبُ عليها المدْحُ والذَّمُّ التي هي الرُّشْدُ وحُسْنُ التَّصرُّفِ، فلم يَستَعْمِلوا عقولَهُم التي أنعم بها الله عليهم فيما ينفعُهُم.

والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ عَداوَتَهُ وإضْلالَهُ، أو ما حَلَّ بهم من العَذابِ فتُؤْمِنُـونَ] يعني لو أنَّكُم عَقَلْتُم عداوَتَـهُ وإِضْلالَهُ، أو عَقَلْتُم ما حـلَّ بالمتَّبعينَ له من العَذابِ والنَّكالِ لَكُنْتُم تُخالِفونَه ولا تَعْبُدونَهُ، ولَآمَنْتُم باللهِ وَحْدَه، ولكِنَّ الهَـوَى غطَّى الهُـدَى كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت:١٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١١٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ عَداوَةِ الشَّيْطَان لبَنِي آدم؛ حيث أَضَلَّ مِنْهُم جِبِلًّا كثيرًا؛ أي: خلقًا كثيرًا عَظِيمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحْذيرُ من الشَّيْطَانِ وإغْوَائِه؛ لأَنَّه لا يُمْكِنُ أن يسعى لِهدايَةِ بني آدَمَ، ولكنَّه يَسْعى لإضْلالِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَنِ اتَّبَعَ الشَّيْطَان في إغْوَائِهِ وإضْلالِهِ فهو غيرُ عاقِلٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ من ساءَ تَصرُّفُه صَحَّ أن يُنْفى عنه العَقْلُ، وإن كان عَاقِلًا عقلًا ظَاهِرًا؛ لِقَوْلِه هنا: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾. وقد مَرَّ علينا أنَّ العَقْلَ عَقْلانِ: عَقْلٌ هو مَناطُ التَّكليفِ وهو عَقْلُ الإدْراكِ، وعَقْلٌ هو مناطُ المدْحِ والذَّمِّ، وهو عقل التَّصَرُّفِ الذي يكون به الرُّشْد.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَوبيخُ ولَوْمُ مَنْ تَبعَ الشَّيْطَانَ في إضْلالِهِ لِكَوْنِهِ غيرَ عاقِلٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾.



الآيــة (٦٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [يس:٦٣].

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في تقديرِ الكَلامِ: [ويُقَالُ لهم في الآخِرَةِ ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾] ﴿ هَٰذِهِۦ ﴾ الإشارَةُ هنا إلى قَرِيـبٍ؛ لأن إشارَةَ البَعيدِ (تِلْكَ) وهنا يقولُ: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ إشارةً إلى قُـرْبِها مِنْهم؛ لأنَّه يُؤتَى بها يوم القِيَامَة تُقادُ بسَبْعِينَ ألفَ زِمامٍ، كُلُّ زِمامٍ يَقُودُهُ سَبعـونَ أَلْفَ مَلَكٍ، تُقادُ ويُؤتَى بها ويُشاهِدُها النَّاسُ ويَلْحَقُهُم من الرُّعْبِ العَظيمِ ما لا يَقْدِرُ الواصِفونَ على وَصْفِهِ، ويُقَالُ لهؤلاءِ المُجْرِمينَ: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

وفي آيةٍ أخرى قال الله فيها: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور:١٣-١٦] كانوا قبلَ أن يُدَعُّوا إليها يُقَالُ لهم: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإذا دُعُّوا إليها، والدَّعُّ يَدُلُّ على أنَّهُم يَتَراجَعُونَ على أَعْقَابِهِمْ خوفًا منها، ولكنَّهم يُدفَعونَ دَفْعًا بِقُوَّةٍ -والعِياذُ بالله- إليها، ويُقَالُ: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾. والتَّكْذيبُ عُنْفٌ في رَدِّ الحَقِّ، والدَّعُّ عُنُفٌ، فصار الجَزَاءُ من جِنْسِ العَمَلِ، أما حين عُرِضَـت عليهم وقُرِّبَـتْ منهم فقيل لهم: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾. أي: تُوعَدونَ بها ولكنَّهم يُكَذِّبونَ كما قال الله

تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فهم تُوُعِّدُوا بها لكنَّهُم كَذَّبُوا -والعِياذُ بالله- ويومَ القِيامَـة يُوَبَّخُونَ على هذا التَّكْذيـبِ، ويُقَالُ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ و﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور:١٤].

وهنا إشكالٌ؛ وهو أنَّه قيل: إنَّ الوَعْدَ في الخَيْر والإيعادَ في الشَّرِّ، وعليه قولُ الشاعر(١):

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُــهُ أَوْ وَعَدْتُــهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِـدِي

وهنا قال: ﴿تُوعَدُونَ﴾؟

فنقول: الأمر -كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- على حَذْفِ مَعْلومٍ وهو قوله: (بها) أي تُوعَدونَ بها، لا تُوعَدونَها. لو قال: (تُوعَدونَها) لصارَ للإشكَالِ محَلٌّ؛ لأنَّ الجَنَّة قال الله تعالى فيها: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [مريم:٦١] ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [التوبة:٧٢] لكنْ هؤلاء وُعِدُوا بها، يعني أنَّه قيلَ لهُم إنَّكُم سوف تُلاقونَها، وهذا هو الواقِعُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ نارِ جَهَنَّم، وأنَّها تُشاهَدُ عينًا يوم القِيامَة؛ لِقَوْلِه: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ والإشارَةُ تكون إلى مُشارٍ إليه محَسوسٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ صِفَةِ النَّار وأنَّها -والعِيَاذُ بالله- كُلُّها ظُلْمَةٌ، وكُلُّها سوادٌ؛ لِقَوْلِه: ﴿جَهَنَّمُ﴾ لأنَّها من الجَهْمَةِ، أي: الظُّلْمَة والسَّواد.

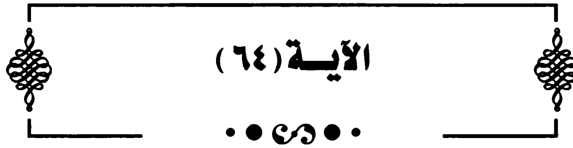
---

(١) البيت ينسب لعامر بن الطفيل، انظر: لسان العرب (١/ ٦٣).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَقْرِيعُ هؤلاء، وإظهارُ خَطَئِهِم في تَكْذِيبِهِم؛ لِقَوْلِه: ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: صِدْقُ وَعْدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث صَدَقَ وَعْدَه بما وَعَدَ به هؤلاء المُكَذِّبينَ حتى شاهَدوا ما وُعِدُوا به عِيانًا.





الآية (٦٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ اَصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [يس:٦٤].

• • • •

هذا الأمْرُ كَوْنِيٌّ -إن كان من الله- وإن كان مِمَّن أمَرَهُم الله أن يقولوا ذلك من الملائِكَة، فهو أيضًا أمْـرٌ كَوْنِيٌّ، والمُرَاد به الإهانَةُ والإذْلالُ، وإذْ من المعلوم أنَّهُم لن يَسْتَطيعوا أن يَصْلَوْهَا، لكن يُقَالُ ذلك على سَبيلِ الإهَانَةِ والإذْلالِ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ألْ هنا للعَهْدِ الذِّكْرِيِّ، وقد يكون بالنِّسْبَة لمخَاطَبَةِ هؤلاء الكُفَّارِ للعَهْدِ الحُضُورِيِّ، يعني: هذا اليَوْم الحَاضِر اصْلَوُا النَّارَ فيه.

ويتردَّدُ علينا كثيرًا العَهْدُ الحُضُورِيُّ، والذِّكْرِيُّ، والذِّهْنِيُّ فما هو الفَرْقُ بينها؟

العَهْدُ الحُضُورِيُّ ما كان مَعْهُودًا لحُضُورِهِ، والذِّكْرِيُّ ما كان معهودًا لذِكْرِه، والذِّهْنِيُّ ما كان معهودًا في الأَذْهانِ.

مثال العَهْدِ الذِّهْنِي: إذا قلنا: اذْهَبْ إلى القاضي، وأنْتَ مثلًا في بَلَدٍ، فتذهب إلى قاضي البَلَدِ نَفْسِه؛ لأنَّ هذا مَعْروفٌ في الذِّهْنِ.

مثال العَهْدِ الحُضُوري: إذا قُلْتَ: اليومَ نكْرِمُكَ؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

ومثالُ العَهْدِ الذِّكْري قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥-١٦]

يعني الرَّسُولَ المذْكُورَ ولَيْس رسولًا آخر.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: (ما) مَصْدَرِيَّة، أي: بكَوْنِكُمْ تكْفُرونَ، والباء للسَّبَبِيَّة؛ أي: بِسَبَب، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تَكْفُرونَ به بالدُّنْيَا، فقد كفروا بالله واليَوْمِ الآخِرِ والملائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيِّينَ وبِكُلِّ ما أَخْبَرَ الله بِهِ؛ ولهذا لم يَقُوموا بطاعَتِهِ؛ لأنَّه ليس عِنْدَهم إيمانٌ، وإنَّما يُقالُ لهم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم وبيان أنَّهُم لم يُظْلَموا؛ ولهذا ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨-٩].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ أنَّ هؤلاء المُكَذِّبينَ يُؤْمَرُونَ أَمْرَ إهانَةٍ وإِذْلالٍ لِيَصْلَوُا النَّارَ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الأَسْبابِ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وإثباتُ الأَسْبابِ أَمْرٌ مَعْلومٌ بالشَّرْعِ والعَقْلِ والحِسِّ، ولا يُنْكِر إثباتَ الأَسْبابِ إلا جاهِلٌ بحقِيقَةِ الواقِعِ، فإنَّه لا أَحَدَ يُنْكِر أنَّكَ إذا رَمَيْتَ الزُّجاجَةَ بِحَجَرٍ انكَسَرَتْ به، وإذا أَلْقَيْتَ الخِرَقَ في النَّار احترقت بها، ولا يُنْكِر هذا إلا شَخْصٌ مكابِرٌ في الوَاقِع.

ومع هذا فالأَسْبَابُ لا تَفْعَل بذاتِهَا، ولا تؤثِّرُ بذاتِهَا بل بِخَلْقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّأْثيرَ فيها، وحينئذ لا يكون في إثباتِ الأَسْبابِ شَيْءٌ من الشِّرْك، خلافًا لمن زَعَمَ أنَّ إثْباتَ تَأْثيرِ الأَسْبَابِ نَوْعٌ من الشِّرْك؛ لأنَّنَا نقول: إنَّ هذه الأَسْبَابَ إنَّما تُؤَثِّرُ بخَلْقِ الله عَزَّوَجَلَّ التَّأْثِيرَ فيها؛ ولهذا إذا شاء الله أَلَّا تُؤَثِّر لم تُؤَثِّرْ، فإنَّ النَّار طَبِيعَتُها الإحراقُ،

ومع ذلك لم تَحْرِقْ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بل كانَتْ بردًا وسَلامًا عليه؛ لأنَّ الله قال: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كَمالُ عَدْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: فلم تُظْلَمُوا، بل أنتم الذين فعَلْتُمْ ذلك بأنْفُسِكُم.



الآية (٦٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥].

• • • •

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يومَ القِيامَة، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: الكُفَّارِ؛ لِقَوْلِهِم: (واللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكينَ) ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ وغَيْرُها ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فكُلُّ عُضْوٍ ينطِقُ بما صدر منه] ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الخَتْمُ على الشَّيْء بمعْنَى إغلاقِهِ وعَدَمِ الوُصُولِ إليه، ومنه خَتَمْتُ الكِيسَ إذا أحْكَمْتَ شَدَّهُ، وخَتَمْتُ عليه بالشَّمْعِ ونَحْوِهِ كما يقولون.

ومعنى ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي نَسُدُّها فلا تتكَلَّم، وذلك أنَّ المُشْرِكينَ يوم القِيامَة إذا رَأَوُا المُوَحِّدِينَ قد نَجَوْا، تَكَلَّمُوا وتَبَرَّؤُوا من الشِّرْكِ، وقالوا: (واللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ)، أي: أَقْرَرْنا بأَنَّنا غَيْرُ مُشْرِكين لعَلَّنَا نَنْجُو كما نجا أَهْلُ التَّوْحيدِ، وحِينَئِذٍ يُخْتَمُ على أفواهِهِم؛ لأنَّ أفواهَهُم صارت تتكَلَّمُ بالكَذِبِ فيُخْتَمُ على أفواهِهِمْ، وتَنْطِقُ الجَوارِحُ بما عَمِلَتْ، والجُلُودُ بما مَسَّتْ؛ فإنَّ الجِلْدَ يَمَسُّ المحَرَّماتِ كَمَسِّ المرأة لشَهْوَةٍ مثلًا فتَشْهَدُ عليهم الجَوَارِحُ.

ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ نَفْسُ اليَدِ تتكَلَّمُ تقول: عَمِلْتُ كذا، عَمِلْتُ كذا، ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ نَفْسُ الأَرْجُلِ تَقُولُ: أَشْهَدُ أنَّه عَمِلَ كذا وكذا،

وتأمَّلِ الفَرْقُ بَيْنَ اليَدِ والرِّجْلِ، في اليَدِ قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ والأَرْجُل قال: ﴿وَتَشْهَدُ﴾ قال بعضُ العُلَماء: لأنَّ اليَدَ تُخْبِرُ عما فَعَلَتْ، والرِّجْلَ تُخْبِرُ عمَّا فَعَلَ غَيْرُها؛ لأنَّ الأصل في المباشَرَةِ اليَدُ؛ ولهذا دائمًا يُعلَّقُ الكَسْبُ باليَدِ فيُقَالُ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، و﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]؛ فلهذا كانت الأَيدِي مُباشِـرَةً، والأَرْجُلُ شاهِدَةً؛ لأنَّ الشَّاهِدَ هو الذي يُخْبِـرُ عما فَعَلَ غَيْرُه، والفاعلُ هو الذي يُخْبِر عما فعله هو بِنَفْسِهِ -هكذا قال بعض أهل العلم- وهو فَرْقٌ لا بأس به، مع أنَّ الإنْسَانَ قد يَشْهَدُ على نَفْسِهِ؛ كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥] فإقـرارُ الإنْسَانِ على نَفْسِـه شهادةٌ عليه، لكنَّ الفَـرْقَ الذي أشارَ إليه بَعْضُ العُلَماءِ وذكـرناه آنفًا فَـرْقٌ لا بأسَ به.

قول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ وغَيْرُها] قوله: (وغَيْرُهَا) لا يعني ذلك أَنَّه يستدْرِكُ على القُرْآن، لكنَّه يُنَبِّهُ على موضِعٍ آخَرَ من القُرْآنِ؛ ففي آية أخرى بَيَّنَ الله تعالى أَنَّه تَشْهَدُ عليهم الجُلُود ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت:٢٠-٢٢].

فالسَّمْع والبَصَرُ والجُلُودُ لم تُذْكَر هنا في آية سورة يس، وإنَّما ذُكِرَت الأَيْدي والأَرْجُل؛ ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وغيرها] إشَارَةً إلى أنَّ هناك أعْضاءً تَشْهَدُ غَيْرَ الأَيْدي والأَرْجُل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ فالسَّمْع بما سَمِـعَ، والبَصَـرُ بما رأى، والجِلْـدُ بما مَسَّ ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾

ولم يَقُلْ: (وقالوا لأبْصارِهِم، وسَمْعِهِم: لم شَهِدْتُم) لأنَّ عَذابَ الجِلْدِ عامٌّ يَشْمَلُ الجَسَدَ كلَّهُ، لكنَّ عذابَ السَّمْعِ والبَصَرِ خاصٌّ بالسَّمْعِ والبَصَرِ؛ ولِهَذا قالوا لجُلُودِهِم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لأنَّ العَذابَ سيكون على الجُلُود، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

والحاصِلُ: أنَّه يَشْهَدُ غَيرُ الأيدي والأَرْجُل فيكون الشُّهَدَاء سِتَّةً: الأَيْدِي، والأَرْجُل، والسَّمْع، والبَصَر، والجُلُود، والأَلْسُن، فقد ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورةِ النُّورِ أنَّ الأَلْسُنَ تشهدُ ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

فاللِّسانُ أيضًا يَشْهَدُ عليهم؛ لأنَّ اللِّسانَ هو أَعْظَمُ الجَوَارِحِ خطرًا؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ لِمُعاذٍ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلتُ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه، وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، قلتُ: يا رسولَ اللهِ: إِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ» أو قال: «عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١)، وكلَّ صباحٍ تُكَفِّرُ الجَوَارِحُ اللِّسانَ؛ يعني: أنَّها تَجْعَلُ الأمْرَ مُنَاطًا به.

ولهذا قال في سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ ونَصَّ على الأَلْسُنِ في سورةِ النُّورِ لأَنَّه ذَكَرَ فيها ما يتعلَّقُ بذلك من الأُمُور العَظِيمة كالقَذْفِ مثلًا، وأعظَمُه قَذْفُ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ ولِهَذا ذُكِرَت في سُورةِ النُّور الأَلْسُنُ؛ لأنَّ القَذْفَ قَوْلٌ، فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٣١)، والترمذي أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ تنازعه عامـلان؛ الأَوَّلُ: (وتُكَلِّمُ) والثاني: (تَشْهَـدُ) والتَّنَازُعُ أن يتوارَدَ عامِلانِ على معمولٍ واحِدٍ؛ مثل أن تقولَ: أكْرَمْتُ ورَأَيْتُ زَيْدًا، فإنَّ أكْرَمْـتُ ورَأَيْتُ عاملانِ على معمولٍ واحـدٍ وهو: زيد، أمَّا أيُّهما يعمَلُ هل هو الأوَّل أو الثاني؟ فالعُلَماء اختلفوا في ذلك: يقول ابنُ مالكٍ[1]:

وَالثَّانِ أَوْلَى عِنْـدَ أَهْـلِ البَصْــرَهْ ... وَاخْتَارَ عَكْسًـا غَـيرُهُمْ ذَا أَسْرَهْ

فالعامِلُ الثاني هو الذي يعمَلُ عند البَصْـرِيِّينَ، وعند الكُوفِيِّينَ الذي يَعْمَلُ هو الأَوَّلُ.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (بما كانوا يَعْمَلونَ)؛ لأنَّ العَمَلَ قد لا يكونُ من كَسْـبِ الإنْسَانِ، فقد يكون العَمَلُ خطأً فلا يـؤاخَذُ به الإنْسَانُ، فلا يكونُ من كَسْبِه، بل الذي يكون من كَسْبِه هو العَمَلَ الذي يترتَّب عليه الثَّوابُ أو العِقَابُ؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة البَقَرَة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة:٢٨٦] ولَم يَقُلْ: (لها ما عَمِلَت، وعليها ما عَمِلَتْ) فالكَسْبُ أخَصُّ من العَمَلِ؛ لأنَّه لا يلزَمُ من كلِّ عَمَلٍ أن يكون كَسْبًا؛ فقـد يكون وَقَعَ عن سَهْـوٍ، أو جَهْلٍ فلا يُـؤاخَذُ به الإنْسَانُ، وقد يكون عن غَيْرِ قَصْدٍ فلا يؤاخَذُ به الإنْسَانُ، لكنْ مع ذلك أحيانًا يُطْلَقُ العَمَلُ ويُرَادُ به العَمَلُ الذي هو كَسْـبٌ؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ [فصلت:٤٦] يقولُ المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فكُـلُّ عُضوٍ يَنْطِقُ بما صَدَرَ منه] فاليَدُ تَنْطِقُ بما بطَشَتْ، والرِّجْلُ بما مَشَتْ، والعَيْنُ بما رأت، والأُذُن بما سَمِعَت، والجِلْدُ بما مَسَّ، كما تقدَّمَ.

---

(١) الألفية (ص٢٨).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَخْتِم على أفْوَاهِ الْمُكَذِّبِينَ يومَ القِيَامَةِ فلا يتكلَّمُونَ، وقد سبق لنا الجَمْعُ بين هذه الآيةِ وبَيْنَ قَوْلِه تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] وهو أنَّ للقِيَامَة أَحْوَالًا: حالٌ يَكْذِبُونَ، وحالٌ يُقِرُّون، لكنْ بعد أن تَشْهَدَ عَلَيهِم أيديهِمْ وأَلْسِنَتُهم وأرْجُلُهُم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِه: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ فإنَّه خِلافُ العادَةِ أن تَتَكَلَّمَ الأيدي والأَرْجُلُ، ولكنَّ الله على كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ؛ ولهذا لما ذَكَرَ الله عنهم أنَّهُم قالوا لجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُم علينا؟ قالوا: أَنْطَقَنَا اللهُ الذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الإنْسَانَ يُمْكِنُ أن يَشْهَدَ بعضُهُ على بَعْضٍ؛ لأنَّ هذا الرَّجُلَ الوَاحِدَ تَشْهَدُ عليه أعضاؤُهُ بما عَمِلَ، فهل يتفَرَّعُ على هذا: أنَّ الإنْسَانَ في الدُّنْيا يُمكِنُ أن يشْهَدَ على نَفْسِهِ؟ نعم، يُمْكِنُ، وشهادَتُه على نَفْسِه هي إقْرَارُهُ على نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ العِبْرَة في العَمَلِ بما كان فيه من كَسْبٍ، لا مُجَرَّد العَمَلِ؛ لِقَوْلِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ وذكرنا في التَّفْسِيرِ الفَرْقَ بين قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨] وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ لأن مُجَرَّد العَمَلِ قد لا يكون كَسْبًا كما لو صَدَرَ من جاهِلٍ، أو صَدَرَ من ساهٍ، أو نائِمٍ، أو ما أَشْبَهَ ذلك.



الآية (٦٦)

• ●○○● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٦٦].

• ●○○● •

قال المُفسِّر: [﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأَعْمَيْناهُم طَمْسًا ﴿فَٱسْتَبَقُواْ﴾ ابْتَدَرُوا ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ الطَّريقَ ذَاهِبِينَ كعادَتِهِم ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فكَيْفَ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ حينئذ؛ أي: لا يُبْصِرُونَ].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾: (لو) حرفُ امتِناعٍ لِامْتِناعٍ، والذي امتَنَعَ الطَّمْسُ لامْتِناعِ المَشِيئَةِ، فإِذَن هي حَرْفُ امْتِناعٍ لامْتِناعٍ. لو جاء زَيْدٌ لَأَكْرَمْتُك، امتَنَعَ المَجِيءُ والإِكْرامُ، و(لولا) حرفُ امْتِناعٍ لوُجُودٍ و(لَمَّا) حرف وُجُودٍ لوُجُودٍ، فهذه الأدواتُ الثَّلاثُ تنازعت الوُجُودَ والعَدَمَ (لو جاء زَيْدٌ لَأَكْرَمْتُكَ) امتناعٌ لِامْتِناعٍ، (لولا زَيْدٌ لأَكْرَمْتُكَ) امْتِناعٌ لوُجُودٍ، فإِنْ شِئْتَ قُلْتَ (لولا مَجِيءُ زَيْدٍ لأَكْرَمْتُكَ) لكي ينطَبِقَ المَثَلانِ هنا، ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾: ﴿نَشَآءُ﴾ الضَّمِيرُ ضَمِيرُ جَمْعٍ، يعني لو نَشاءُ نَحْنُ، وهذا من المُشْتَبِه؛ لأَنَّ النَّصرانِيَّ ادَّعَى تعدُّدَ الآلِهَة لِمِثْل هذا الضَّمِير، قال: فالله عَزَّوَجَلَّ يعبِّرُ عن نَفْسِه بنحن، و(نشاء) (نُرِيدُ) وما أشبه ذلك إِذَن فهُو متَعَدِّدٌ، ولكننا نَرُدُّ عليه بأَنَّ الجَمْعَ هنا للتَّعْظِيمِ وليس للتَّعدُّد؛ لأَنَّه عَمِيَتْ عَيْنُهُ وعَمِيَتْ بَصِيرَتُه عن الآياتِ الصَّرِيحَةِ المُحْكَمَة الدَّالَّةِ على أَنَّ اللهَ إِلَهٌ واحدٌ ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء:١٧١].

ولكِنْ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧].

إِذَن: الضَّمِيرُ (نشاء) وهو ضَميرُ جَمْعٍ للتَّعْظِيمِ وليس للجَمْعِ قطعًا؛ لأنَّ الله واحِدٌ.

﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ الطَّمْسُ أَبْلَغُ من الإعماءِ؛ لأنَّ الطَّمْسَ إزالَةُ العَيْنِ مَرَّةً واحِدةً ليس لها أَثَرٌ، والعَمَى يكون مع بَقَاءِ العَيْنِ، لكن قد تكون قائِمَةً في صُورَتِهَا وقد تَخْتَلِفُ.

المهِمُّ: أنَّ الطَّمْسَ إزَالَةُ العَيْنِ ومعالِمِهَا نهائِيًّا، لو شاء الله تعالى لفَعَلَ ذلك بعد وُجُودِ العَيْـنِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ والله عَزَّوَجَلَّ على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، فكما كان قادرًا على شَقِّ العَيْنِ فهو قادِرٌ على طَمْسِ ذلك الشَّقِّ، وإذا كان البَشَرُ ربَّما يَخِيطُ الشَّقَّ حتى يتلاءَمَ، فما بالُكَ بالخالِقِ عَزَّوَجَلَّ الذي يقول للشَّيْءِ: (كُنْ) فيكونُ؟!

﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يعنـي طَمَـسَ على أَعْيُـنِهِم فصـاروا يتَسَابَقُون لعلَّهُم يُدْرِكُون الطَّرِيقَ الذي يُوصِّلُهُم إلى مَقْصُودهِم، وكأَنَّكَ تَتَصَوَّرُهُم الآن يتنافَرُونَ تَنَافُرَ الحُمُرِ لعلَّهُمْ يَهْتَدونَ إلى الطَّرِيقِ، وهل يُمْكِنُ للأَعْمَى أن يُدَلَّ الطَّرِيقَ من حيثُ الدَّلالَةُ البَصَرِيَّةُ؟! لا يُمْكِنُ؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يعني: كيفَ يُبْصِرُون الطَّرِيقَ وقد طَمَسَ الله أَعْيُنَهُم؟!

والمقْصُودُ بهذه الآيَةِ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طَمَسَ قُلُوبَ هؤلاء، ولو شاء لَطَمَسَ أَعْيُنَهُمْ، فصار الطَّمْسُ حسِّيًّا معلومًا، وكما أنَّ المطْمُوسَةَ عَيْنُه لا يُبْصِـرُ، فكذلك المطْمُوسَةُ بَصِيرَتُه لا يُبْصِـرُ الحَقَّ، كيفَ يُمْكِنُ لإنْسَانٍ طَمَسَ الله بَصِيرَتَهُ أن يُبْصِر

الحَقَّ ويهْتَدِيَ؟ هذا شَيْء متعَذِّرٌ، كما أنَّ مَنْ طَمَسَ اللهُ بَصَرَهُ لا يُمْكِنُ أن يهتدِيَ إلى الطَّرِيقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيَةِ الكَريمَةِ إثْبَاتُ مَشِيئَـةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ ولكنْ كُلُّ شَيْءٍ مُعَلَّـقٌ بِمَشيئَـةِ الله فإنَّه مَقْـرُونٌ بالحِكْمَـة؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يشاءُ مَشِيئَةً مُجَرَّدَةً بل مَشِيئَتُه تابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ، ودَلِيلُ ذلك قوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يدلُّ على أنَّ مَشِيئَتَهُ مَقْرُونَةٌ بالعِلْمِ والحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ تَمامِ قُدْرَةِ الله؛ لِقَـوْلِه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فهذه الأَعْيُنُ مُبْصِرَةٌ لو شاء الله لطَمَسَها وصارَتْ كأنْ لَمْ تَكُنْ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ضَـرْبُ المَثَلِ عن الأَشْيَاءِ المعْقُـولَةِ بالأَشْيَاءِ المَحْسُوسَةِ، فإنَّ هؤلاء لو طُمِسَتْ أَعْيُنُهُم ما اسْتَطَاعُوا أن يَهْتَدُوا إلى السَّبِيلِ، فكذلك إذا طَمَسَ اللهُ بَصيرَةَ القَلْبِ -والعِيَاذُ بالله- لم يستَطِعِ الوُصُولَ إلى الحَقِّ، ولم يَعْرِفِ الحَقَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمالُ بَلاغَةِ القُرْآن؛ لأنَّ الله لو شاء لقالَ: (ولو نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَذْهَبُوا وَلَا يَرْجِعُوا)، لكن أتى به على هذا السِّياقِ الذي فيه تَوَسُّعٌ؛ لأَنَّه أَبْلَغُ في التَّأثيـرِ، ولأَنَّه يكونُ له نَسَقٌ جيِّدٌ تَهْفُو إليه الأَسْماعُ وتَلْتَـذُّ بِسَماعِهِ.



الآيــة (٦٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٦٧].

••ↂ••

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ في الآيةِ السَّابِقَةِ: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ انْتِفاءُ الدَّلالَةِ، وفي الآيَةِ انْتِفَاءُ السَّيْرِ. ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ قيل: المُرَادُ بالمَسْخِ -كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [قِرَدَة وَخنَازِير، أَوْ حِجارَة].

وقيل: المُرَادُ بالمَسْخِ الإبْقَاءُ على ما هُمْ عليه، يعني يُمْسَخُونَ على مكانَتِهِم فلا يَسْتَطيعونَ التَّحَرُّكَ وهو آدَمِيٌّ، لكنَّه مَمْسوخٌ لا يَسْتَطيع الحِرَاكَ، وأيًّا كان فاللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ، فقد قَلَبَ الله تعالى بني إسرائيلَ قِرَدةً وخنازِيرَ، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥]، ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، والنَّبِيُّ ﷺ قال: «**أَمَا يَخْشَى الَّذِي يَرْفَعُ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ أَنْ يُحَوِّلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ**»[1] والأَمْرُ هَيِّنٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقول: (كن) فيكونُ، فيقول:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام، رقم (٦٩١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن سبق الإمام، رقم (٤٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: حَوَّلْنَا صُوَرَهُم إلى صُوَرٍ أخرى من القِرَدَةِ والخَنازِيرِ، أو جَعَلْناهُم حِجَارَةً، أو أنَّنَا أَبْقَيْناهُم مَاكِثِينَ كالجَمادِ.

المُهِمُّ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لو شاءَ لَمَسَخَهُم وأَبْقَاهُم في مَكانِهِم لا يتَحَرَّكُونَ؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي فما اسْتَطاعوا أن يَمْضُوا؛ لأنَّهُم مُسِخُوا على مَكانَتِهِم وبَقُوا ثَابِتِينَ، ولا يَسْتَطيعون أن يَرْجِعوا، والذي لا يَسْتَطيع أنْ يَمْضِيَ ولا يَرْجِعَ ثابِتٌ؛ كالعَمُود لا يتقدَّم أمامًا ولا يتأَّخرُ خَلْفًا، لو شاء الله عَزَّوَجَلَّ لَمَسَخَهُم على هـذا حتَّى ظهر أَمْرُهُم مَحْسُوسًا، أمَّا بالنِّسْبَةِ للخَيْرِ والتَّقَدُّمِ إليه فَهُم لم يتقدَّمُوا للخَيْر، ولكن تأَخَّرُوا عنه إلى الشَّرِّ؛ ولهذا كان سَيْرُهُم الذي يَسِيرُون عليه في العَمَلِ عَكْسَ الاتِّجاهِ الصَّحِيحِ، بل مُضَادًّا له تمامًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثْباتُ مَشِيئَةِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ وقد سَبَقَ الكَلامُ عن المَشِيئَةِ وأنَّها مَقْرونَةٌ بالحِكْمَةِ في فَوائِدِ الآيَةِ السَّابِقَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كَمالُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لو شاء لأَثْبَتَهُم في مَكانِهِم بحيث لا يَسْتَطيعونَ الذَّهَابَ ولا الرُّجُوعَ ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.



الآيـة (٦٨)

• • ◦ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس:٦٨].

• • ◦ • •

هذه الجُمْلَة شَرْطِيَّةٌ، فِعْلُ الشَّرْطِ قَوْلُه: ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ وجَوَابُهُ: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي: نَجْعَلْ عُمُرَهُ طَوِيلًا؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بإِطَالَةِ أَجَلِهِ «نُنْكِسْهُ» وفي قراءةٍ بالتَّشْدِيدِ من التَّنْكِيسِ]، القِرَاءَةُ التي جعلها المُفسِّر أصلًا «نُنْكِسْهُ» من الإِنْكاسِ، والقِـراءَةُ التي في المصْحَفِ ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ من التَّنْكِيسِ، والإِنْكاسُ والتَّنْكيسُ بمعنَى الرَّدِّ من حَالٍ كَامِلَةٍ إلى حالٍ ناقِصَةٍ، وقوله: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ أو «نُنْكِسْهُ» ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في تَفْسيرِهَا: [أي: خَلْقَهُ، فيكونُ بعدَ قُوَّتِهِ وشَبابِهِ ضَعِيفًا وَهَرِمًا]. فكلَّما طالَ العُمُرُ بالإنْسَانِ فإنَّه يَرْجِعُ لِلْوَراءِ، ليس في القُوَّةِ البَدَنِيَّةِ فَحَسْبُ، بل في القُوَّةِ العَقْلِيَّةِ، والقُوَّةِ البَدَنِيَّةِ، والقُوَّةِ الفِكْرِيَّةِ، فَيَضْعُفُ ويَعودُ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٠]، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤].

والغَرَضُ من هذا التَّنْبيهِ -وإن كان أمـرًا وَاقِعًا وكُلٌّ يَعْرِفُه- الغَرَضُ منه أن يبادِرَ الإنْسَانُ عُمُرَهُ ما دام في قُوَّتِهِ وشَبَابِهِ؛ لأَنَّه سيأْتِيهِ اليَوْمُ الذي لا يكون عِنْدَهُ تلكَ القُدْرَةُ البَدَنِيَّةُ، ولا القُدْرَةُ الفِكْـرِيَّة، ويكون تفْكيـرُهُ محْدودًا كتَفْكيـرِ الصَّبيِّ

لا يُفكِّرُ إلا بما تُحيطُ به جُدْرانُ بَيْتِهِ، ويكون عقْلُه كذلك مَحْدُودًا لا يَسْتَطيع أن ينظُرَ ويَعْقِلَ، ويفكِّرَ في الأُمُور، ويُوازِنَ بينها ويَحْكُمَ عليها، كذلك أيضًا يكونُ حِفْظُه للأَشْياءِ مَحْدودًا، فيَمُرُّ به الشَّيْءُ في الصَّباحِ ولا يَسْتَطيعُ التَّعْبيرَ عنْهُ في المَساءِ.

وكُلُّ هذا أمْرٌ واقِعٌ وظاهِرٌ، بل من النَّاسِ مَن يُسْلَبُ عَقْلَه نِهائِيًّا، ورُبَّما يَصِلُ إلى حَدٍّ يُشْبِه الجُنُونَ فيُؤْذي أهْلَهُ بالصُّراخِ والعَويلِ والأَناشِيدِ وما أشْبَهَ ذلك حَسَبَ ما كان عليه حينَ الصِّغَرِ، حتَّى قيل: إنَّ الإنْسانَ إذا كان جَمَّالًا مثلًا وكان يُنْشِدُ الأَشْعارَ، تَجِدُهُ إذا كَبِرَ وهَرِمَ يَبْدَأُ يُنْشِدُ هذه الأشْعارَ، فَكُلُّ هذا أمْرٌ لا بُدَّ منه؛ ولهذا قال الشَّاعِرُ(١):

لَا طِيبَ لِلْعَيْشِ مَا دَامَتْ مُنَغَّصَةً ... لَذَّاتُهُ بِادِّكَارِ المَوْتِ وَالهَرَمِ

فكُلُّ إنْسانٍ عاقِلٍ إذا تذَكَّرَ أنَّ مآلَهُ إمَّا مَوْتٌ عاجِلٌ، وإمَّا هَرَمٌ، فإنَّه لا يَطِيبُ له العَيْشُ، ولكِنَّ العاقِلَ ليس معنى أنَّه لا يَطيبُ له العَيْشُ أن يَبْقَى في نَدَمٍ وفي حَزَنٍ، بل يَسْعى ويَسْتَعِدُّ لهذه الحالِ التي لا بُدَّ منها.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَنَّ القادِرَ على ذلك المعْلُومِ عِنْدَهم قادِرٌ على البَعْثِ فيُؤْمِنونَ به، وفي قِراءَةٍ بالتَّاءِ] أي: (أفلا تَعْقِلونَ)، وهي سَبْعِيَّة كما تقدَّمَ من اصطلاح المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهكذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ المُرَاد الاسْتِدَلالُ بتَغْييرِ حالِ الإنْسانِ إلى هذه الحَالَ الدَّانِيَةِ على أنَّ الله تعالى قادِرٌ على أن يَبْعَثَهُم، وهذا الذي قاله مُمْكِنٌ، لكنْ أحْسَنُ منه أن يُقالُ: إنَّ معنَى قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أفلا يكونُ لكُمْ عَقْلٌ فتُبادِرُوا

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٣٩)، شرح ابن عقيل (١/ ٢٧٤)، همع الهوامع (١/ ٤٢٨).

أعمَارَكُم قبل أن تَصِلـوا إلى هذه الحالِ؟ تُبادِرُونها بالإيمـانِ والعَمَلِ الصَّالِـحِ ما اسْتَطَعْتُم، حتى إذا وَصَلْتُم إلى هذه الحالَ، وإذا أنتم على أَتَمِّ اسْتِعْداد لها، وغالبًا أنَّ الإنْسَانَ الذي يُمْضِي وقْتَهُ بطَاعَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا هَرِمَ تَجِدُه لا يهتَمُّ إلا بالطَّاعَاتِ، كثيرٌ من المسْلِمينَ إذا هَرِمُوا تَجِدُهُ يقول: أَيْنَ الماءُ؟ أريد أن أَتَوَضَّأَ، أو تَجِدُه يُصَلِّي دائمًا، أو تَجِدُه يقرأ القُرْآن دائمًا، أو يَذْكُرُ الله تعالى دائمًا، وهذا مِنْ نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ الإنْسَان يَهْرَمُ على الحالِ التي يكونُ عليها، وعَكْسُ ذلك سَيَكُونُ بالعَكْسِ؛ من كان في حالِ قُوَّتِه وشَبابِهِ على غَيْرِ هذا العَمَلِ الصَّالِحِ فسوف يكونُ هَذَيَانُهُ إذا كَبِرَ بهذا العَمَلِ السَّيِّئِ، نسألُ اللهَ العافِيَةَ والسَّلامَةَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ حالِ الإنْسَانِ وأَنَّه ينْتَقِلُ من طَوْرٍ إلى طَوْرٍ، وقد بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤] لكنَّ هذه الآيَةَ فيها دليلٌ على أنَّ الإنْسَانَ إذا تَقادَمَ في السِّنِّ فإنَّه يَرْجِعُ إلى الوَرَاءِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾.

يتفرَّعُ على الفائِدَةِ السَّابِقَةِ: أَنَّه ينبغي للإنْسَانِ أن يغْتَنِمَ فُرَصَ العُمُـرِ وقُوَّتَهُ وشَبابَهُ قبل أن يُنكَّسَ في الخَلْقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّنْديدُ بهؤلاءِ المُكَذِّبينَ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحَثُّ على التَّعَقُّلِ والتَّفَكُّـرِ وحُسْنِ التَّصَـرُّفِ حتى يكـونَ الإنْسَانُ من العُقَلاءِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ العَقْلَ غَيْرُ الذَّكاءِ؛ لأَنَّ الإِنْسَانَ قد يكونُ ذكيًّا ولكنَّه ليس بعاقِلٍ؛ لِقَـوْلِه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ومن المعْلومِ أَنَّ هـؤلاء عِنْدَهم مِن عَقْـلِ الإِدْرَاكِ والذَّكاءِ الشَّيْءُ الكَثِيرُ.



الآيــة (٦٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيـرِهِ: [﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ أي: النَّبِـيَّ ﴿ٱلشِّعْرَ﴾ رَدٌّ لِقَوْلِهِم: إنَّ ما أَتَى به مِنَ القُـرْآنِ شِعْرٌ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ يَسْهُل ﴿لَهُۥ﴾ الشِّعْرُ ﴿إِنْ هُوَ﴾ ليس الذي أَتَى به ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ مُظْهِرٌ لِلأحْكامِ وغَيْرِها].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥ﴾: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ (نا) تعـودُ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا الضَّمِيرُ (الهاء) فيَعُودُ إلى النَّبِيِّ ﷺ.

فإذا قال قائِلٌ: أينَ مَرْجِعُ الضَّميـرِ لأَنَّ كُلَّ الآياتِ السَّابِقَةِ ليس فيها ذِكْـرٌ للنَّبِيِّ ﷺ.

قلنا: إنَّ الضَّميرَ يُعْلَمُ مَرْجِعُه من السِّياقِ السَّابِقِ، أو السِّياقِ اللَّاحِقِ، وهذا يُشْبِهُ العَهْدَ الذِّكْرِيَّ في (أل)، أو مِنَ الفَهْمِ بحيث يكون الأمْرُ مَفْهُومًا عند المخاطَبِ، وهذا كالعَهْـد الذِّهْنِيِّ، وهنا يُعْلَمُ مَرْجِعُ الضَّميـرِ في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ومعلومٌ أنَّ الذي جاء بهـذا الذِّكْرِ والقُرْآنِ المُبينِ هو مُحَمَّـدٌ ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ أي: ما عَلَّمْنَا النَّبِيَّ ﷺ الشِّعْرَ؛ لأنَّ الشِّعْرَ لو عَلَّمه الله تعالى النَّبِيَّ ﷺ لكان في ذلك حُجَّةٌ لِلْمُبْطِلينَ المُكَذِّبينَ، ولقالوا: إنَّما هذا القُرْآن من جُمْلَةِ

الشِّعْرِ الذي عُلِّمَ إيَّاهُ؛ ولهذا لم يُعلَّمِ الشِّعْر، ولم يُعلَّمِ الكِتابَةَ؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] فالنَّبيُّ ﷺ لم يَقُلْ شِعْرًا أبدًا، وإذا قُدِّرَ أن جرى على لِسانِهِ كلامٌ مَوْزونٌ وَزْنَ الشِّعْرِ فإنَّه ليس عن قَصْدٍ وإرَادَةٍ، وإنَّمـا جاء عَفْوًا، والذي يأتِي عَفْوًا ليس مَقْصُودًا فلا يكونُ مَعْلومًا؛ مِثْل قَوْلِه ﷺ:

«أَنَـــا النَّبِـــيُّ لَا كَــذِبْ أَنَــا ابْــنُ عَبْــدِ الْمُطَّلِــبْ»(١)

فإنَّ هذا رَجَزٌ، ولكنَّه ليسَ عَنْ قَصْدٍ، فلا يكونُ ذلك شِعْرًا، أمَّا الشِّعْرُ فإنَّه الكَلامُ المَوْزُونُ المُقفَّى الذي يأخُذُ باللُّبِّ، وسُمِّيَ شِعْرًا لأنَّه يأخُذ بالشُّعُورِ؛ ولهذا تَجِدُ أنَّ النَّظْمَ يأخذ باللُّبِّ أكثرَ من أن يأخُذَ النَّثْرُ، فربَّما تَسْمَعُ خُطبةً بَليغةً جَيِّدةً جدًّا، وتَجِدُ ما يماثِلُها في المعاني بالنَّظْمِ ولكنَّكَ ترى أنَّ تأْثيرَ النَّظْمِ أَشَدُّ وَأَقْرَبُ للشُّعُورِ أكثَرَ؛ ولهذا سُمِّيَ شِعرًا، وبه نَعْرِفُ أنَّ ما يُسمَّى الآن بالشِّعْر المَنْثُورِ ليسَ بِشِعْرٍ؛ لأنَّه لا يأخُذُ بالمشاعِرِ، فهو ليس بِشِعْرٍ وليس بِنَثْرٍ، وإنَّما هو كالمنافِقِ لا إلى هَؤُلاءِ ولا إلى هَؤُلاءِ، لا يَطْرَبُ إليه مَنْ يَطْرَبونَ إلى النَّثْرِ والخُطَب، ولا يَطْرَبُ إليه من يطربونَ إلى الشِّعْرِ والقَصائِدِ، فهو في الحقِيقَةِ ليس بشَيْءٍ، ولكن لكلِّ امْرِئٍ مِن دَهْرِه ما تَعَوَّدَ، والذين أحدثوه يَطْرَبُون له، ويرون أنَّه أشَدُّ شَاعِرِيَّةً من شِعْرِ امْرِئِ القَيْسِ.

﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ردٌّ لِقَوْلِهم: (إنَّ ما أَتَى به منَ القُرْآنِ شِعْرٌ] والمُكذِّبون والذين يَقومُونَ ضِدَّ أيِّ إنْسَانٍ لا بُدَّ أن يَصِفُوا قولَهُ بالمعائِبِ؛ لأَجْلِ أن يُنفِّرَ النَّاسُ عنه، ولكن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة:٣٢]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الذَّارِيَاتِ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، كلُّ الرُّسُلِ وُصِفُوا بهذينِ الوَصْفَينِ مِنْ أعدائهم: السِّحْر، والجُنُون؛ ومُحَمَّدٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أيضًا وُصِفَ بذلك، وَصَفُوه بأنَّه ساحِرٌ، وشاعِرٌ، ومَجْنونٌ، وكاهِنٌ، وكَذَّابٌ، كلُّ ذلك من أجْلِ أن يُنَفِّروا النَّاس عنه، ولكنْ هل حَصَلَ الأمْرُ وهل نَفَرَ النَّاسُ؟ أبدًا؛ لأنَّ الحقَّ -والحَمْدُ لله- سيَعْلو مهما قُوبِلَ به من صَدَماتٍ فإنَّ العاقِبَةَ له.

فإذا قال قائل: هذا الوَصْفُ للرَّسولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هل يتعدَّى إلى أتْباعِهِ؟

فالجوابُ: نَعَمْ، كُلُّ ما وُصِفَتْ به الرُّسُلُ يُوصَفُ بِمِثْلِهِ أتْبَاعُهُمْ، ألم تَعْلَموا أنَّ المُجْرِمين إذا رَأَوُا المؤمنينَ يقولون: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢] يَصِفُونَهُم بالضَّلالِ، وفي عصرنا يَصِفونَهُم بالرَّجْعِيَّةِ والتَّأَخُّر وما أشبه ذلك من الكَلِمات التي يُنَفِّرون النَّاس بها عن الحَقِّ، وأَهْلُ البِدَعِ يَصِفُون أهل السُّنَّة والجَمَاعَةِ بألقابِ السُّوءِ؛ يقولون: إنَّهُم نَوابِتُ، غُثَاءٌ، حَشَوِيَّةٌ، مُجَسِّمَةٌ، مُشَبِّهَةٌ، وما أشبه ذلك، كلُّ هذا من أجْلِ التَّنْفيرِ عمَّا هم عليه.

ولكِنِ الحَمْدُ لله أنَّ الأمْرَ يكون ثوابًا لهؤلاء الذين يُوصَفُون بهذه العُيُوبِ، وامتحانًا لهم بالصَّبْرِ على ما هم عليه من الحَقِّ، ثم العاقِبَة تكون لهم، ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥ﴾ الشِّعْرُ، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ما يَسْهُلُ له الشِّعْرُ]. بل هو صعْبٌ عليه إنشاءً، وصَعْبٌ عليه إنشادًا، فهو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا أَنْشَدَ شِعْرَ غَيْرِه يُنْشِدُه أحيانًا على غَيْرِ الوَزْنِ المعروفِ؛ لأنَّه ليس له عِنايَةٌ بالشِّعْر أو تَحَفُّظٌ له، أمَّا بِنَفْسِه فلا يُنْشِدُ.

ولكنَّ الأَوْلَى أنْ نُفسِّرَ ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ أي: ما يُمْكِنُ ولا يَصْلُحُ له، ولا يَليقُ به؛ لأنَّه كلَّما جاءتْ في القُرْآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِي﴾ فالمُرادُ بها المُمْتَنِع غايَةَ الامْتِناعِ، كما في قوله

تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٢] أي: مُسْتَحيلٌ غايَةَ الاسْتِحالَةِ؛ ومثل قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ يعني هذا شَيْءٌ مُسْتَحيلٌ؛ أن تدْرِكَ القَمَرَ، هذا حَسَبَ العادة فيما يتعلَّقُ بالشَّمْسِ.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ما يُمْكِنُ ولا يليقُ به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يكون شاعِرًا، فلا يصِحُّ ولا يُمْكِنُ أن يُعَلَّمَ أو يَتَعَلَّمَ الشِّعْر؛ لأنَّ تَعَلُّمَه الشِّعْرَ يُوجِبُ احْتِجاجًا من المُبْطِلِينَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] فلو تعَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الشِّعْرَ لقالوا: إنَّ هذا القُرْآنَ شِعْرٌ مِمَّا تعلَّمَهُ.

سؤالٌ: لماذا وَصَفَ العَرَبُ الجاهِلِيُّونَ القُرْآنَ بالشِّعْرِ مع أنَّ الفَرْقَ بين الشِّعْرِ والنَّثْرِ واضِحٌ لدى عامَّتِهم فضلًا عن خَوَاصِّهِم؟

الجوابُ: المُبْطِلُ يُمَوِّهُ بكُلِّ شَيْءٍ، وإذا كَثُرتِ الدِّعاياتُ والكلامُ والقَوْلُ، فقد يَنْقَلِبُ الأَمْرُ، فهم يَعْرِفُونَ أنَّ هذا ليْسَ بشِعْرٍ، لكن قد يقولونَ: هذا شِعْرٌ على وَجْهٍ جَديدٍ وما أَشْبَهَ ذلك، يُرَوِّجونَ لِدِعايَتِهِم حتى يَشْتَبِهَ الأَمْرُ.

سؤال: يقولُ مَنْ يُرَوِّجُ للشِّعْرِ الحَديثِ: إنَّ الشِّعْرَ كان عندَ العَرَبِ بهذا الشَّكْلِ بدليلِ أنَّهُم نَعَتُوا القُرْآنَ بالشِّعْرِ وليس موزونًا ولا مُقَفًّى؟

الجواب: هذا من بابِ التَّرْويجِ؛ ولِهَذا لا تَسْتَطِيعُ أنْ تأتِيَ بقصيدةٍ واحِدَةٍ أبدًا على مِثْلِ شِعْرِهِمْ هذا.

كما أنَّه لو كان يَكْتُبُ لقالوا إنَّ هذا شيءٌ مِمَّا كَتَبَهُ. ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ليس الذي أَتَى به إلا ذِكْرًا] فأفادنا بأنَّ (إنْ) هنا نافيةٌ، أي:

ما هو إلا ذِكْرٌ، و(إنْ) تأتي لعدَّةِ معانٍ: تأتي زائدة، وشَرْطِيَّة، ونافِيَة، ومخفَّفَةً من الثَّقيلَةِ، والذي يُعَيِّن المعانِيَ المتَعَدِّدَةَ في الكَلِمَةِ الواحِدَة هو السِّياق، وهذه قاعِدةٌ في كلِّ كَلِمَةٍ ذاتِ معانٍ متعدِّدةٍ؛ أنَّه يُعَيِّنُها السِّياقُ وقَرِينَةُ الحالِ، وهي هنا نافِيَةٌ.

قال: ﴿هُوَ﴾ الضَّميرُ يعود على المصْدَرِ المفْهُومِ من ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾، وكونُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ مَصْدَرًا معلومًا من الفِعْلِ السَّابِقِ أَمْرٌ لا يُسْتَغْرَبُ، ألَمْ تَرَ إلى قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، ﴿هُوَ﴾ أي: العَدْلُ المفْهُومُ من كَلِمَةِ: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، وهنا ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ما الذي عَلَّمْنَاهُ إلا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ. قوله: ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عِظَةٌ] يعني مَوْعِظَة يتذَكَّرُ بها مَن تَذَكَّرَ، والذي يتذَكَّرُ بها القُرْآن بيَّنَه الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق:٣٧].

وهذا باعْتِبارِ الاسْتِعْدادِ والقَبُولِ، وجاء في آياتٍ أُخرى ما يدُلُّ على أنَّ كُلَّ المتَّقينَ يَتَّعِظونَ بهذا القُرْآنِ، فيكونُ فيه بيانٌ للذينَ يَتَّعِظونَ به من حيثُ السُّلُوكُ، ففي سورة (ق) بيانُ الذين يتَّعِظُون به من حيثُ القَبُولُ والاسْتِعْدادُ بالتَّذَكُّرِ، وفي الآيات الأخرى التي تَرْبِطُ التَّذَكُّرَ بالقُرْآن بالإيمانِ والتقوى وما أشْبَهَ ذلك؛ دليلٌ على من يتَّعِظُ به من حيثُ السُّلُوكُ والعَمَلُ، وكلَّما ازدادَ الإنْسَانُ عَمَلًا بالقُرْآن ازدادَ تَذَكُّرًا به.

وهذا الذي ذَكَرَهُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنَى الذِّكْرِ هو أَحَدُ المعانِي؛ لأنَّ الذِّكْرَ الذي وُصِفَ به القُرْآنُ يتضَمَّنُ عِدَّةَ مَعانٍ:

المعنى الأوَّل: ما ذكره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو العِظَةُ والتَّذَكُّرُ به.

المعنى الثاني: أنَّه ذِكْرٌ يُذْكَرُ به اللهُ، وهو أشْرَفُ أنواعِ الذِّكْرِ؛ لأنَّ القُرْآنَ

كَلامُ الله عَزَّوَجَلَّ، فبمُجرَّدِ ما تَتْلوهُ وأنت تَشْعُرُ أَنَّه كلامُ الله سوف تَذْكُرُ عظَمَتَه عَزَّوَجَلَّ؛ ولأنَّ القُرْآنَ يَشْتَمِلُ على أخبارٍ هي أَصْدَقُ الأَخْبارِ وأَنْفَعُها للقُلُوبِ؛ ولأنَّه يَشْتَمِلُ على قَصَصٍ هي أَحْسَنُ القَصَصِ وأَجْمَلُها وأَتَمُّها؛ ولأنَّه يَشْتَمِلُ على أحكامٍ من لَدُنْ حكيمٍ خَبيرٍ، هي أَعْدَلُ الأَحْكامِ وأَقْوَمُها لمصالِحِ العِبادِ؛ ولأنَّه يشتَمِلُ على أوصافِ الله تعالى وأسمائِهِ التي هي أَفْضَلُ الأسماءِ وأَشْرَفُ الأَوْصافِ، وكلُّ هذا ذِكْرٌ، فالقُرْآنُ نَفْسُه ذِكْرٌ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه يَشْتَمِلُ على كلِّ هذه المعانِي التي بيَّنَها الله تعالى في كِتابِهِ.

المعنى الثَّالِث: أنَّه رِفعَةٌ وشَرَفٌ لمن يقومُ به ويَعْمَلُ به؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤] والذِّكْرُ بِمَعْنَى الرِّفْعَةِ والشَّرَفِ موجُودٌ في القُرْآنِ؛ كما في الآية السَّابِقَةِ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] أي: ذِكْرَك بالشَّرَفِ والتَّبْجِيلِ والتَّعْظِيمِ، ولا شكَّ أنَّ من تمسَّك بالقُرْآنِ فإنَّ له الشَّرَفَ والسِّيادَةَ على جَميعِ الخَلْقِ.

ولهذا فإني أَحُثُّكُم على أن تمسَّكُوا بهذا القُرْآنِ العَظِيمِ، وإذا تمسَّكْتُم به عقيدةً وعَمَلًا وهَدْيًا، فستكونُ العاقِبَةُ لكم، ولا تَظُنُّوا أنَّكم قَلِيلونَ -لو كُنْتُم قَلِيلينَ- فإنَّ الاهْتِداءَ بالقُرْآن يَسْتَلْزِم أن يَنجَذِبَ النَّاس للمُهْتَدي به حتى يَكْثُروا شَيْئًا فَشَيْئًا، كالحَجَرِ تُلْقيهِ في اليَمِّ ثم تتَّسِعُ الدَّائِرَةُ حتى تَشْمَلَ اليَمَّ كُلَّهُ.

فالحاصِلُ: أنَّ الإنْسانَ إذا تمسَّكَ بهذا القُرْآنِ الكريمِ فَسَوْفَ يكون له الشَّرَفُ والسِّيادَةُ والظُّهور على جَميعِ الخَلْقِ.

قال: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ قُرْآنٌ يُحتَمَلُ أن يكون بمعنَى مَفْعولٍ، وأن يكون بِمَعْنَى فاعِلٍ؛ لأن قُرْآنًا مَصْدَرٌ؛ مثل: الشُّكْرانِ، والغُفْران، والنُّكْرانِ، وما أَشْبَهَها، والمصْدَرُ

يأتِي بِمعنَى اسْمِ الفاعِلِ، ويأتي بِمَعْنَى اسم المفعول، وعلى هذا فهو قارِئٌ ومَقْروءٌ، أَمَّا كَوْنُهُ قارئًا فلأَنَّه من القَرْءِ يعني الجَمْعِ فهو جامِعٌ للأَحْكامِ والأَخْلاقِ والآدابِ الموْجُودة في الكُتُـبِ السابِقَة قَبْلَه؛ كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨]، وجامِعٌ أيضًا لكلِّ ما تَقُومُ به أُمُور الدُّنْيَا وأُمُورُ الآخِرَة، وهو أيضًا مقروءٌ أي: مَتْلُوٌّ؛ لأَنَّه يُتْلَى، والقِراءَةُ بِمَعْنَى التِّلاوَةِ.

﴿مُّبِينٌ﴾ قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُظْهِرٌ للأَحْكامِ وغيـرها] فـ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا من (أَبانَ) بِمَعْنَى أَظْهَرَ، وقد سبق لنا مِرارًا أن (أبان) يكون لازمًا، ويكون متَعَدِّيًا، يكون لازمًا بِمَعْنَى ظَهَرَ، وهو كثير في القُرْآن؛ مِثْل: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤] أي: بَيِّنٍ ظاهِـرٍ، وتأتي مُبِينٌ من (أبان) بِمَعْنَى أَظْهَـرَ؛ أي: المتَعَدِّي كما في الآية: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي مُظْهِرٌ؛ مُظْهِرٌ للأحكامِ وغَيْرِ الأَحْكامِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل:٨٩].

فما من شَيْء يحتاجُ النَّاسُ إليه إلا وُجِدَ في القُرْآنِ، لكنْ وُجُودُهُ في القُرْآن: إمَّا أن يكونَ على وَجْهٍ صَرِيحٍ، أو على وَجْهٍ ظاهِرٍ، أو على وَجْهِ الإيماءِ والإشارَةِ، أو على وَجْهِ الشُّمُول والعُمُوم، أو على وَجْهِ اللُّزُومِ.

فالمُهِمُّ: أنَّ القُرْآنَ مُبِينٌ لكلِّ شَيْءٍ، تارة يُذْكَرُ الدَّليلُ على المسْأَلَةِ، وتارة يُذْكَرُ التَّوْجيهُ إلى الدَّليلِ.

فمثلًا: هناك مسائِلُ لا تُوجَدُ في القُرْآنِ وهي من أهَمِّ أحكامِ الإسلامِ كَعَدَدِ الرَّكَعاتِ في الصَّلَواتِ، وتقديرِ أَنْصِبَةِ الزَّكاةِ، وما يَجِـبُ فيها، وما أَشْبَهَهَا لكنْ في

القُرْآن ما يُشِيرُ إليه؛ مِثْل قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧] فهذه الآيةُ إذا وَجَّهْتَها إلى السُّنَّة شَمِلَتْ جميعَ السُّنَّة، وشَرْعُنا كُلُّه لا يعدو الكِتابَ والسُّنَّة.

إِذَن: فالقُرْآنُ مُبينٌ لِكُلِّ شَيْء، وهو أيضًا مُبينٌ لكُلِّ ما سَبَقَنا من الحوادثِ التي يكون في بيانِها مصلحة كقَصَصِ الأنبياء، وقَصَص الأولياءِ، وقَصَص المُكَذِّبين للرُّسُل وغير ذلك، فكلُّ ما سبق مِمَّا فيه مصلَحَةٌ لنا فهو مذكور.

أمَّا ما ليس فيه مصلحَةٌ فإنَّه لا حاجة إلى ذكره، وقد يكون هذا الشَّيْء الذي لم يُذْكَر موكولًا إلى عُقُول النَّاس وتَجارِبِهِم، كما في كثير من طبائعِ الأشياءِ؛ الأُمُور الطَّبيعيَّة سواء الفَلَكِيَّة أو الجُيُولُوجِيَّة أو غير ذلك؛ نَجِدُ أنَّ القُرْآن لم يُفَصِّلها ولم يُبَيِّنْها؛ لأنَّه ليس فيها فائِدَةٌ، فائدتُها تكْمُنُ في أنَّ النَّاس يَطْلبونَها ويَنْظُرونَ في آياتِ الله، ويَتَحَرَّكونَ حتى يُدْرِكُوها.

ولهذا تجد بعضَ المسائِلِ التي يتنازَعُ فيها النَّاسُ كمَسْألَةِ دَوَرانِ الأَرْضِ ليست موُجُودةً في القُرْآن على وَجْهٍ صريح، ولو كان هذا مِمَّا يتعَيَّنُ علينا اعتقادُهُ إثباتًا أو نَفْيًا لكان الله عَزَّوَجَلَّ يُبَيِّنُه بيانًا واضحًا كما بيَّنَ الأُمُور التي لا بدَّ لنا من الاعتقادِ فيها على وجْهٍ صريحٍ.

إِذَن: هذه موكولةٌ للنَّاسِ، واستخراجِ ما في الأَرْضِ من المعادِنِ وغَيْرِها من المصالِحِ العَظيمَةِ التي لم يُطَّلَعْ عليها إلا أخيرًا، هذه أيضًا لم تُذكَر في القُرْآن، وإن كان في القُرْآن إشارةٌ إليها، لكنَّها لم تُذكَر على وجهِ التَّفصيلِ، بل قال الله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد:٤] وقِطَعٌ من صيغِ جُمُوعِ التَّكْثيرِ لو تقول: (إنَّها مَلايينُ القِطَع) لم يخرجْ عن دَلالَتِها، هذه القِطَع لولا أنَّها تختلِفُ في منافِعِها وذَوَاتها وكلِّ ما يتعلَّق بها

ما قال الله: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ إِذَن هي مُتبايِنةٌ.

وفي هذه الآية تستطيع أن تقولَ: إنَّ الله أرْشَدَنا إلى استِخْراجِ المعادِنِ من الأَرْض؛ لأنَّ الله بيَّنَ أنَّها قِطَعٌ، وليست القِطَع التي فوق التُّرابِ فقط، فهناك أشياءُ كثيرةٌ ما تُعلَمُ وربَّما تُعلَم في المستقبل، ورُبَّما بعضُها عُلِمَ الآن، فالقُرْآنُ مُبِينٌ لكلِّ شَيْءٍ، وإذا تدبَّرْتَ القُرْآن مَرَّة بعدَ أخرى لا تُعيدُ التَّدبُّر مَرَّة ثانيةً إلا ظهر لك معنًى جديدٌ غيرُ الأول، ولا يُمْكِنُ لأحد أن يُحيطَ بمعاني القُرْآن، لكنْ كلَّما تدبَّرَه الإِنْسَانُ طالبًا للحَقِّ، مريدًا للصَّوابِ فإنَّه يهتدي إلى معانٍ كثيرةٍ.

سُئل عليُّ بنُ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هل عَهِدَ إليكم رسولُ الله ﷺ بشَيْءٍ -لأنَّه كان يُرَوَّجُ في ذلك الوقت- من وقت عَلِيٍّ والشِّيعَةُ يُرَوِّجونَ بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَهِدَ بالخلافة لعَلِيِّ بنِ أبي طالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فسُئِلَ هل عَهِدَ إليكم رسولُ الله ﷺ بشَيْءٍ؟ يعني من الخِلافَةِ، أو من العُلُوم التي كتَمَها عن النَّاس؟ فقال: لا، والذي بَرَأَ النَّسَمَةَ وفَلَقَ الحَبَّةَ إلا فهمًا يُؤْتيهِ اللهُ تعالى من شاءَ في كِتابِهِ، وما في هذه الصَّحيفَةِ، والذي في هذه الصحيفة العَقْلُ، وفكَاكُ الأسيرِ، وألَّا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكافِرٍ[(١)].

الشَّاهِدُ قوله: «إلا فَهْمًا يُؤتيهِ الله تعالى مَن شاء مِن كِتابِهِ» وهذا الفَهْمُ يختَلِفُ فيه النَّاس اختلافًا كثيرًا جدًّا جدًّا، ترى بعض العُلَماءِ يتكلَّمُ عن آيةٍ يستخْرِجُ منها فوائِدَ محْدودةً مَعْدودةً، وترى آخَرَ يتكلَّم عليها ويستخْرِجُ منها أضْعافًا مُضاعَفةً بالنِّسْبَة لما اسْتَخْرَجَه الأوَّلُ، وكل هذا بِحَسَب استعدادِ الإِنْسَانِ وفَهْمِه وبَصيرَتِه، وكلَّما ازدادَ الإِنْسَانُ إيمانًا وتقوى ازدادَ هدًى بالقُرْآنِ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب كتاب العلم، رقم (١١١)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل المدينة، رقم (١٣٧٠)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيَةِ رَدٌّ وتكذيبٌ للمُشْرِكينَ الذين قالوا: إنَّ محمَّدًا ﷺ شاعِرٌ؛ حيثُ قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه لا يصْلُح ولا يَليقُ برسولِ الله ﷺ أن يكونَ شاعـرًا؛ لأنَّ مَقامَ النُّبُوَّةِ أسْمَى وأعلى من أن يَنْحَطَّ الإنْسَانُ إلى رُتْبَةِ الشُّعَراءِ.

وقد يُقَالُ: إنَّ فيها ملاحَظَةَ البُعْدِ عن الشُّبَه؛ بِمَعْنَى أنَّه ينبغي للإنْسَان أن يَبْتَعِدَ عن كُلِّ ما يُوجِبُ الشُّبْهَة حولَه، فمقامُ النُّبُوَّة الذي ادُّعِيَ فيه أنَّه شِعْرٌ ينبغي أن يبتعِدَ الإنْسَانُ عما يُوجِـبُ هذه الشُّبْهَة، ويؤيد هذا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كان يمشي مع صَفِيَّةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا فمَرَّ به رجلانِ فأَسْرَعا فقال: «**عَلَى رِسْلِكُمَا؛ فَإِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**»(١) وهذه فائِدَةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّ بعضَ النَّاسِ يقول: ما دُمْتُ نزيهًا فلا يَهُمُّني أن يُسِيءَ النَّاسُ الظَّنَّ بي، وهذا ليس بِصَحيحٍ، وليسَ من حُسْنِ الرِّعايَةِ لِنَفْسِه أن يَنْزِلَ بها إلى هذا الحَدِّ، بل الإنْسَانُ مَأْمُورٌ أن يَدْفَعَ عن نَفْسِه الشُّبُهاتِ واللَّوْمَ والظَّنَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا القُرْآنَ العظيمَ الذي عُلِّمَه رسولُ الله ﷺ ذِكْرٌ، وقد تقدَّمَ في التَّفْسيرِ أنَّه ذِكْرٌ من ثلاثةَ أَوْجُهٍ.

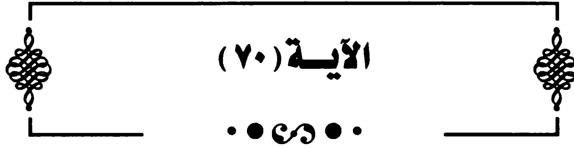
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه كلَّما تَمَسَّكَ المسْلِمونَ بهذا الكتابِ العَزيزِ فإنَّهُم يَزْدَادونَ عِزَّةً وشَـرَفًا؛ لأنَّ المعَلَّقَ على وصْفٍ يَقْوَى بِقُوَّةِ ذلك الوصْفِ، ويضْعُف بِضَعْفِ ذلك الوَصْفِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب بيان أن يستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجة... أن يقول: هذه فلانة، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا القُرْآنَ مُبِينٌ لِكُلِّ شَيْء، فكلُّ شَيْءٍ يحتاجُ النَّاسُ إليه فهو مُبَيَّنٌ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.





قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

•••

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [باليَاءِ والتَّاءِ] ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالياءِ الضَّمِيرُ يَعودُ على القُرْآنِ (لِتُنْذِرَ) الضَّميرُ يَعودُ على رَسُولِ الله ﷺ، لكنْ على قِراءَةِ التَّاءِ قَدَّرَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِتُنْذِرَ بِهِ] فكَلِمَةُ [به] تعودُ على القِراءَةِ الثَّانِيَة وهي: «لِتُنْذِرَ» أمَّا القِراءَةُ الأولى ﴿لِيُنذِرَ﴾ فلا تَحْتاجُ إلى هذا التَّقْدِيرِ، ولا شَكَّ أنَّ القُرْآنَ نفسَهُ مُنْذِرٌ، وأنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُنْذِرٌ به، فالقُرْآنُ فيه وَعِيدٌ، وفيه أوْصافٌ لِمَن يَسْتَحِقُّ هذا الوعيدَ، وهذا هو الإنْذارُ، كما أنَّ فيه بشارَةً وأوصافًا للمُبَشَّرينَ، وهذا هو التَّبْشيرُ، فالقُرْآنُ فيه بِشارَةٌ وفيه إنذارٌ، والنَّبِيُّ ﷺ جاء بالقُرْآنِ، وأنْذَرَ به، وخَوَّفَ به، ورَغَّبَ به ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَعْقِل ما يُخاطب به وهم المؤْمِنونَ] ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ هل المُراد هنا بالحَياةِ الحَياةُ المعْنَوِيَّة التي هي حياةُ القَلْبِ، أو الحَياةُ الحِسِّيَّة التي هي حياةُ الجِسْمِ؟

الظَّاهِرُ أنَّه يشْمَلُ الأمرينِ؛ ولهذا قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: من كان حيًّا على وَجْهِ الأَرْضِ؛ يعني من كان حيًّا حياةً جِسْمِيَّةً؛ لأن رسالَةَ الرَّسُولِ ﷺ رسالةٌ عامَّةٌ لجَميعِ الخَلْقِ، فهو يُنْذِرُ من كان حيًّا؛ أي: يُنْذِرُ كُلَّ حَيٍّ، أو من كان حيًّا حياةً مَعْنَوِيَّة يعني حياةَ القلب؛ لأنَّ حَيًّا يُرادُ به من يعقِلُ ويتبَصَّر ويُؤْمِن، وعَكْسُه المَيِّتُ؛ مَيِّتُ

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٢٨).

الجِسْمِ، ومَيِّتُ القلب، أَمَّا مَيِّتُ الجِسْمِ فلا يُمْكِنُ إنذارُهُ بالقُرْآن؛ لأَنَّه انتقَلَ إلى دارِ الجَزاءِ، ولا يُمْكِنُ أن يَفْهَم ولا يَعْلَم.

وأَمَّا مَيِّتُ القلب فلأَنَّه طُبِعَ على قَلْبِه -والعِيَاذُ بالله- فلا يَصِلُ إليه النُّورُ ولا يَصِلُ إليه الحَقُّ ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالعَذَابِ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهُم كالمَيِّتِينَ لا يعقِلونَ ما يُخاطَبونَ به]، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كان المتوَقَّع أن يُقالَ: ويَحِقَّ القَوْلُ على من كان مَيِّتًا، أو على الأمْوَاتِ؛ لأنَّ هذا مُقتضَى المقابَلَةِ، لكن عُدِلَ عن هذا إلى ذِكْرِ الكافرينَ؛ فقال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وفائِدَةُ العُدُولِ عن ذِكْرِ المقابِلِ بلَفْظِه أمران:

الأمر الأَوَّلُ: أنَّ المُرَادَ بالمَيِّتِ الكافِرُ، وأنَّ الكافِرَ لا يُمْكِنُ أن ينتَفِعَ بالقُرْآنِ.

الثاني: التَّسْجِيلُ على أنَّ مَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بالقُرْآنِ فهو كافِرٌ، ومَنِ انْتَفَع به في شَيْءٍ دون آخَرَ ففيه خَصْلَةٌ من خصال الكُفْر؛ ولهذا كل مَعْصِيَةٍ فهي من خِصالِ الكُفْرِ، لكنَّها قد تكونُ قليلةً، وقد تكون كثيرةً، فلهذا عَدَلَ الله عَزَّوَجَلَّ -والله أعلم- عن هذا إلى قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون قولِهِ: (ويَحِقَّ القَولُ على المَيِّتِينَ) بل قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومن الأمثلة على هذا: -وهو كثير بالقُرْآن- قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر:٢٠] لم يقل: (يَقْضُونَ بالبَاطِلِ) بل قال: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ ليَشْمَلَ البَاطِلَ وغَيْرَ الباطِلِ، يعني ليس لهم قضاءٌ إطلاقًا؛ لأنَّهم مَرْبوبونَ مَملوكونَ فلا يَقْضونَ بشَيْء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القُرْآنَ الكَريمَ لا يَنْتَفِعُ به ويَنْتَذِرُ إلا من كان حيًّا؛ أي: حَيَّ القَلْبِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ من كان مَيِّتَ القلْبِ -والعِياذُ بالله- فإنَّه لا يَنْتَفِعُ بالقُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ القُرْآنَ الكَريمَ حُجَّةٌ على الكافِرينَ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنَّه لن يَحِقَّ عليهم القَوْلُ إلا بعد أن تَقومَ عليهم الحُجَّةُ، ويكونَ كُفْرُهُم عن عِنادٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الكافر لا يَنْتَفِعُ بالقُرْآن وإنَّما يكون حُجَّةً عليه، وهكذا كلُّ من كان فيه خَصْلَة من خِصالِ الكُفْرِ؛ فإنَّه يضْعُفُ انتفاعُه بالقُرْآنِ وانْتِذارُهُ به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العِلَّة، وإن شِئْتَ فقل: الحِكْمَة؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ اللام؛ وكلَّما رأَيْتَ التعليلَ في كتابِ الله عَزَّوَجَلَّ فهو مُثْبِتٌ للحِكْمَة في أفعالِهِ تعالى ومَشْروعاتِهِ.



الآيــة (٧١)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١].

• • • •

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ الاسْتِفْهامُ هنا للتَّقريـر؛ لأَنَّه كلَّما دخل الاسْتِفْهامُ على نَفْيٍ فهو للتَّقْرِيرِ، سواءٌ كانت أداة النَّفْيِ حرفًا مثل: (لم)، أو فعلًا مثل: (ليس) فالاسْتِفْهامُ هنا للتَّقْرِيرِ، والواو حرفُ عطف، والمعطوفُ عليه ما سَبَقَ، أو أنَّ المعطوف عليه مُقدَّرٌ بين الهمزة والواو بِحَسَب ما يقتضيه السِّياقُ، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَرَوْاْ﴾ يَعْلَموا] ففَسَّـرَ الرؤْيَةَ هنا برؤْيَةِ العِلْمِ، ويُمْكِنُ أن يُرادَ بها رؤْيَةُ البَصَر، ورؤيةُ البَصَرِ أَشَدُّ وأقوى في التَّقريرِ مِن رُؤْيَةِ العِلْمِ؛ لأنَّ رُؤْيَةَ العِلْمِ قد يُنْكِرها الإنْسَانُ، فيقول: أنا لا أعْلَم هذا، لكنَّ رُؤْيَةَ البصر إذا كان الشَّيْء أمامه لا يُمْكِنُه أن يُنْكِرَ، والحقيقةُ أنَّها محتَملَةٌ لهذا وهذا.

فباعتبارِ أنَّ الله خَلَقَ هذه الأشياء، لا شَكَّ أنَّها رُؤْيَةُ علْمٍ؛ لأَنَّنا لم نَشْهَد خَلْقَ هذه الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف:٥١].

وباعتبارِ المخْلوقِ رُؤْيَةُ بَصَرٍ؛ لأَنَّه يشاهَدُ ويُعلَم ولا يُمْكِنُ إنكارُه، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والاسْتِفْهامُ للتَّقْريـرِ، والواو الداخِلَة عليها للعَطْـفِ] هل الواوُ داخلَـةٌ

أو مَدْخولَةٌ؟ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [الواوُ على الهَمْزَة] لكن نقول: دخلت الهمزة على الواو.

فإذا قلت: (سوف يَقُومُ) فإن سوف دَخَلَتْ على يقوم، فالدَّاخِلُ هو الأَوَّلُ، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: الواوُ الداخِلَة عليها، يُشيرُ إلى القَوْلِ الثاني في مثل هذا التَّرْكِيب، وهو أنَّ التَّقْدِير: (وَأَلَم يروا أَنَّا خَلَقْنا لَهُم) وهذا أَحَدُ القولَين، فهنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الواو داخِلَةً على الهمزة، والواقِعُ أنَّ الهمزة حَسَبَ التَّرتيبِ داخلَةٌ على الواو، ولكنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّ في المسألة تقديمًا وتأخيرًا، وأنَّ الواو داخِلَةٌ على الهمزة في الأصْلِ، فأصله (وَأَلَمْ يَرَوْا) ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ قال: [في جُمْلَةِ النَّاس ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ عَمِلْناه بلا شَريكٍ ولا مُعينٍ].

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي أَوْجَدْنا لهم من العَدَم أنعامًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُخْتَصٌّ بالخَلْقِ، فلا خالِقَ إلا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإضافَةُ الخَلْقِ إلى المخلوق ليسَ على سبيلِ الإضافَةِ بالنِّسْبَةِ إلى الله تعالى؛ لأنَّ خلْقَ الله تعالى للأشياءِ خَلْقُ إيجادٍ مِنْ عَدَمٍ، وخلقَ المخلوقِ للأشياءِ ليس خَلْقَ إيجادٍ، ولكنَّه خَلْقُ تَغْييرٍ من حالٍ إلى حالٍ، أو من وَصْفٍ إلى وَصْفٍ، فإذا نَجَرْتَ الخَشَبَةَ بابًا فقد خَلَقْتَها بابًا، لكنْ هل أَنْتَ أوجَدْتَ هذه الخَشَبَةَ؟

الجواب: لا، لكن صيَّرْتَها إلى هَيْئَةٍ مُعَيَّنَةٍ، وهذا نوعٌ من الخَلْقِ، ولهذا يُقَالُ: للمُصَوِّرينَ يومَ القِيامَةِ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ، مع أَنَّهُم لم يوجِدوا الصُّورةَ من عَدَمٍ، لكن غَيَّروا ونَقَلوا من حالٍ إلى حالٍ، فالخَلْقُ الخاصُّ بالله هو خَلْقُ الإيجادِ، أمَّا الخَلْقُ الذي يكون من المخلوقِ فما هو إلا تَغْييرٌ وتَحْويلٌ فقط.

﴿لَهُم﴾ اللام في ﴿لَهُم﴾ للاسْتِحْقاقِ، ويصلُحُ أن تكـون للْمِلْكِ كما سيأتي في الآية نَفْسِها.

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ أي؛ مِمَّا عَمِلْنا، وليس المعنى أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خلَقَ هذه الأنْعامَ بيـده، لو كان أرادَ ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكان الواقِعُ كذلك لقال: (مِمَّا عَمِلْنا بأيدينا) كما قال تعالى في آدمَ يُخاطِـبُ إبليـسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] فهنا أضاف الخَلْقَ إلى نَفْسِه وجعل المخلوقَ به اليَدَ، أمَّا هنا فأضاف العَمَلَ إلى اليَدِ ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠] وما أَشْبَهَها مما يضافُ فيه الفِعْل إلى اليَـدِ، والمُرَاد الإنْسَانُ، كذلك هنا أضاف الله تعالى العَمَل إلى يديه والمُرَاد نَفْسُه؛ أي: مما عَمِلْنا، ولو قلنا: بأَنَّه خلقَها بيده لكانت الأنعامُ أَشْرَف من الأَنْبِيَاءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

وهنا قال: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ بالجَمْع فهل الله عَزَّوَجَلَّ له أكثَرُ من يدينِ؟

الجواب: لا، ليس لله أكثـرُ من يدَينِ، ليس له إلا يدانِ اثْنَتانِ، وجُمِعَ هنا من أجل المناسَبَةِ؛ لأنَّ الأفْصَحَ في المثنَّى إذا أضيـفَ إلى جَمْعٍ الجَمْعُ، أَلَمْ تَرَ إلى قول الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] مع أَنَّه ليس للإنْسَانِ إلا قَلْبٌ واحد؛ فهنا لما أضافه إلى الضَّميـر المفيدِ للجَمْعِ -وهنا للتَّعْظِيمِ بلا شَكٍّ- ناسَـبَ الجَمْعَ، وأيضًا فإنَّ الجَمْعَ أبلَـغُ في التَّعْظيمِ فلهذا جُمِعَـت، وأيضًا فإنَّ هـذه الأنعامَ لا يُحْصيها إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فهي جُمُوعٌ كثيرةٌ، كُلُّ واحدٍ منها يحتاجُ إلى فِعْلٍ خاصٍّ؛ لأنَّ لِكُلِّ واحدةٍ خَلْقٌ خاصٌّ، فجُمِعَ أيضًا باعتبار المعْمولِ الذي هو هذه الأنعامُ.

وعلى كلِّ حالٍ: فهـذه الآيةُ لا شـكَّ أنَّها تُفيدُ إثْباتَ اليَـدِ لله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّها لا تُفيدُ أنَّه له أكْثَرُ من يَدَينِ؛ لِمَا تقدَّمَ من وُجُوه الجَمْعِ.

فإذا قال قائل: ما هو الدَّليلُ على أَنَّه ليس لله إلا يَدانِ اثنتانِ؟

قلنا: الدليلُ أنَّ الله تعالى تَمَدَّحَ بهما في مقامِ المدْحِ والعَطاءِ والرِّزْقِ، ولو كان له أكثَرُ من ذلك لذَكَرَها لاقتضاء المقامِ إياه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤] ولو كان له أكثَرُ من واحدةٍ لقال: (بل أَيْديهِ) لأَنَّه بلا شكٍّ كلَّما كَثُـرَت الأيدي كَثُـر العَطاءُ؛ وهذا باعتبارِ المخْلوقِ، أمَّا الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ فعَطاؤُه لا يَنْفَدُ ولا يُعَدُّ، وليس له إلا يَدانِ اثنتانِ، هذا ما عليه أهلُ السُّنَّة والجَماعَةِ.

﴿أَنْعَـٰمًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي الإبِلُ والبقَرُ والغَنَمُ] كأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّها بالإبِلِ والبقَـرِ والغَنَمِ؛ لِقَـوْلِه تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١]. ولو قيل: إنَّ الآية أعَمُّ من ذلك؛ لأَنَّه قد يكون هناك حيـواناتٌ يَحْصُل بها من المنافِعِ ما يَحْصُلُ بهذه الأشياءِ الثلاثَةِ: الإبِلِ والبقَرِ والغَنَمِ.

﴿فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ الفاءُ مُفَرَّعَة على قوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: فعلى كَوْنِها خُلِقَت لهم ولمصالِحِهم هم لها مالكون، وأتى بالجُمْلَة الاسْمِيَّة للدَّلالَةِ على الثُّبُوت والاسْتِمْرارِ، أي: إنَّ هذا المُلْكَ مُسْتَمِرٌّ، وهذا المُلْكُ الذي ذكره الله عَزَّوَجَلَّ يقول فيه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ضابطون] فهُو من مِلْك التَّصَرُّفِ، وليس من المِلْكِ الشَّرْعِيِّ الذي يَحْصُل بالبَيْعِ والشِّراءِ والهِبَة وما أشبهها؛ أي: إنَّهُم يملكونها ويَضْبِطونَها ويتصَرَّفونَ فيها كما شاؤُوا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تقريرُ نِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ على عِبادِهِ، بهـذه الأنْعامِ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه الأنعامَ مِلْكٌ لنا نَنْتَفِعُ بها بجَمِيعِ وُجُوهِ الانتِفاعاتِ؛ لِقَوْلِه: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ فكُلُّ وُجُوهِ الانتفاعاتِ فإنَّه يجوز لنا أن نَنْتَفِعَ بها؛ لأنَّها ما دامت لنا فنَحْنُ فيها أحرارٌ إلا ما قام الدَّليلُ على مَنْعِه.

ويتفرَّعُ على هذه الفائدَةِ: أنَّه يجوز أن نَرْكَبَ ما لم تَجْرِ العادَةُ بِرُكُوبِهِ؛ مثل أن نركَبَ البَقَرَ؛ ولهذا قال الفقهاء: يجوز الانتفاعُ بهذه الحيواناتِ في غَيْرِ ما خُلِقَتْ له.

فإن قلت: ما الجَوابُ عن الحديثِ الصَّحِيحِ: بَيْنَما رَجُلٌ راكِبٌ بَقَرَةً يَسُوقُها؛ إذِ الْتَفَتَتْ إليه، فقالَتْ له: إنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذا؛ قال النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَنَا أُؤْمِنُ بِذَلِكَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»(١).

فالجواب على هذا أن نقول: إنَّ هذا الرَّجُلَ رَكِبَها ركوبًا يَشُقُّ عليها، وهي ما خُلِقَتْ لِتُعَذَّبَ، وهو كذلك، حتى لو أنَّ الإنْسَانَ رَكِبَ الإِبِلَ على وَجْهٍ يُعَذِّبُها قلنا له: إنَّها لم تُخْلَقْ لِهَذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: صِحَّةُ نِسبَةِ العَمَلِ إلى الله؛ لِقَوْلِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ لكن لا يُسمَّى الله بالعامِلِ، كما لا يسمَّى بالصانِعِ أخذًا من قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨] وذلك لأنَّ بابَ الخَبَرِ أَوْسَعُ من بابِ الإنْشاءِ والتَّسْمِيَةِ؛ فيجوزُ أن نَشْتَقَّ من كُلِّ اسْمٍ صِفَةً، ولا يَجوزُ أن نَشْتَقَّ من كلِّ صِفَةٍ اسْمًا؛ ولهذا نقول: (الصِّفَاتُ أَوْسَعُ من الأَسْماء)، أي بابُ صِفاتِ الله أَوْسَعُ من بابِ الأسْماء؛ لأنَّ كُلَّ اسْمٍ مُتَضَمِّنٌ لِصِفَةٍ، وليست كلُّ صِفَةٍ تتضَمَّنُ اسْمًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المزارعة، باب استعمال بقر للحراثة، رقم (٢٣٢٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ اليَدِ لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ وهذه اليَدُ التي أضافها إلى نفسِهِ يَدٌ حقيقِيَّةٌ ثابتَةٌ، ولكن بدون أن تكون مُماثِلَةً لأيدي المخْلوقينَ؛ لأنَّ مُماثَلَةَ الخالِقِ للمَخْلوقِ مُمْتَنِعَةٌ غايَةَ الامْتناعِ عقلًا وسَمعًا، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤] وأمَّا العَقْلُ: فإنَّ كُلَّ عاقِلٍ يُدْرِكُ الفَرْقَ بينَ الخالِقِ والمخْلوقِ في الذَّاتِ والصِّفَاتِ، فالواجِبُ علينا أن نُؤْمِنَ بكُلِّ ما وَصَفَ الله به نَفْسَه من غيْرِ تمْثيلٍ.

ثم اعْلَمْ أنَّ ما وَصَفَ الله به نَفْسَه ينقَسِمُ إلى: صفاتٍ لازِمَةٍ، وصفاتٍ غَيْرِ لازِمَةٍ، وإلى ما نَظيرُهُ أجزاءٌ وأبْعاضٌ لنا، فمثلًا: السَّمْعُ، والعِلْمُ، والقُدْرَةُ، والحياةُ؛ هذه صِفاتٌ لازِمَة، ويُسَمِّيها أهْلُ العِلْمِ الصِّفَاتِ الذاتِيَّةَ، ومِثْل: الاسْتِواء على العَرْش، والنُّزُول إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، والخَلْق وما أشبه ذلك، صِفاتٌ غيرُ لازمة، ويُسَمِّيها أهلُ العِلْم: الصِّفَاتِ الفِعْلِيَّةَ؛ فالله لم يَزَلْ ولا يَزالُ خالقًا، لكنَّ المخلوقَ يَتَجَدَّدُ، فكُلُّ خَلْق يتعلَّقُ بهذا المخلوقِ فإنَّه يكونُ حادثًا بعدَ أنْ لم يَكُنْ، ولكن هذا حُدُوثُ نَوْعٍ، وليس حدوثَ جِنْسٍ؛ لأنَّ الله لم يَزَلْ ولا يزال خالقًا، والاسْتِواءُ على العَرْش هذا لا شَكَّ أنَّه حادِثٌ؛ لأنَّه قَبْلَ العَرْشِ ليس مُسْتَوِيًا عليه، والذي نَظِيرُهُ أبعاضٌ وأجْزاءٌ مثل: اليَد، والوَجْه، والقَدَم، والعَيْن، هذا نظيرُهُ بالنِّسْبَة لنا جُزْءٌ من الذَّاتِ أو بَعْضٌ منها، ولا يَصِحُّ أن نقول: إنَّه جزءٌ من الله، أو بَعْض من الله؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَتَجَزَّأ ولا يَتبَعَّضُ؛ إذْ إنَّ الجُزْءَ ما جاز وُجُودُ أَصْلِهِ بِعَدَمِهِ، فبالنِّسْبَة لله لا يُمْكِنُ أن يكونَ هكذا، يعني لا يُمْكِنُ أن تَنْفِصَل اليَدُ مثلًا -وحاشا لله عَزَّوَجَلَّ- أو الوَجْه، أو ما أشبه ذلك، بالنِّسْبَة للمَخْلوقِ يُمْكِنُ أن تَنْفَصِل؛ ولهذا يجب أن نقول: ما نظيرُهُ أجْزاءٌ وأبعاضٌ لنا، ولا نقول ما هو أَجْزاءٌ وأبعاضٌ لله؛ لأنَّ هذا مُنْكَرٌ غايَةَ الإنْكارِ.

واليَدُ نقولُ: إنَّها حَقيقَةٌ، ثابِتَةٌ لله على الوَجْهِ اللَّائِـقِ به، ولكن لا تُماثِلُ أيديَ المخْلوقيـنَ، وهذا مَذْهَـبُ السَّلَفِ، وعليه جَرى أئِمَّـةُ المسلمينَ، لكن ابْتُلِيَ قَـوْمٌ بتَحْريفِ اليَدِ، وقالوا: إنَّها النِّعْمَة، أو القُوَّة، بناءً على أنَّ عُقُولَهُم تُحيلُ أن يَتَّصِفَ الله عَزَّوَجَلَّ باليَدِ الحَقِيقِيَّةِ، ولا شَكَّ أنَّ هذا ضَلالٌ وجِنايَةٌ على النُّصوصِ؛ أمَّا كَوْنُه ضلالًا فلأنَّهُم حَكَموا على الخالِقِ بعُقُولِهِم القاصِرَة، وهذا لا شَكَّ أنَّه ضلالٌ؛ إذ كيف تَحْكُم على الخالِقِ بِعَقْلِكَ؟ والخالِقُ عَزَّوَجَلَّ يقولُ عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، ويقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ويقول: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ وأنتَ تقول ليس له يدٌ. سبحان الله! ولولا تأويلُهُم لها، وقولُهُم: نحن نُثْبِـتُ اليَدَ ولكنَّ المُرَادَ كذا، لكان هذا تكذيبًا للنُّصُوص، ونحن نعْلَمُ أنَّ المُكَذِّب للنُّصُوص كافِرٌ.

وكان جِنايَةً على النُّصُوص من وَجْهَينِ؛ لأنَّهُم يقولون: إنَّ الله لم يُرِدْ كذا وأراد كذا، فنَفَوْا ما أراد الله، وأثْبَتُوا ما لم يُرِدْه، فكان جنايَةً على النُّصُوصِ من الوَجْهينِ: السَّلْبِيِّ والإيجابِيِّ؛ السَّلْبِيُّ حيثُ نَفَوْا ما أثبَتَ الله، والإيجابِيُّ أثْبَتُوا ما لم يُرِدْه الله؛ إذ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] قالوا: أراد باليَدَينِ النِّعْمَةَ أو القُوَّةَ، نقول: سبحان الله! مَنِ الذي أعْلَمَكَ؟ الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وأنت تقول: ليس له يدٌ، بل هي نِعْمَةٌ، مَنِ الذي قال لك هذا؟ فنَفْيُكَ قَوْلٌ على الله بِلا عِلْمٍ، وإثباتُكَ لِما أَثْبَتَّ قَوْلٌ على الله بلا عِلْمٍ، فكان جنايَةً على النُّصُوص من وَجْهَينِ.

والحقيقةُ أنَّ الإنْسَانَ يعْجَبُ غايةَ العَجَبِ أنْ يَسْلُكَ هذا المسْلَكَ أَئِمَّةٌ مَشْهُودٌ لهم بالخَيْـرِ والصَّلاحِ ونَفْعِ الأمَّةِ، ولكنَّه يَعْـرِفُ بذلك تَمامَ حِكْمَـةِ الله عَزَّوَجَلَّ وأنَّ الإنْسَان مهما كان فهو ضعيفٌ وقاصِرٌ، وإلا فالله عَزَّوَجَلَّ يتحَدَّثُ عن نفسه بحديثٍ هو أصْدَقُ الحَديثِ، وأَحْسَنُ الحَديثِ، وصادِرٌ من أعْلَمَ بما يقولُ، ثم نقول: اللهُ ما

أرادَ هكذا، فيجِبُ أن نُؤْمِنَ بأنَّ الله له يدٌ حَقِيقِيَّةٌ لائِقَةٌ به لا تُماثِلُ أيدِيَ المخْلوقينَ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحْوالِ.

وهكذا يجب علينا أن نُجْرِيَ جميعَ آياتِ الصِّفَاتِ وأَحاديثِهَا.

فإن قيل: ما تقولون في تَفْسيرِ بَعْضِ العُلَماء قَوْلَه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات:٤٧] أي: بِقُوَّةٍ.

فالجواب: أن نقول: هذا صَحيحٌ (أَيْدٍ) هنا بمعنَى قُوَّةٍ، لأن (أَيْد) مصدرُ: آد يَئِيدُ أَيْدًا؛ كباعَ يَبيعُ بيعًا، وكالَ يَكيلُ كيلًا، ولا يجوز أن نقول هي كقوله: ﴿أَيْدِينَآ﴾ لأنَّ الله لم يَنْسِبْها إلى نفسه، فلم يقل: (والسَّماءَ بَنْيناها بأَيْدينا) وإذا لم ينسِبِ الله ذلك إلى نَفْسِه حَرُمَ علينا أن نَنْسِبَه إلى الله، فكان يتعيَّنُ أن نُفَسِّرَ قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أي: بقُوَّةٍ. وإذا لم يُضِفِ الله شيئًا إلى نَفْسِهِ حَرُمَ أن نُضِيفَه إليه؛ لأنَّا لو أضَفْناهُ إليه وهو لَمْ يُضَفْ إليه لكُنَّا نقولُ على الله بلا عِلْمٍ. أَلَمْ تَرَ إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]؟

اختلفَ السَّلَفُ في قوله: ﴿عَن سَاقٍ﴾ هل المُرَادُ عن شِدَّةٍ، أو المُرَادُ عن ساقِهِ عَزَّوَجَلَّ، ونحن إذا أَخَذْنَا القاعِدَة التي قَرَّرناهَا الآن بأنَّ ما لم يُضِفْه الله إلى نَفْسِهِ يَحْرُم علينا أن نُضِيفَهُ إليه، قلنا: إنَّ المُرَادَ بالسَّاقِ هنا الشِّدَّة ولا بُدَّ، ولا يُمْكِنُ أن نُفَسِّرَهَا بساقِ اللهِ؛ لأنَّ الله لم يُضِفْهَا إلى نَفْسِهِ، فلم يقُلْ: (يَوْمَ نكشِفُ عن ساقِنَا) بل قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ولكن إذا تأمَّلْتَ سياقَ الآيةِ الكَريمَةِ وما جاء في الصَّحِيحينِ في حديثِ أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَجَدْتَ أن ذلك يقتَضِي أنْ يكونَ المُرادُ بها ساقَ اللهِ؛ فإنَّه في حديثِ أبي سعيدِ الطَّويلِ المشْهورِ؛ أنَّ الله يَكْشِفُ عن ساقِهِ

فَيَسْجُدُ له كُلُّ من كان يسجُدُ لله تعالى في الدُّنْيَا، ويَعْجِزُ عن السُّجُود من لم يَسْجُد لله في الدُّنْيَا(١).

فهنا ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٢-٤٣] نجد أنَّ سياقَ الآيَةِ يُوافِقُ سياقَ الحديثِ، وحينئذ نقول: إنَّ كلامَ الله تعالى يُفَسَّر بكلام الله تعالى، ويفَسَّرُ بكلام رَسولِهِ ﷺ، فإذا دلَّ سياقُ حديثِ أبي سعيدٍ على ما دلَّ عليه سياقُ الآيَةِ فإنَّ الآيَةَ تُفَسَّرُ به، وحينئذ يكونُ القَوْلُ الرَّاجِحُ أنَّ المُرَاد بالساق التي جاءَت على وَجْهِ النَّكِرَةِ؛ المُرَاد بها ساقُ الله عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّها نُكِّرَت للتَّعْظيمِ؛ لأنَّ التَّنْكيرَ قد يُرَاد به التَّعْظيمُ.

فإذا قال قائل: الآيةُ التي معنا في سورة (يس) ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فهل تَصِفونَ الله بأنَّ له أَيْدِيًا كَثيرةً أم ماذا؟

نقول: الذي عليه أهل السُّنَّة أنَّه ليس للهِ إلا يَدانِ اثْنَتانِ، وحينئذٍ نحتاجُ إلى الجَمْعِ بين هذا القول الذي دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥]، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وبينَ هذه الآيةِ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ وإلى الجَمْعِ بينه وبين الإفْرادِ الذي جاء في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١] وما أشْبَهَ ذلك.

قال أهْلُ العِلْمِ: الجَمْعُ بينهما متيَسِّرٌ -ولله الحَمْدُ- لأنَّه ليس في خَلْقِ الرَّحْمن من تَفاوُتٍ، ولا في كلامِهِ من تفاوُتٍ أيضًا، فلا يَتَفاوَتُ كَلامُهُ ولا يَتناقَضُ، كما لا يَتَناقَضُ خَلْقُه أيضًا، فالخَلْقُ مُنْسَجِمٌ بَعْضُه مع بَعْضٍ، وكذلك الشَّرْعُ مُنْسَجِمٌ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، رقم (٤٩١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٣).

بعضُه مع بعضٍ. قالوا: إنَّ المفْرَدَ المضافَ يَشْمَلُ؛ لأَنَّه للعُمُومِ، أَلَمْ تَرَ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]؟ نِعَمٌ لا تُحصَى مع أَنَّه قال: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ واحدَة، لكنَّ المفْـرَدَ المضافَ يكونُ للعُمُوم فيَشْمَلُ كُلَّ ما يَثْبُت لهـذا المفْـرَد المضافِ وإن كَثُر.

إِذَن: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ لو فُرِضَ بأنَّ هناك أيادِيَ كَثيـرَةً فتَدخل، واليدان فإنَّها تدخل، إِذَن لا منافاةَ بين المفْرَدِ وبين العَدَدِ جمعًا كان أو مثنًّى، فقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ اليدُ مُفْرَد مضافٌ، والضَّميـر مضافٌ إليه، والمفْرَدُ المضافُ يُفيدُ العُمُوم؛ أيُّ مُفْرَدٍ مضافٍ فهو مُفيدٌ للعُمُوم. ومثال لذلك: لو قال رَجُلٌ لامرأتِهِ: طالِقٌ، وله أربَعُ نِسْوَةٍ يُطَلَّقُ كُلَّ النِّسْوَة إلا إذا نوى أنَّها واحِدَةٌ، ولو قال: عبدي حُرٌّ، وله أكثَرُ من عَبْدٍ أعْتَقَ الجَميعَ، ما لم يُرِدْ واحِدًا، ولو قال: بيْتي وَقْفٌ، وله بُيوتٌ صارَتْ بُيوتُهُ كُلُّها وقفًا ما لم يُرِدْ واحدًا؛ فالمفْرَدُ المضافُ يَعُمُّ.

بَقِيَ لنا الجَمْعُ بين اليَدَينِ الثِّنْتَيـنِ والجَمْعِ الذي هو (أَيْدِينا) كيـف نَجْمَـعُ بينهما؟

والجَوَابُ على هذا من وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أنَّ كثيـرًا من عُلَماءِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة يقولون: إن أَقَلَّ الجَمْعِ اثنانِ، واستدلُّوا لذلك بقوْلِهِ تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] فهنا جَمعَ مع أنَّ المُراد اثنانِ.

وبِقَولِه تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١] ﴿إِخْوَةٌ﴾ جَمْـعٌ؛ مع أنَّ الأُمَّ تُحْجَبُ من الثُّلُـث إلى السُّدُسِ باثْنَيـنِ، وبقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «الِاثْنَانِ وَمَا

فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ»(١) أي: في الصَّلاةِ.

ولكن أكثر عُلَماء اللُّغَةِ -وهو المشهور- يقولون: إنَّ أَقَلَّ الجَمْعِ ثلاثةٌ، وحينئذ يُمْكِنُ الجَمْع.

الوجه الثاني: وهو أن نقول: إنَّ المُرَادَ بالجَمْعِ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ المُرَاد به التَّعْظيمُ؛ لأنَّ الجَمْع يدل على التَّعْظيمِ؛ ولِهَذا يأتي ضَميرُ الجَمْع (نا) فليس المُرَادُ به الجَمْـعَ، بل المُرَادُ به التَّعْظيمَ، فهنا الجَمْـعُ للتَّعظيمِ، وللمناسبـة أيضًا لأنَّه أُضيـفَ إلى ما يفيدُ الجَمْعِ فكان الأَنْسَـب أن يكون مجمـوعًا، فهذه المناسَبَة لفْظِيَّةٌ، وإِرَادَةُ التَّعْظيمِ مُناسَبَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، وبهذا يزول الإشكالُ.

فإذا قال قائِلٌ: لماذا لا تقولون: إنَّ للهِ أَيادِيَ كَثيرَةً؟

فالجواب: أنَّ هذا يَمْنَعُه المعنى؛ لأنَّ الله تعالى لَمَّا مَدَحَ وأَثْنَى على نفْسِهِ بالعَطاءِ لم يَذْكُرْ إلا يَدينِ اثْنَتَينِ، ولو كان له أكثرُ لكان يَذْكُرُ الأَكْثَرَ؛ لأنَّه أَبْلَغُ في المدْحِ، فلمَّا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] عُلِمَ أنَّه ليس له إلا يَدانِ اثْنَتانِ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] فأَثْبَتَ القَبْضَةَ بِيَدٍ، والسَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ باليَدِ الأخرى، والنُّصُوص في هذا كثيرةٌ؛ ولهذا نَعْتَقِد نحن أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس له إلا يَدانِ اثنتان فقط.

ومِثْل ذلك نَقولُ: في صِفَةِ العَيْـنِ، العَيْـنُ وَرَدَتْ مَجْموعةً، ووردت مُفْرَدَةً ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩]، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] فنقول: عَيْنٌ مُفْرَدٌ مضافٌ

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب الاثنان جماعة، رقم (٩٧٢)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَيَعُمُّ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ إما أنْ نقولَ للتَّعْظيمِ، أو بأنَّ أَقَلَّ الجَمْعِ اثنانِ، وليس لله أَكْثَرُ من عَيْنَينِ اثنتَينِ، ودليلُ ذلك حديثُ الدَّجَّالِ حينما تحدَّث النَّبيُّ ﷺ عنه، وبيَّنَ تَمْويهاتِهِ، قال: «إِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[1] فبيَّنَ العَلامَةَ الحِسِّيَّةَ الظَّاهِرَةَ وهي عَوَرُ عَيْنِ الدَّجَّالِ.

ومن العَجَبِ أن بعض النَّاس قال: إنَّ المُرادَ بالعَوَرِ هنا العَيْبُ، يريد أن يُثْبِتَ أنَّ لله تعالى أعْيُنًا كثيرةً، بناءً على الجَمْعِ في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ولكن هذا عَوَرٌ من هذا القائِلِ؛ لأنَّ الحديثَ صـريحٌ في أنَّ المُراد عَوَرُ العَيْنِ؛ حيث قال: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى» ولم يَقُلْ: (أَعْوَرُ) فقط، فلو قال: (أَعْوَرُ) فقط، ورُبَّما يُحتَمَل ما قاله، مع أن ما قاله ضَعِيفٌ بَعِيدٌ؛ لأنَّ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ لا تُعَبِّرُ بالعَوَرِ عن العَيْبِ، فالرَّسُولُ ﷺ قال: «أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي الْأَضَاحِي: الْمَرِيضَةُ، وَالْعَجْفَاءُ، وَالْعَوْرَاءُ، وَالْعَرْجَاءُ»[2] فجعل العَوَرَ غيرَ العَيْبِ، فكلُّ الثلاثَةِ الأخرى عُيُوبٌ، لكن جعل العَوَرَ في العَيْنِ، فنحن نقول لهم: أَصْلُ العَوَرِ في العَيْنِ ثم إذا جاء الحديث: «أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى» صار قاطعًا للاحْتِمَال قطعًا نهائِيًّا لا يُمْكِنُ أن يُرَادَ به العَيْبُ.

فإذا قال قائِلٌ: ما وَجْهُهُ؟

قلنا: وَجْهُهُ: لو كان لله أَكْثَرُ من عَيْنٍ لكان الرَّسُولُ ﷺ يذْكُرُه؛ لأنَّه أدَلُّ على

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٧١٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم (٢٩٣٣)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٤)، وأبو داود: كتاب الضحايا، باب ما يكره من الضحايا، رقم (٢٨٠٢)، والترمذي: كتاب الأضاحي، باب ما لا يجوز من الأضاحي، رقم (١٤٩٧)، والنسائي: كتاب الضحايا، باب ما نهي عنه من الأضاحي العوراء، رقم (٤٣٦٩)، وابن ماجه: كتاب الأضاحي، باب ما يكره، أن يضحى به، رقم (٣١٤٤)، من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

تعظيمِ الله، وأبْيَنُ في التَّميُّزِ من أن يُقالَ: إنَّ الفَرْقَ هو أنَّ هذا أَعْوَرُ، والرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ ليس بأَعْوَرَ، وبهذا يَتبَيَّنُ أنَّ دَلالَةَ حديثِ الدَّجَّال -وهو صحيح- دَلالَةٌ واضِحَةٌ ظاهِرَةٌ، على أنَّه رُوِيَ في حديثٍ عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَكَرَهُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ في مُختَصَرِ الصَّواعِقِ المُرْسَلَة[1]: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَإِنَّه بَيْنَ عَيْنَيِ الرَّحْمَنِ»[2] وهذا الحديثُ فيه ضَعْفٌ؛ لكننا في الحقيقة لسنا بحاجةٍ إليه؛ لأنَّ الحديثَ الثابِتَ في الصَّحِيحينِ في قَصَصِ الدَّجَّال واضِحٌ، والحَمْدُ لله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّنا نَمْلِكُ هذه الأنعامَ مِلْكًا شَرْعِيًّا، ومِلْكًا حِسِّيًّا قَدَرِيًّا.

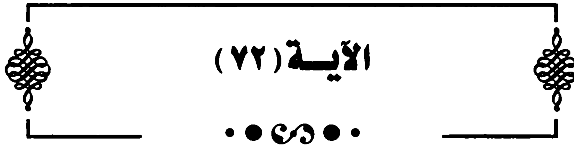
أمَّا الشَّرْعِيُّ: فإنَّنا نَمْلِك أعيانَها ومنافِعَها بالبَيْعِ والشِّراء والتَّأْجيرِ وغيرِ ذلك، أمَّا الكَوْنِيُّ الحِسِّيُّ فلأنَّنا نَمْلِك زِمامَها وضَبْطَها، وهي مُسَخَّرَةٌ لنا نُقيمها ونُنِيخُها، ونَذْهَبُ بها ونَرْجِعُ بها، وهذا من تَمامِ نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا بهذا المِلْكِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه أتى بقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ بالجُمْلَة الاسْمِيَّة التي تُفيدُ الثُّبُوتَ والاستِمْرارَ؛ أي: مِلْكٌ مُسْتَقِرٌّ تامٌّ.



(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص٣٨).

(٢) أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٨٠) رقم (١٢٨)، والعقيلي في الضعفاء الكبير (١/ ٧٠)، وأبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب (٢/ ٤٢٠)، رقم (١٩٠٨)، كلهم من طريق إبراهيم الخوزي، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. وإبراهيم الخوزي متروك الحديث، انظر تهذيب الكمال (٢/ ٢٤٣).



الآية (٧٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧٢].

﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ أي: سَخَّرْناها وجَعَلْناها ذَليلةً تَنقادُ لهم، ويَنْتَفِعون بها كما يشاؤُونَ؛ ولهذا نَجِدُ الصَّبِيَّ الصَّغيرَ يَقُود هذا الجَمَلَ الكَبيرَ، وقد ذُلِّلَ له ويَقُودُه حيث شاء، بل إنَّ الإنْسَانَ يَقودُ البَعيرَ الكَبير الجِسْمِ إلى مكانِ نَحْرِه ويَنْقادُ معه، ثم قَسَّمَ الله عَزَّوَجَلَّ وُجُوهَ الانتفاعِ؛ فقال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ الرَّكُوبُ فَعُولٌ بِمَعْنَى: مَرْكُوبٍ؛ أي: فَمِنْها ما يركبونه مثل الإبل.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مثل الغَنَمِ، ومنها ما يَجْمَع بين الأكل والرُّكُوب مثل الإِبِلِ، فهذه الأنعام منها: ما يُرْكَب ويُؤكَلُ، ومنها ما يُؤكَل ولا يُركَب، وإذا قلنا: إنَّ الآيَةَ أعَمُّ مما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنَّنا نقول: منها ما يُركَبُ ولا يُؤكَل؛ مثل: البِغالِ والحَميرِ والفِيلَة وغيرها.

فالله عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ لهذه الأنعامِ فوائِدَ مُتَعَدِّدَةً: مِنَ الأكْلِ والرُّكُوبِ، وفي سورة النَّحْل ذكر أيضًا من أصْوافِهَا وأَوْبارِهَا وأشْعارِهَا أثاثًا ومتاعًا إلى حِينٍ؛ فالمنافِعُ كثيرةٌ في هذه الأنعامِ التي خلَقَها الله عَزَّوَجَلَّ لنا، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: (مِنْ) في الموضِعَينِ هل هي للتَّبْعيضِ، أو لِلابْتِداءِ، أو لِلْجِنْسِ؟

مُقتَضَى التَّقْسيمِ أن تكونَ لِلتَّبْعيضِ؛ أي: بَعْضُها يُركَبُ وبَعْضُها يُؤْكَل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ نِعْمَةَ الله عَزَّوَجَلَّ علينا بتذْليلِ هذه الأَنْعامِ، ولو اسْتَعْصَتْ علينا ما تَمَكَّنَّا من الانتفاعِ بها؛ ولهذا لَمَّا نَدَّ بَعيرٌ من الإبِلِ في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ أدْرَكَهُ رَجُلٌ بِسَهْمٍ؛ فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِهَذِهِ الْإِبِلِ أَوَابِدَ كَأَوَابِدِ الْوَحْشِ، فما نَدَّ مِنْهَا فَاصْنَعُوا بِهِ هَكَذَا**»[1]، فهذه البَعيرُ تَمَرَّدتْ على أهلها ولم يُدْرِكُوها إلا بالسَّهْمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ أَنَّ أَفعالَ المخْلوقاتِ مَخْلوقَةٌ لله؛ لِقَوْلِه: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ لكنَّها مَفْعولَةٌ للفاعِلِ مُباشَرَةً، فهي تُنْسَبُ لله عَزَّوَجَلَّ تَقْديرًا وخَلْقًا، وتُنْسَب إلى الفاعِلِ كسبًا وعَمَلًا، فهذه الإبِلُ المُذَلَّلة الذي ذلَّلَها هو الله، إِذَن أفعالُها صادِرَة بِخَلْق الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا هو المذْهَب الصَّحِيح في هذه المسألة؛ أي: مسألة أفْعالِ العِبادِ هَل هي مخلوقَةٌ لله، أو هي للعِبادِ اسْتِقْلالًا؟ والمسألة فيها ثلاثَةُ مَذاهِبَ:

المذهب الأَوَّلُ: مَذْهَبُ الجَبْرِيَّةِ، الذين يقولون: إنَّ خَلْقَ الله عَزَّوَجَلَّ شامِلٌ لكُلِّ حركةٍ في السَّمَواتِ والأَرْضِ، وإنَّ الإنْسَانَ مَجْبورٌ على عَمَلِهِ ليس له فيه اختيارٌ، بل الحَرَكَة الإِرادِيَّةُ الاخْتِيارِيَّةُ كالحَرَكَةِ الإجْبارِيَّةِ التي ليس له فيها إرَادَةٌ.

ويقولون: إن أفعالَ الإنْسَانِ كَحَرَكَة السَّعَفَة بالرِّيحِ ليس باختياره، فيُقَالُ له: إنَّ هذا يلزمُ منه الفَوْضى؛ بحيث يفعل كُلُّ إنْسَانٍ ما شاء ويقول: هذا بِغيْرِ اخْتِياري وأنا مَجْبورٌ عليه، ويلزم منه أيضًا: أنَّ الله إذا عَذَّبَ الإنْسَانَ على مَعْصِيَة كان ظالِمًا له، ويَلْزَم عليه أن مَدْحَ الطَّائعينَ لَغْوٌ لا فائدَةَ منه؛ لأنَّه لا يُمْدَحُ الإنْسَانُ على أمْرٍ يُجبَرُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب ما أنهر الدم من القصب والمروة والحديد، رقم (٥٥٠٣)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم، رقم (١٩٦٨)، من حديث رافع بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عليه بدون اخْتِيارِه.

ويترتَّبُ عليه أيضًا: أنَّ ذَمَّ العاصينَ ظُلْمٌ؛ لأنَّه ذَمٌّ لمن لا يَخْتارُ هذا الفِعْلَ، وكما أنَّه يترتَّبُ عليه هذه اللوازِمُ الباطِلَةُ فهو أيضًا مخالِفٌ للواقِعِ، فإنَّ الإنْسَانَ يَجِدُ الفَرْقَ بين فِعْلِهِ الاخْتِيارِيِّ، وبين فِعْلِهِ الاضْطِرارِيِّ، يجد الفَرْقَ بين أن يَنْزِلَ من السُّلَّمِ دَرَجَةً درجةً وبِطُمَأْنِينَةٍ واخْتِيارٍ، وبين أن يأتِيَ شَخْصٌ ويَدْفَعَهُ دفعًا، حتى لا يتمكَّنَ من الوُقُوفِ، فالأَمْرُ واضِحٌ من الناحِيَةِ الواقِعِيَّةِ العَقْلِيَّةِ؛ أنَّ هذا القولَ باطِلٌ من أَبْطَلِ الأَقْوالِ، لكنَّ الذي غرَّ أصْحَابَه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذكر أنَّه خَلَقَ كلَّ شَيْءٍ، وأنَّه قدَّرَ كلَّ شَيْءٍ، وأنَّه لا يكون في مُلْكِهِ ما لا يُريدُ، إلى غير ذلك من الأشياءِ التي يتعلَّلونَ بها، لكنَّهم في الحقيقَةِ نَظَروا إليها وغَفَلوا عن النُّصُوص الأخرى الدَّالَّة على أنَّ الإنْسَانَ فاعِلٌ باخْتِيارِهِ؛ ولهذا قابَلَهُم:

أصْحَاب المَذْهَب الثاني: الذين نظَروا إلى النُّصُوص الدَّالَّة على أنَّ الإنْسَانَ فاعِلٌ باختيارِهِ وإلى الوَاقِعِ، فأنْكَروا أن يكون لله عَزَّوَجَلَّ إرادَةٌ، أو خَلْقٌ في أفعالِ العِبادِ، وقالوا: إنَّ العَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِه يَفْعَلُ ما يشاء، ويَتْرُكُ ما يشاء، وليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تعلُّقٌ بِفعْلِ العَبْدِ.

وهؤلاء أقْرَبُ إلى المعْقولِ من أولئك القَوْمِ؛ لأنَّ الإنْسَان لا شَكَّ يَجِدُ أنَّه فاعِلٌ بالاخْتيارِ، فهو يدْخُلُ بَيْتَهُ، ويَخْرُجُ من بَيْتِه، ويأْتي للمَسْجِد، ويَخْرُجُ من المَسْجِدِ، ويَخْتار هذا الفِعْلَ على وجْهٍ اخْتِيارِيٍّ لا يَشْعُرُ أبدًا بأنَّ أحدًا يُجْبِرُه على ذلك، ولكن ضَلَّ هؤلاء بسَلْبِهِم إرَادَةَ الله عَزَّوَجَلَّ وخَلْقَه عن أفْعالِ الخَلْقِ، واعتِقادِهِمْ أنَّ الإنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بما يُحْدِثُه؛ ولهذا سُمُّوا مجُوسَ هذه الأُمَّة؛ لِمُشابَهَتِهِمْ لِلْمَجوسِ في إثباتِ فَاعِلَيْنِ للحَوَادِثِ، وهم يقولون بإثباتِ فاعِلَيْنِ لِلْحَوَادِثِ. الذي مِنْ فِعْلِ الله،

هذا مِنْ فِعْـلِ الله، والذي مِنْ فِعْـلِ الإِنْسَانِ، هذا من فعـل الإِنْسَانِ مستقلًّا به؛ فلهذا سُمُّوا مَجُوسَ هذه الأُمَّة، وهؤلاء لا شَكَّ أنَّهم ضالُّونَ؛ لأنَّهم أخْرَجوا شيئًا في مُلْك الله عن مُلْكِ الله.

المَذْهَبُ الثَّالِث: أَهْل السُّنَّةِ والجماعَةِ تَوَسَّطُوا بينَ القَوْلَيْنِ وأَخَذوا بالدَّليلَيْنِ، وقالوا: إنَّ الإِنْسَـانَ لا شَكَّ يَفْعَـلُ بِاخْتِيارِهِ، ويَدَعُ بِاختِيارِهِ، وإنَّ له إرادَةً تامَّـةً وقُدْرَةً، والذي خَلَقَ هـذه الإرادَة والقُـدْرَة هو الله عَزَّوَجَلَّ، فلو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لسَلَبَه الإرَادَة، ولو شاء لسَلَبَه القُدْرَةَ؛ ولذلك إذا سَلَبَ الله العبْدَ الإرادَة لم يتَرَتَّبْ على فِعْلِه حُكْمٌ، فالمَجْنونُ -مثلًا- لا يُؤاخَذُ بأفعاله؛ لأنَّه لم يَفْعَلْها باخْتِيارِهِ، والعاجِزُ لا يُكَلَّف ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

إِذَن: فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي خلـقَ الإرادَة والقُدْرَةَ في الإِنْسَـان، قالوا: والإرَادَة والقُدْرَة هما السَّببُ في وُجُود الفِعْلِ، فلولا الإرادَة ما فَعَلْتُ، ولولا القُدْرَةُ ما فَعَلْتُ؛ فالإرَادَةُ والقُدْرَةُ هما سَببُ وُجُودِ الفِعْل، وإذا كانا مَخْلُوقَيْنِ لله فإنَّ خالِقَ السَّبَبِ خالِقٌ للْمُسَبَّبِ، فيُضافُ فِعْلُ العَبْدِ إلى الله من هذه الناحِيَة؛ أي إنَّ الله هو الذي أَوْجَدَ فيه سَبَبَ الفِعْل فصار بذلك فاعلًا؛ كما أنَّ الإحراقَ مثلًا بالنَّارِ يُنْسَبُ إلى النَّار، والذي أَوْدَعَ فيها هذه القوَّةَ هو الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلذلك صار إحراقُ النَّارِ بِفِعْلِ النَّارِ مباشَرَةً، لكنَّه بتقديرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلْقًا.

وهذا الذي ذهـب إليه أَهْلُ السُّنَّة والجمـاعَةِ هو المطابِقُ للمَنْقولِ والمعقُولِ والوَاقِعِ؛ لأنَّه يجمع بين الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ، ويُصَدِّقُ الأَدِلَّة الحِسِّيَّة؛ فالأَدِلَّة الشَّرْعِيَّةُ إذا جَمَعْتَها من أطرافِهَا وَجَدْتَ أنَّها تُنْصَبُ في طريقٍ واحِدٍ، وهو الذي ذهب إليه أَهلُ السُّنَّة والجماعة، ولولا هذا الاعتِقادُ لَشُلَّتِ الحَرَكَة ولصارَ الإِنْسَانُ اتِّكاليًّا لا يقول

ولا يَفْعَلُ، ولولا هذا الاعتقادُ لم يَلْجَأِ الإنْسَانُ إلى ربِّهِ عَزَّوَجَلَّ في مُهِمَّاتِهِ ومُلِمَّاتِهِ، فهو باعتبارِ أَنَّه مُريدٌ فاعلٌ؛ يتحَرَّكُ ويَعْمَلُ، وباعتبارِ أَنَّه مَخْلوقٌ مُدَبر يَرْجِعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يكون اتِّكاليًّا، ولا يكون أنانيًّا؛ يعني أَنَّه لن يستغْنِيَ بنَفْسِه عن رَبِّهِ، ولن يكون اتكاليًّا؛ يقول: إنْ قُدِّرَ لي شَيْءٌ صار، بل هو يَعْمَلُ مُسْتَعينًا بالله مُعْتَمِدًا عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ لنا أن نَنْتَفِعَ بهذه الأنعامِ بالرُّكوبِ، ولكنْ بِشَرْطِ أَلَّا يكونَ في ذلك مَشَقَّةٌ عليها، فإن كان في ذلك مَشَقَّةٌ كان حرامًا؛ لأنَّ المَشَقَّةَ تَعْذيبٌ لها في غَيْرِ مَحَلِّه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جواز الإِرْدافِ على الدَّابَّةِ؛ لعُمُوم قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ولكنَّه مُقَيَّدٌ بما أَشَرْنا إليه أَلَّا يكونَ في ذلك مَشَقَّة.

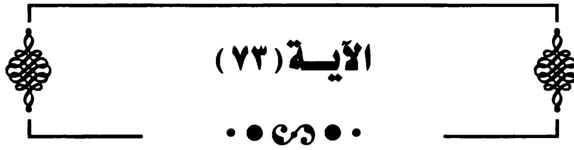
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حِلُّ هذه الأنعامِ، أو حِلُّ بَعْضِها إذا جَعَلْنا (مِن) للتَّبْعيضِ وجَعَلْنا (الأَنْعامَ) أَعَمَّ من (بهيمَةِ الأَنْعامِ) والحِلُّ في الأنعام كُلِّها هو الأَصْلُ؛ ولهذا لو تنازع شَخْصانِ في أنَّ هذا الحَيَـوانَ حلالٌ أو حَرامٌ، لكان القَوْلُ قَوْلَ من يَقولُ بالحِلِّ حتى يقومَ دَليلٌ على التَّحْريمِ وذلك:

أَوَّلًا: لعُمُـوم قوله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

ثانيًا: لعُمُـوم قوله: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ فالأَصْلُ هو الحِلُّ حتى يقـومَ دليلٌ على المَنْع، لكنَّ هذا الحِلَّ مُقَيَّدٌ بِشُروطِ الذَّكاةِ المعْروفَةِ؛ لأنَّها إذا لم تُذَكَّ البَهيمَةُ الحَلالُ ذَكاةً شَرْعيَّة صارت حرامًا لا تَحِلُّ، فهذا الإطلاق ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مُقَيَّدٌ بِشُروطٍ، وهي أن تكون مُذَكَّاةً بِذكاةٍ شَرْعيَّةٍ، ومع هذا إذا اضْطُرَّ الإنْسَانُ إليه حَلَّ له ولو لم يُذَكَّ؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٧٣].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّه يجوزُ تَعْذيبُ الحَيَوانِ إذا لم تَتِمَّ المصْلَحة إلا بِهِ؛ لأنَّ الأَكْلَ مَصْلَحةٌ، ولكن لا أَكْلَ إلا بَعْدَ الذَّبْحِ، والذَّبْحُ من أعْظَمِ ما يكون من الإيذاءِ، ولأنَّ الشَّـرْعَ جاء بإباحَةِ وَسْمِ البَهائِمِ بالنَّارِ؛ من أجْلِ حفْظِ مالِيَّتِها، ولأنَّ الشَّـرْعَ جاء بِمَشْروعِيَّةِ إشْعارِ الإِبِلِ والبَقَرِ في الهَدْيِ لِيُعلَمَ أنَّها هَدْيٌ، وإشعارُها هُو شَقُّ صَفْحَةِ سَنامِها حتى يَسيلَ منها الدَّمُ، وعلى هذا إذا احْتَجْنا إلى تَعْذيبِ الحَيَوانِ من أَجْـلِ حِفْظِ مالِيَّتِه أو غيرِ ذلك فإنَّه لا بأْسَ به؛ مثل ما يفعَلُه بعضُ النَّاسِ الآن في الحَمامِ إذا أراد أن تُرَبَّى عنده فإنَّه يَنْتِفُ مُقَدَّمَ الأَجْنِحَة لِئلَّا تَطيرَ، حتى تألَفَ المكانَ وتُرَبَّى فيه، يقولون: لو أنَّنَا قَصَصْناها قصًّا ما نَبَتَ لها رِيشٌ بِسُرْعَة؛ فلهذا يختارون أن يَنْتِفوها نَتْفًا من أجْل أن يَنْبُتَ الرِّيشُ بِسُرْعَةٍ وتَسْتَعِدَّ للطَّيَرانِ.





❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٣].

•●൙●•

قال المُفسِّر: [﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كأصْوافِهَا وأَوْبارِهَا وأَشْعارِها ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من لَبَنِها، جَمْعُ مَشْرَبٍ بِمعنى شُرْبٍ أو مَوْضِعِه ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المُنْعِمَ عليهم بها فَيُؤْمِنون؛ أي: ما فعلوا ذلك].

المنافِعُ أعَمُّ مما قاله المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كأَصْوافِها وأَوْبارِها وأَشْعارِها] فالكافُ للتَّشْبِيه، والأَصْوافُ لِلضَّأْنِ، والوَبَر لِلإِبِلِ، والشَّعْر للبقَرِ والغَنَمِ، وكذلك ما يُنْتَفَعُ بها من الحَرْثِ والزِّراعَة عليها ودَكِّ الأَرْض وغير ذلك من المنافِعِ التي لا تُحصَى؛ ولهذا أتى بصيغَةِ مُنْتَهى الجُمُوعِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ إمَّا مَوْضِعُ الشُّرب كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو الشُّرْبُ، ولكِنَّ الأَوْلى أن نقول: إنَّ لَهُم فيها مشارِبَ أي: شَرَابًا، وهذه المشارِبُ تكون من الإِبِلِ والبقَرِ والغنَمِ فكلُّها يَشْرَبُ النَّاس من ألبانِها، ويَنْتَفِعون بها شُـربًا وبَيعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ والهَمْزَةُ للاسْتِفْهامِ، والمُرَادُ به التَّوْبيخُ، أي: إنَّهُم لم يشْكُروا الله عَزَّوَجَلَّ فهُم مُوَبَّخونَ على عَدَمِ شُكْرِهم.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ما فَعَلوا ذلك] لأنَّه يرى أنَّ الاسْتِفْهام للنَّفْي، وما ذكرناه من أنَّه للتَّوْبيخِ أَحْسَنُ؛ لأنَّ التَّوْبيخَ يدلُّ على انْتِفاءِ ذلك، وأنَّهم مُوَبَّخـون على عَدَمِ الفِعْل.

وقد تقدَّم الكَلامُ على معنى الشُّكْرِ ومُتَعَلَّقِه والفَرْقِ بينه وبين الحَمْد عند قوْلِهِ تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خلق هذه الأشياءَ لِمَنافِعِنا؛ فأيُّ مَنْفَعَةٍ يُمْكِنُ أن نَحْصُل عليها من هـذه البهائِمِ فإنَّها مُباحَةٌ لنا، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ لكنْ بِشَـرْطٍ كما أسلفنا: ألَّا يكونَ في ذلك مَشَقَّةٌ، فإنْ كان فيها مَشَقَّةٌ فإنَّها مَمْنوعَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِلُّ أَلْبانِ هذه البَهائِمِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَمَشَارِبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجُـوبُ شُكْرِ الله تعالى على هذه النِّعَم، ووجْهُهُ أنَّه وَبَّخَ مَـن لم يشكر، ولا تَوْبيخَ إلا على فِعْلٍ مُحَرَّمٍ، أو تَرْكِ واجِـبٍ. وشُكْرُ المُنْعِمِ كما دلَّ عليه الشَّرْع فَقَدْ دلَّ عليه العَقْلُ؛ فإنَّ كلَّ إنْسانٍ مَدينٌ لِمَن أنْعَمَ عليه أن يَشْكُره بِحَسَب ما تَقْتَضيه الحالُ؛ ولهذا جاء في الحديث الصَّحيح: «**مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ كَافَأْتُمُوهُ**»[1].



(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٦٨)، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله عَزَّوَجَلَّ، رقم (١٦٧٢)، والنسائي: كتاب الزكاة، من سأل بالله عَزَّوَجَلَّ، رقم (٢٥٦٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيتان (٧٤، ٧٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٤-٧٥].

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مِن غَيْرِه، ولا يَمْنَعُ أن يكونوا اتَّخذوا آلِهَةً مع الله، فهمُ اتَّخـذوا مِن دون الله؛ أي اتَّخذوا غَيْرَ اللهِ آلِهـةً، وإنَّما قُلْنا ذلك؛ لأنَّ ظاهِرَ قَوْلِه تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أنَّهُم لم يَتَّخِذوا اللهَ إلهًا، بلِ اتَّخذوا هذه الآلِهَةَ من دون الله وتَركوا أُلُوهِيَّةَ الله تعالى، مع أنَّ هؤلاء يتألَّهـونَ إلى الله تعالى وإلى غَيْرِه، ولكنْ قد يُقالُ: إنَّ الفائِدَةَ من التَّعْبيرِ بقوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مع أنَّهُم يُؤَلِّهونَ الله تعالى ويُؤَلِّهونَ الأَصْنامَ أنَّ الإنْسَان إذا اتَّخَذَ شـريكًا مع الله فإنَّ اللهَ تعالى يَتْـرُكُه وشِـرْكَهَ وكأنَّه لم يُؤَلِّهِ اللهَ تعالى؛ كما جاء في الحديثِ القُدُسِيِّ الصَّحِيحِ أنَّ الله تعالى قال: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»[1].

﴿ءَالِهَةً﴾ جمع إلَهٍ، والإلَهُ بِمَعْنَى مَأْلوهٍ؛ أي: مَعْبـود، وفِعَـالٌ تأْتِي في اللُّغَـة العَرَبِيَّةِ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ في مَواطِنَ عَديدَةٍ؛ منها: غِرَاسٌ بِمَعْنَى مَغْروسٍ، وبِناءٌ بِمَعْنَى مَبْنِيٍّ، وفِرَاشٌ بِمَعْنَى مَفْـروشٍ. فهؤلاء -والعِيَاذُ بالله- يتألَّهـونَ لِهَذه الأَصْنامِ كما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

يتَأَلَّهونَ لله عَزَّوَجَلَّ؛ يَرْكَعون لَها ويَسْجُدون ويَنْذِرُونَ ويَعْكُفُونَ عليها.

﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ قال المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُمْنَعونَ مِن عَـذابِ اللهِ بِشَفاعَةِ آلِهَتِهِم بِزَعْمِهِم].

النَّصْرُ بِمَعْنَى المَنْعِ مِنْ تَسَلُّطِ الأَعْداءِ، ولكنَّه في الحَقيقَةِ ليس المَنعَة فقط، ولكنَّه في الغالِبِ يُطْلَق على غَلَبَة الأعداء، أي: لَعَلَّهُم يَغْلِبونَ، والوَاقِع أنَّ مُتَّخِذِي الأَصْنامِ يَتَّخِذونَها للأَمْرَينِ: لِتَشْفَعَ لهم عند الله تعالى فَيَنْجُـو من عـذابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَـوْلِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وهم أيضًا يَنْتَصِرونَ بها عند الحَرْبِ والقِتالِ، كما قال أبو سُفْيانَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ: أُعْلُ هُبَلُ، فانْتَصَرَ بِإِلَهِهِ واعْتَزَّ بِهِ.

فهم اتَّخَذوا هذه الآلِهَة للأمْرَينِ جَميعًا: لِدَفْعِ ما يُكْرَه، وحُصُولِ ما يُحَبُّ. وهذا هو المناسِبُ لِقَوْلِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ لأنَّ إِطْلاقَ النَّصْر على مُجَرَّدِ دَفْعِ المَكْروهِ -هذا وإن كان وَارِدًا- لكِنَّ إِطْلاقَ النَّصْرِ على حُصُولِ المطْلوبِ والعِزَّةِ والرِّفْعَةِ أَكْثَرُ في اللُّغَة العَرَبِيَّة، ولكِنْ هل هؤلاء يُنْصَرُون بهذه الأَصْنامِ؟

الجواب: قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: هذه الآلِهَة التي اتَّخَذُوها للنَّصْرِ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْصُرَهم لا في الدُّنْيَا ولا في الآخِرَةِ، ودليلُ ذلك أَنَّهُم يضعون يَصْنَعُـونَ الأَحْجَارَ بِأَيْـديهم ثم يَعْبُـدونَها مِنْ دُونِ الله تعالى، ويَذْهَبونَ إلى الشَّجَرة ويَعْبُدونَها، وهم إذا احْتاجُوا إلى حَطَبٍ قَطَعوها وأَوْقَدوا بِها، فكيف وَهِيَ لا تَنْصُـرُ نَفْسَها تَنْصُـرُ غيـرها؟! وهذا شَيْء مُسْتَحيلٌ أَنْ تَنْصُـرَهم؛ ولهـذا إذا كان يومُ القِيَامَـة فإِنَّهُم كُلَّهُمْ يُحْصَبُـونَ في النَّارِ؛ كمـا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨] لو كان هَؤُلاء آلِهَةً ما وَرَدوها، فهي لا يُمْكِنُ أن تَنْصُرَهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦] فهم في الدُّنْيَا غافِلونَ عَنْهم؛ لأنَّها جَمادات، وفي الآخِرَة يكونونَ لهم أعداءً ويَكْفُرون بِعِبادَتِهِم.

فإذا قال قائل: إنَّه يُوجَدُ مَن يدعو الصَّنَمَ بِحُصُولِ مَطْلوبٍ، أو دَفْعِ مَكْروهٍ، ثم يَحْصُلُ له المطْلوبُ، أو يَنْدَفِعُ عنه المَكْرُوهُ فما الجواب؟

قلنا: الجوابُ: أنَّ هذا فِتْنَةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ يَفْتِنُ من شاء مِن عِبادِهِ، والذي حصل لم يَحْصُلْ بِدُعاءِ الصَّنَمِ، وإنَّما حَصَلَ عند دُعاءِ الصَّنَمِ؛ أي حَصَلَ عِنْدَه لا بِهِ، فالله عَزَّوَجَلَّ جعَلَ هذا يَحْصُل عند دعاءِ هذا الصَّنَم ابتلاءً وامْتِحانًا، والله عَزَّوَجَلَّ بِحِكْمَتِه قد يُيَسِّرُ أَسْبابَ المَعْصِيَةِ لِيَبْلُوَ الإنْسانَ هل يكونُ امْتِناعُهُ عن المَعْصِيَة خَشْيَةً لله عَزَّوَجَلَّ، أو لِعَدَمِ القُدْرَةِ عليها، ألم تَرَ إلى قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤].

فابْتَلى اللهُ الصَّحابَةَ وهُمْ مُحْرِمُونَ بالصَّيْدِ ينالُونَهُ بِأَيْديهم فيما يَعْدُو، وبِرِماحِهِم فيما يَطِيرُ؛ لِيَعْلَمَ اللهُ من يَخافُهُ بالغَيْبِ فلا يأْخُذُ مِنْ هذا الصَّيْدِ، فلم يأْخُذوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من هذا الصَّيْدِ وتَرَكوه خَشْيَةً لله لا عَجْزًا عن الوُصُولِ إليه، كما ابتلى الله تعالى بَنِي إِسْرائيلَ الذين حَرَّمَ عليهم الصَّيْدَ يَوْمَ السَّبْتِ بأنْ تأتِيَ الحِيتانُ يَوْمَ السَّبْتِ شُرَّعًا طافِيَةً على وَجْهِ الماءِ، وفي غَيْرِ يومِ السَّبْتِ لا تَأْتيهِمْ، وهذا امتحانٌ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، لكنَّهُم لم يَصْبِروا على هذه المِحْنَةِ، بل ذهبوا يعامِلونَ الله عَزَّوَجَلَّ مُعامَلَةَ الغِرِّ الجاهِلِ

يُخادِعون الله فأَتَوْا بِحيلَةٍ ومَكْرٍ ونَصبُوا الشِّبَاكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فإذا جاءت الحيتانُ يَوْمَ السَّبْتِ دَخلَتْ في الشِّبَاكِ، فإذا كان يومُ الأَحَدِ أَخذُوها، فاحْتَالوا فَقلَبَهُمُ الله تعالى قِردَةً ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] فهؤلاء الذين يَدْعُونَ الأَصْنامَ لجَلْبِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضَرَرٍ يُمْتَحَنونَ ويُختَبَرونَ فَيُدْفَعُ عنهم الضَّرَرُ ويَحْصُلُ لهم النَّفْعُ، لكن عند هذا الدُّعاءِ وليس بهذا الدُّعاءِ، نَجْزِمُ بذلك يقينًا؛ لأنَّ هذه الأَصْنامِ لا تَأْتي بِخَيْرٍ؛ ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: آلِهَتُهُمْ. نُزِّلُوا مَنْزِلَةَ العُقَلاءِ ﴿وَهُمْ﴾ أي: آلِهَتُهُمْ من الأَصْنامِ ﴿لَهُمْ جُندٌ﴾ بِزَعْمِهِمْ نَصْرَهُم ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ في النَّارِ مَعَهُم]. قوله: نُزِّلوا مَنْزِلَةَ العُقَلاءِ، لأنَّ واوَ الجَماعَةِ خاصَّة بالعُقَلاء، والذي يأتي لِغَيْرِ العُقَلاء ما يدُلُّ على التَّأْنيثِ سواءٌ كان بالإِفْرادِ أو بالجَمْعِ، فلو مَشَى التَّعْبيرُ على الغالِبِ لقالَ: (لا تَسْتَطيعُ نَصْرَهُم) أو (لا يَسْتَطِعْنَ نَصْرَهُم) لكنْ قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تنزيلًا لهذه الأَصْنامِ مَنْزِلَةَ العاقِلِ؛ لأنَّ هؤلاء يَدْعونها دُعاءَ العاقِلِ يَرَوْنَ أنَّها عاقِلَة تَجْلِبُ النَّفْعَ وتَدْفَعُ الضَّرَر فخُوطِبوا بما يَعْتَقِدونَ.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مشى على أن ﴿وَهُمْ﴾ الضَّميرُ يعودُ على الأَصْنامِ؛ أي والأَصْنامُ لِعَابِدِيها جُنْدٌ يَنْصُرونَهُم حَسَبَ زَعْمِهِمْ ﴿مُّحْضَرُونَ﴾ أي: معهم في النَّار، فهذه الأَصْنامُ جُنْدٌ لهؤلاءِ العابدينَ، لكنَّ الجَميعَ مُحْضَرون في نارِ جَهَنَّمَ يُعَذَّبونَ، وهذا قولٌ فيه بُعْدٌ عن ظاهِرِ الآيةِ وعن المعْنَى.

والصَّوابَ: أنَّ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ يَعودُ على العابِدِينَ ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الأَصْنامِ ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: حاضِرونَ؛ فالمعنى أنَّ هذه الأَصْنامَ

لا تَسْتَطيعُ نَصْرَهُم، ولكنَّ هؤلاءِ العابِدينَ يَنْتَصِرونَ للأَصْنامِ ويَكُونونَ جُنْدًا لها كما قال قوم إبراهيم: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨] فهـؤلاء العابِدونَ يَعْبُدونَ ما لا يَنْفَعُهم ولكنَّهم هم يَنْتَصِرون لهذه الأَصْنامِ ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ لِيُدافِعوا عن هذه الأَصْنامِ، فيَكونُ في هذا التَّصَرُّفِ نَقْصٌ من وَجْهَيْنِ:

الوجه الأَوَّلُ: أَنَّهم هُمْ يَنْصُرونَ هذه الأَصْنامَ ويَنْتَصِرونَ لَها ويُدافِعونَ عنها.

الوجه الثاني: أَنَّهُم انْتَصَـروا لشَيْءٍ لا يَنْفَعُهُم، والغالِـبُ أَنَّ الإِنْسانَ العاقِـلَ إِنَّما يَنْتَصِرُ لِمَن يَنْفَعُه ويَنْتَصِرُ له، وأَمَّا من لا يَنْتَصِرُ له ولا يَنْفَعُه بِشَيء لا يُمْكِـنُ أن يَنْتَصِرَ له.

فالمعنى الذي ذكرناه هو المُتَعَيَّنُ في الآية وهو المناسِبُ، وهو الذي ينادي عليهم بالسَّفَهِ والضَّلالِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: صِحَّةُ إطْلاقِ الإِلَهِ على غَيْـرِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ ولكنْ هل هذه الآلِهَةُ حَقٌّ؟

الجواب: لا، هي آلِهَةٌ باطِلَة؛ لقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢] فهي وإنْ سَمَّوْها آلِهَـةً وعَبَدوها كما يَعْبُدون الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ فإنَّها لن تكونَ آلِهَة، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء الذين اتَّخذوا هذه الآلِهَـةَ تَوَهَّموا فيها أنَّها تَنْصُرُهم، ولكنْ أَبْطَلَ اللهُ هذا الوهْمَ بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإنْسَانَ المُبْطِلِ لا بدَّ أنْ يتعلَّقَ بشَيْءٍ يُبَرِّرُ به باطِلَهُ، وهو هنا رجاءُ النَّصْرِ ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ وكلُّ إنْسَانٍ مُبْطِلٍ لا بدَّ أن يُعَلِّلَ ما ذهَبَ إليه من الباطِلِ كما مَرَّ كثيرًا في أقوالِ أَهْلِ البِدَعِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هذه الآلِهَةِ لا يُمْكِنُ أن تَنْصُر عابديها؛ لِقَوْلِه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾.

فإن قلتَ: أليسوا يَسْتَغِيثونَ بالآلِهَةِ فُيغاثونَ أَحْيَانًا؟

فالجوابُ: نَعَم، يُمْكِنُ، وهو امْتِحانٌ وَفِتْنَة، ولكنَّ هذا الغَوْثَ حَصَلَ عندها لا بِها، وفَرْقٌ بين أن يكون الشَّيْءُ حَصَل بالشَّيْءِ، أو حَصَلَ عِنْدَه، والسَّببُ غير ذلك، فسَبَبُ هذا الغَوْثِ الفِتْنَةُ، وليس دَعْوَةَ هذه الأَصْنام؛ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاءِ العَابِدينَ جُنْدٌ مُحْضَرونَ لِأَصْنامِهِم، يُدافِعُونَ عنِ الأَصْنامِ ويَنْتَصِرونَ لها؛ لِقَوْلِه: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ وفي هذا من المناداةِ بِسَفَهِهِمْ ما هو ظاهِرٌ؛ حَيْثُ يَسْتَنْصِرونَ بِمَنْ لا يَسْتَطيعونَ نَصْرَهُم، وهم يَنْصُرونَها، وهذا من السَّفَه؛ كيفَ تَنْصُرُ شيئًا لا يَسْتَطيعُ نَصْرَكَ ولا تَسْتَفِيدُ منه؟! ولهذا يُعْتَبَرُ قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كالدَّليلِ على سَفَهِ هؤلاء؛ أي: إنَّهُم يَنْتَصِرون لهذه الآلِهَة ويَنْصُرونَها مع أنَّها لا تَنْصُرُهم، وهذا الذي قَرَّرْتُه بناء على ما اخْتَرْناه من أنَّ معنَى الآيَةِ (وهؤلاء العابِدونَ لِلْمَعْبودينَ جُنْدٌ مُحْضَرونَ) أمَّا على رأيِ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فهو يرى خلافَ ذلك، يرى أنَّ هذه الأَصْنامَ جُنْدٌ لهؤلاء، لكنَّهم مُحْضَرونَ في النَّارِ جميعًا، وسَبَقَ بيانُ ضَعْفِ هذا القَوْلِ.

الآية (٧٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [يس:٧٦].

الخِطابُ في هذه الآية للرَّسولِ ﷺ ومعنى ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ ﴾ أي لا يُوقِعْكَ في الحَزَنِ، والحَزَنُ هو النَّدَمُ والهَمُّ والتَّأَسُّفُ لما مضى، والخَوْفُ هو الهَمُّ والتَّرَقُّبُ لِما يُسْتَقْبَلُ، ولا شَكَّ أنَّ هؤلاء المُكَذِّبينَ لِلرَّسولِ ﷺ يقولون في الله عَزَّوَجَلَّ، ويقولون في رسول الله ﷺ قولًا عظيمًا، والنَّبيُّ ﷺ يَحْزَن لهذا؛ لأنَّه أنْصحُ الخَلْقِ للْخَلْقِ، فَيَحْزُنُه أن يتكَلَّمَ هؤلاء بما عاقِبَتُهُ سَيِّئةٌ عليهم، وإن كان هذا لا يَضُرُّه، ولكنْ يَحْزَنُ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشُّعَراء:٣] أي: لعَلَّكَ مُهْلِكٌ نفْسَكَ لعَدَمِ إيمانِهِم، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل:١٢٧] والآياتُ في تَسْلِيَةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتَقْوِيَتِه على التَّحَمُّلِ والصَّبْرِ على تكْذيبِ هؤلاء؛ كثيرةٌ، وقد قالوا أشياءَ كَثيرَةً:

﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:٥] وهذا طَعْن في الأُلُوهيَّةِ.

وقالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ [الرعد:٤٣] وهذا طَعْنٌ في الرِّسالَةِ، وقالوا: إنَّ محمَّدًا ﷺ مجنونٌ، وشاعِرٌ، وكاهِنٌ، وساحِرٌ، وهذا أيضًا عَيْبٌ في شَخْصيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ،

ومِن المعلوم أنَّ الإنْسَانَ بَشَرٌ سوف يتأثَّرُ إذا صُودِمَتْ دَعْوَتُهُ في لُبِّهَا وأَصْلِها، وقيل: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ والإنْسَانُ إذا صُودِمَ قَوْلُه الفِقْهِيُّ مثلًا يُحِسُّ بنَفْسِه بضَغْطٍ، لكن إذا كان سَيُهْدَمُ أَصْلُه يكون أَشَدَّ وأَعْظَمَ، وإذا عِيبَ عَيْبًا ذاتيًّا يكونُ أَشَدَّ وأَشَدَّ؛ ولهذا يُسَلِّي اللهُ نبيَّه محمَّدًا ﷺ في مِثْلِ هذه التَّوْجيهاتِ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾.

﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ هنا يَجِبُ الوُقُوفُ على قوله: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ لأنَّكَ لو وَصَلْتَ لَأُوهِمَ أَنْ تكون جُمْلَةُ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ﴾ من قَولِهم، وليست كذلك بل هي جُمْلَة استِئْنافِيَّةٌ لِبيانِ حالِ هؤلاءِ الذينَ يَقولونَ ما يَقولونَ في رسولِ الله ﷺ وما جاء به، وحالُهم أنَّهم مُهَدَّدونَ بِعِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ لِما يُسِرُّونَ وما يُعْلِنونَ، ما يُسِرُّونَه فيما بينهم، وما يُعْلِنونَه للنَّاسِ، ما يُسِرُّونَه في أَنْفُسِهِم، وما يُبْدُونَهُ لِغَيْرِهم، فعندنا إسْراران:

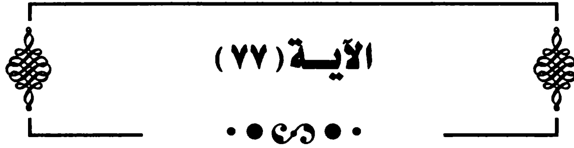
الإِسْرارُ الأَوَّلُ: إسرارُ الإنْسَانِ ما في نَفْسِهِ بِحيْث لا يَعْلَمُ به أَحَدٌ.

الإِسْرارُ الثَّاني: إسرارُ الأَمْرِ بينهم فلا يَخْرُجُ لِغَيْرِهم، ونضرب لهذا مَثَلًا:

هؤلاء قومٌ عَدَدُهم عَشَرَةٌ يتحدَّثونَ فيما بَيْنَهُم بأمْرٍ من الأُمُور، لكن لا يَخْرُج لِغَيْرِهم فهذا إِسْرارٌ، وأَحَدُ هؤلاء العَشَرَةِ أَضمَرَ في نفْسِهِ شيئًا لم يُخْبِرْ به زُملاءَهُ، فهذا أيضًا إسرارٌ.

فَقَوْلُه: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ يَشْمَلُ هذا وهذا؛ أي: ما أَسَرَّه كلُّ إنْسَانٍ في نَفْسِه، وما أَسَرُّوه فيما بينهم دون أن يُعْلِنوه لِغَيْرِهم، وفي هذا من التَّهْديدِ ما هو ظاهِرٌ، فالله تعالى يَعْلَمُ ما يُسِرُّونه وما يُعْلِنُونَهُ، وسوف يُجازيهِمْ على ذلك يَوْمَ القِيامَةِ.





الآية (٧٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

•••

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يرى بِمَعْنَى يَعْلَم، والمعنى: أولَمْ يَعْلَمْ، والاسْتِفْهامُ هنا للتَّقْرِيرِ، والمُرَادُ به التَّوْبيخُ، (والواو) حَرْفُ عَطْفٍ، والمَعْطوفُ عليه: إمَّا مُقَدَّرٌ بعدَ الهَمْزَة، وإمَّا ما سبق، وعلى الثَّاني تكون الهَمْزَةُ مَنْقولَةً عن مكانِها، وأَصْلُه على القول الثاني (وَأَلَمْ يَرَ) وقوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [وهو العاصي بْنُ وائِلٍ] وعلى رأي المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ تكون (أل) هنا للعَهْدِ الذِّهْنِيِّ، ولكنَّ الصَّحِيحَ أنَّ (أل) للجِنْسِ، أي: جِنْس الإنْسَانِ، ومنه العاصي بْنُ وائلٍ؛ لأنَّ الأَصْلَ في (أل) أنَّها لِبَيانِ الجِنْسِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ يعني: جِنْسَ الإنْسَانِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر:١-٣] وَوَجْهُ كونِ ذلك هو الأَصْلَ أنَّ العَهْدَ يَحْصُرُها في شَيْء مُعَيَّنٍ، والأَصْلُ بقاءِ اللَّفْظِ على عُمُومِهِ.

فإذا قال قائل: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إنَّه فُلانُ بْنُ فلانٍ.

فنقول: الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وهو شامِلٌ، إِذَن فالصَّحِيحُ أنَّه عامٌّ، لكنْ نَجْعَلُ العاصِيَ بْنَ وائلٍ مَثَلًا لمن قال هذا القَوْلَ، أو لِمَنْ رأى هذا الرأي.

﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [مَنِيٍّ إلى أنْ صَيَّرْناه شَدِيدًا قوِيًّا

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شديدُ الخُصُومَةِ لنا ﴿مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُهَا في نَفْيِ البَعْثِ] فالإنْسَانُ خُلِقَ من نُطْفَةٍ، وهو هذا المَنِيُّ المَهِينُ كما وَصَفَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، هذا الماءُ المَهِينُ الذي خُلِقَ منه الإنْسَان، إذا رجع الإنْسَانُ إلى أَصْلِه وَجَدَ أَنَّه كالنُّخامَةِ ليس بشَيْءٍ، ثم بعد هذا يُنْشِئُهُ الله عَزَّوَجَلَّ حتَّى يُعْطِيَه الفَصاحَةَ والبلاغَةَ وقُوَّةَ الحُجَّةِ، وبعد أن يتَربَّى بِنِعَمِ اللهِ في بَطْنِ أُمِّه، ثُمَّ مِن صَدْرِ أُمِّه بالثَّدْيَيْنِ، ثم بما أَنْعَمَ الله عليه من أَنْواعِ الطَّعامِ والشَّرابِ يَقْوى ويَشْتَدُّ عَقْلُه وفِكْرُه وذِهْنُه، فيكون خصيمًا.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي شَديدُ الخُصُومِةِ؛ لأَنَّ فَعيلًا بِمَعْنَى فاعلٍ، لكنْ تَدَلُّ على المبالَغَةِ.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنٌ، والذي يظهر أنَّها ﴿مُّبِينٌ﴾ بِمَعْنَى مُظْهِر، يعني مُظْهِر لِخُصُومَتِه؛ لكَوْنِه شَديدَ الخُصُومَةِ قَوِيَّهَا، وسيأتي إن شاء الله بيانُ نَوْعٍ مِن جَدَلِ الإنْسَانِ وَخُصُومَتِه، فـ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مُظْهِرٌ لِلْخُصومَةِ، خِلافًا لقَوْلِ المُفسِّر: [بَيِّنُهَا].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ أَنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ من ضَعْفٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو كذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الإنْسَانَ الذي خُلِقَ من هذه المادَّةِ الضَّعيفَةِ يَتَرَقَّى حتى يكون ذا خُصُومَةٍ مُبِينَةٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: النِّداءُ على الإنْسَانِ بالظُّلْمِ، وَجْهُ ذلك: كيفَ يكونُ هذا الذي خُلِقَ من هذه النُّطْفَةِ يَبْلغُ به الحَدُّ إلى أن يكون خَصيمًا لله عَزَّوَجَلَّ بَيِّنَ الخُصُومَةِ؟! لأَنَّ الإنْسَانَ يَجِبُ عليه إذا نَظَرَ إلى أَصْلِهِ أن يعرِفَ قَدْرَ نَفْسِه، لا أن يكون مُخاصِمًا لربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الخُصُومَةَ بالباطِلِ مَذْمومَةٌ، وَوَجْهُ ذلك أنَّ الآيَةَ سِيقَتْ مَسَاقَ الذَّمِّ لا مَساقَ المَدْحِ.

أمَّا الخُصُومَةُ لإثباتِ الحَقِّ وإبْطالِ الباطِلِ، فإنَّها مَمْدوحَةٌ؛ لِقَوْلِ الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

وَلَوْلا الجِدالُ مَعَ أَهْلِ الباطِلِ ما تَبَيَّنَ الحَقُّ، ولا انْدَحَضَ الباطِلُ، فلا بُدَّ للإِنْسَانِ من الجِدالِ في إثباتِ الحَقِّ وَإبطالِ الباطِلِ، أمَّا إذا كان الأَمْرُ بالعَكْسِ فإنَّه مَذْمومٌ.

ومن هنا يُمْكِنُ أن نُقَسِّمَ الجدالَ إلى ثلاثَةِ أَقْسامٍ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: جِدالٌ مَحْمودٌ مَأْمُورٌ به: إمَّا وجوبًا، أوِ اسْتِحْبابًا.

القِسْمُ الثَّاني: جِدالٌ مَذْمومٌ مَنْهِيٌّ عنه.

القِسْمُ الثَّالِثُ: جِدالٌ بَيْنَ بَيْنَ.

أما الجِدالُ المَمْدوحُ فهو الذي يُقْصَدُ به إثباتُ الحَقِّ، وإبطالُ الباطِلِ، وهذا مَأْمُورٌ به، وهو كالجهادِ في سبيلِ اللهِ، فكما أنَّ المجاهِدَ مَأْمُورٌ بأن يَحْمِلَ السِّلاحَ ضِدَّ عَدُوِّه ويُقاتِلَه، فطالِبُ العِلْمِ مَأْمُور بأن يَحْمِلَ سِلاحَ العِلْمِ، وهو المجادَلَةُ بالحَقِّ لِيَدْحَضَ به الباطِلَ.

والقسم الثاني: بالعَكْسِ وهذا مذمومٌ مَنْهِيٌّ عنه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦].

والقسم الثَّالِث: بَيْنَ بَيْنَ، يعني لا يُـؤْمَرُ به، ولا يُنْهَى عنه، لكن لا شَكَّ أنَّ تَرْكَهُ أَوْلَى، وهو الجدالُ في أُمُور لا تمس تَمُتُّ إلى الحَقِّ أو الباطِلِ بصِلَةٍ، كما يَحْصُل في كثيرٍ مِنَ المجالِسِ من المجادَلاتِ، فهذا لا شَكَّ أنَّه لا خَيْرَ فيه، وأنَّه من المِراءِ الذي يَنْبَغي للإنْسَانِ تَجَنُّبُه.

ثم إنْ أَفْضَى إلى مَفْسَـدَة كان منهيًّا عنه، وذلك إذا كان مع الجِـدالِ والمِـرَاءِ والمحاوَرَةِ عَداوَةٌ بَيْنَ المتجادِلَينِ، أو تَعَصُّبٌ لأَحِدِهِما من الحاضـرِين، ويَحْصُل في ذلك تحزُّبٌ.

وإن أفضى إلى مَصْلَحَة كان مَأْمُورًا به؛ مثل: أن يكونَ المجادِلُ مَغْرورًا بِنَفْسِه، ويرى أنَّه لا يَغْلِبُه أَحَـدٌ، فَتُجادِلُه من أجل أن تَكْسِـرَ حِدَّةَ هذا الغُـرورِ، وإن كان لا يترتَّبُ على هذا فائِدَةٌ في حَـدِّ ذاتِهِ، لكن فيه فائِدَة لِغَيْرِه وهي كَسْـرُ غُرورِ هذا الشَّخْصِ، حتى لا يَبْقَى زاهِيًا في نَفْسِه، مترَفِّعًا على غَيْرِه.



الآية (٧٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨].

• • •

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني: هذا الإنْسَانُ الذي كان خَصِيمًا مبينًا ضَرَبَ مثلًا لله عَزَّوَجَلَّ، يُريدُ التَّعْجيزَ والإِنْكارَ، وتَقْرير نَفْيِه، وهذا المَثَلُ يُبَيِّنُه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ولهذا جاءَتِ الجُمْلَةُ مَفْصولَةً عما سَبَقَ؛ لأنَّها وَقعَتْ بيانًا لِمُبْهَمٍ في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾.

﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ يعني ابتداءَ خَلْقِه؛ أنَّه خُلِقَ من ماءٍ مَهينٍ، فكان هذا الإنْسَانُ الخَصيمُ المُبينُ، والجُمْلَةُ في قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ جُمْلَةٌ يُحْتَمَلُ أن تكون جُمْلَةً خبَرِيَّة، ويُحْتَمَل أن تكون جُمْلَةً حالِيَّةً؛ أي: وقد نَسِيَ خَلْقَه، يعني أنَّه في ضَرْبِ المَثَل قد نَسِيَ أَصْلَه، وهو أنَّه من مَنِيٍّ ثم كان إنْسَانًا سَوِيًّا خصيمًا مُبِينًا.

المثل بيَّنَهُ بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ونَسِيَ خَلْقَه من المَنِيِّ وهو أغْرَبُ مِنْ مَثَلِهِ]. لأنَّ مَثَلَه الذي ضَرَبَه إعادَةُ شَيْءٍ كائِنٍ، وخَلْقُه من المَنِيِّ ابتداءُ خَلْقٍ، وأيُّهما أَشَدُّ امتناعًا لو كان فيه امتناعٌ على الله تعالى؟ الابتداءُ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فإذا كان كذلك فإنَّ الإنْسَانَ الخَصِيمَ المُبِينَ يكون ضالًّا من وَجْهَيْنِ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: اسْتِغْرابُه قُدْرَةَ الله عَزَّوَجَلَّ على الإِعادَةِ.

الوَجْهُ الثَّانِي: نِسْيانُهُ أَوَّلَ الخَلْقِ؛ حَيْثُ نَسِيَ أَنَّه خُلِقَ من ماء مَهِينٍ، حتى صار إِنْسَانًا قويًّا خَصِيمًا مُبِينًا.

﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أي: بالِيَةٌ و(مَنْ) اسْتِفهامِيَّةٌ، والمُرادُ به النَّفْي أو الإِنْكارُ، يعني لا أَحَدَ يُحْيِي العِظامَ وهِيَ رَمِيمٌ؛ فالإِنْسانُ إذا ماتَ وَرَمَّ؛ أي: ذهب لَحْمُه وعَصَبُه، وصارَتْ عِظامُهُ تَتَفَتَّتُ لِقِدَمِها، فهي إِذَنْ رَميمٌ، هذه العِظامُ الرَّميمُ هِيَ أَبْعَدُ شَيْء عن الحَياةِ؛ لأَنَّها تُشْبِهُ التُّرابَ فهي أَبْعَدُ شَيْءٍ عن الحياةِ فكيفَ تَحْيا هذه العِظامُ؟ هذا وَجْهُ اسْتِغْرابِ هذا الرَّجُلِ المُنْكِرِ ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي بالِيَةٌ، ولم يَقُلْ رَمِيمَةٌ بالتَّاءِ لأَنَّه اسْمٌ لا صِفَةٌ] الرَّميمُ تارةً يُرادُ به الصِّفَةُ، يعني اسمَ المَفْعولِ أو اسمَ الفاعِلِ: مَرْمومَة، أو رامَّة.

وتارةً يُراد به الاسْمُ: يعني أنَّ العَظْمَ إذا بَلِيَ يُسمَّى رَمِيمًا، فلمَّا قُصِدَ به الاسْمُ لم يَحْتَج إلى التَّاءِ فقيل: (رَميمٌ) لأنَّه مِثْلُ أَسَد، وحَجَر، وشَجَر، وما أشبه ذلك، لكن لو أُريدَ الصِّفَة لكان يُؤَنَّثُ فيُقَالُ: (رَميمَةٌ) لأنَّ العِظامَ جَمْعٌ، وكُلُّ جَمْعٍ قابِلٌ للتَّأْنيثِ لا سِيَّما وأَنَّه قال: ﴿وَهِىَ﴾ وهذه ضَمِيرٌ مُؤَنَّثٌ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رُوِيَ أنَّه أَخَذَ عَظْمًا رَمِيمًا فَفَتَّتَهُ وقال للنَّبِيِّ ﷺ: أترى يُحْيِي اللهُ هذا بَعْدَ ما بَلِيَ وَرَمَّ؟ فقال النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ»[1]]، المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ساقَ هذا الأَثَر بالتَّضْعيفِ؛ (رُوِيَ) وهو جَديرٌ بذلك؛ لأنَّ هذا الرَّجُلَ المُنْكِرَ سواءٌ أَنْكَرَ أَمامَ النَّبِيِّ ﷺ أو خَلْفَ ظَهْرِهِ فإنَّه مُنْكِرٌ بِكُلِّ حالٍ، وليس من عادة

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٨٧)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٩/ ٤٨٦)، عن قتادة.

الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يُعامِلَ النَّاسَ بِمِثْل هذا الأُسْلُوبِ بِقَوْله: «**نَعَمْ وَيُدْخِلُكَ النَّارُ**» فالأثَر هذا يَحْتاجُ إلى نَظَرٍ في سَنَدِهِ وفي صِحَّتِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المُجادِلَ بالباطِلِ يأْتِي بالشُّبُهاتِ التي يَنْصُرُ بها باطِلَه؛ لِقَوْلِه: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ فإنَّ هذه شُبْهَةٌ تُلَبِّسُ على العامَّة؛ لأنَّه لم يَقُلْ: (مَنْ يُحْيِي العِظامَ) فقط، بل قال: ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ فكيف تَحْيا بعدَ أن رمَّت؟ فأَهْلُ الباطِلِ يَأْتونَ بالشُّبُهات؛ ليُلَبِّسُوا على النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الإنْسَانَ اسْتَهانَ برَبِّه حيثُ ضَرَبَ له الأمثالَ للتَّعْجيزِ؛ لِقَوْلِه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ يعني قال: أنا أَضْرِبُ لكم مثلًا بهذا الشَّيْءِ الذي يُعْجِزُ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المُعارِضَ للحَقِّ قد يُصَرِّحُ بالإِنْكارِ بِدُونِ مُراوَغَةٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ وأحيانًا (يُراوِغُ) فأيُّهما أَهْوَنُ؟

الذي يُصَرِّحُ ويُبَيِّنُ أَهْوَنُ؛ لأنَّ هذا يُمْكِنُ أن يُتَّقى شَرُّه، أمَّا المُراوِغُ فإنَّه في الوَاقِع خَطَرٌ؛ ولهذا كان خَطَرُ المُنافِقينَ على الإسلام أَشَدَّ مِنْ خَطَرِ الكافِرينَ الذين يُصَرِّحونَ بالعَداوَةِ؛ لأنَّ المنَافِقينَ يُغْرُونَ النَّاسَ ولا يُمْكِنُ التَّحَرُّزُ منهم.



الآية (٧٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

•••

يقول الله تعالى مُبَيِّنًا قُدْرَتَه على إحياءِ العِظامِ وهِيَ رَميمٌ: ﴿قُلْ﴾ الخِطابُ لِلرَّسولِ ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهذا الذي أنْكَرَ أنْ يُحْيِيَ اللهُ العِظامَ وهي رَميمٌ ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ واعلَمْ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا قال للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿قُلْ﴾ فهُو أَمْرٌ له بالإبلاغِ، ومن المعْلومِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مَأْمورٌ بإِبْلاغِ القُرْآنِ عُمُومًا؛ لِقَوْلِه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]. فإذا خَصَّ شيئًا من الأحْكامِ، أو مِنَ الأَخْبارِ بـ﴿قُلْ﴾ كان في ذلك عِنايَةٌ خاصَّة بهذا الذي أُمِرَ أن يَقُولَهُ؛ لأَنَّه أُمِرَ أن يُبَلِّغَه على وَجْهِ الخُصُوصِيَّةِ، ومَعْلومٌ أنَّ ما كان على وَجْهِ الخُصُوصِيَّةِ فهو أَوْكَدُ مِمَّا دَخَلَ في العُمُومِ، وخُلاصَةُ هذه القاعِدَة: أنَّ الله إذا أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ بِقَوْلِه: ﴿قُلْ﴾ فهذا أَمْرٌ خاصٌّ بِتَبْليغِ هذه المَسْأَلَةِ، سواءٌ كانَتْ خَبَرًا أو كانَتْ حُكْمًا.

﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لم يَقُلْ: (يُحْيِيهَا اللهُ) ليكونَ الجَوابُ مُتَضَمِّنًا للدَّليلِ؛ لأَنَّه لو قال: (يُحْيِيهَا اللهُ) فَهِمَ الإنْسانُ أنَّ الله هو الذي يُحْيِيهَا، لكن إذا قال: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان هذا الجَوابُ مُتَضَمِّنًا للدَّليلِ ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والذي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ هو الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يَخْلُقْ أَحَدٌ من الخَلْقِ هذه العِظامَ ولم يُنْشِئْها

أَوَّلَ مَرَّة، فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ أَنْشَـأَها أوَّلَ مَرَّة، فهو قادِرٌ على إعادَتِها؛ لأنَّ الإعادَةَ أَهْوَنُ مِنَ الابْتِداءِ. وهذا هو الدَّليلُ الأَوَّلُ على إمكانِ إحياءِ هذه العِظامِ وهِيَ رَميمٌ، ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ووَجْهُ الاسْتِدْلالِ بهذا: أنَّ القادِرَ على الابتداءِ قادِرٌ على الإعادَةِ مِنْ بابِ أَوْلى.

ثانيًا: قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ قال المُفسِّـر: [﴿خَلْقٍ﴾ بِمَعْنَى مَخْلـوقٍ] فجَعَلَ المَصْدَر بِمَعْنَى اسم المفعـول، والذي يَظْهَر أنَّ المُراد بالمَصْدَرِ نَفْسُ المَصْدَر، ومن المعلوم أنَّه لا مَخْلوقَ إلا بِخَلْقٍ، لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ صار في هذا نَصٌّ على عِلْمِه بالخَلْقِ؛ أي: كيف يَخْلُق، وكيف يُنْشِئ الخَلْق، فيكون أدَلَّ على قُدْرَتِهِ على إحياء الموتى مِمَّا إذا قلنا وهو بكُلِّ مَخْلوقٍ؛ لأنَّكَ إذا قلتَ بِكُلِّ مَخْلوقٍ صارَ عِلْمُه بالمَخْلوقِ بَعْدَ خَلْقِه.

لكن إذا كانت الآيةُ على ظاهِـرِها ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ يعني: أنَّه يَعْلَمُ كيف يَخْلُق، والعالِمُ بِكَيْفِيَّة الخَلْقِ إذا أراده لم يَسْتَعْصِ عليه، لأنه إذا كان عالِمًا لم يَبْقَ إلا الإرادَة، وإذا أراده وهو بكُلِّ خلْقٍ عَليمٌ صَنَعَ ما عَلِم عَزَّوَجَلَّ، فكَوْنُه بكُلِّ خَلْقٍ عليمًا دليلٌ على أنَّه قادرٌ على أن يُعيدَهُ؛ لأنَّ الذي يَعْجِزُ إمَّا أن يكون لِعَجْزِه، وإما يكون لِجَهْلِه، هنا لما قال: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذه القُدْرَة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ هـذا انْتِفاءُ الجَهْل، فإذا انْتَفَى العَجْزُ المستَفَاد من قَوْلِه: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وانتفى الجَهْلُ المستَفَادُ من قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ صار الخَلْقُ مُمْكنًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ قُوَّةِ الإِقْناعِ في إقامَةِ الحُجَّةِ من كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فأَقْوَى ما يَسُـوقُ الحُجَجَ ويُبَيِّنُها هو كلامُ اللهِ، لأنَّ كـلامَ

الله عَزَّوَجَلَّ أبلَغُ الكـلامِ وأَحْسَنُه، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، فحَديثُ الله عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ أنَّه أصْدَقُ الحديثِ وأَتمُّه، وأَحْسَنُه في الإقناعِ وإقامةِ الحُجَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاسْتِدلالُ بالأَشَدِّ على إمكانِ الأَخَفِّ؛ لِقَـوْلِه: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقد استدَلَّ بالأَشَدِّ على إمكانِ الأَخَفِّ، فالأَشَدُّ إحياؤها أوَّلَ مَرَّةٍ، والأَخَفُّ الإعادةُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه يَنْبَغي للمُسْتَدِلِّ المناظِرِ أن يأتِيَ بالشَّيْءِ الذي يُقِرُّ به خَصْمُه؛ من أجلِ أن تقومَ عليه الحُجَّةُ؛ لأنَّه قال: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والخَصْمُ هنا لا يُنْكِرُ أنَّ الله تعالى أنْشَأَها أوَّلَ مَرَّة.

فينبغي أن تأتِيَ بالشَّيْءِ الذي يُقِرُّ به خَصْمُك لِتُقيمَ الحُجَّةَ عليه بإقْرارِه، وهذا أدَبٌ من آدابِ المناظَرَةِ؛ لأنَّه أقْرَبُ إلى الإقناعِ، وله نظائِرُ منها:

أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا ناظَـرَ الذي حاجَّهُ في رَبِّـهِ فقال إبراهيمُ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] فعدل إبراهيمُ عن ذلك، وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، وهذا يُقِرُّ به الخَصْم، ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾، وهذا لا يُمْكِنُ للخَصْمِ أن يقومَ به.

فالحاصِلُ: أنَّه يَنْبَغي للإنْسَانِ أن يَتَعَلَّمَ طُرُقَ المناظَـرَةِ والمُحاجَّـة، وأن يأتِيَ خَصْمَه من الوِجْهَة التي يُقِرُّ بها حتى يُقيمَ عليه الحُجَّةَ؛ لأنَّ المُناظَرَة والمُحاجَّةَ وَسيلَةٌ لإحِقاقِ الحَقِّ وإبْطالِ الباطِلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَمامُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بإنشاءِ هذه العِظامِ لأَوَّلِ مَرَّة؛ لأنَّه

لا أحَدَ يَسْتَطيعُ أن يَخْلُقَ هذه العِظامَ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣] مع أنَّ الذُّبابَ ليس فيه العِظامُ القَوِيَّةُ الصُّلْبَة، فإذا كانوا لا يَقْدِرون على ذلك فَهُم على ما هو أَعْظَمُ أَعْجَزُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عِلْمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل خَلْقٍ، وسبق لنا في التَّفْسيرِ هل الخَلْقُ هنا بِمَعْنَى المخلوقِ، أو بِمَعْنَى الفِعْل؟ وذكرنا أنَّه يَحْتَمِل الأمْرَينِ، لكنِ احتمالُ الفِعْلِ أَكْثَرُ؛ يعني: كُلُّ خَلْقٍ فاللهُ عَليمٌ به، ومن المعلومِ أنَّ العالِمَ بالخَلْقِ عالمٌ بالمخْلُوقِ كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

إِذَن: يُسْتَفَادُ من ذلك عُمُومُ عِلْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ خَلْقٍ؛ أي: بكلِّ صُنْعٍ يَصْنَعُه مِمَّا نتصوَّرُ، ومِمَّا لا نتصوَّر، وبكلِّ مخلوق؛ لأنَّ العالِمَ بالخلقِ عالمٌ بالمخْلوقِ.



الآيــة (٨٠)

• • ๛ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس:٨٠].

• • ๛ • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: في جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ المَرْخ والعفَار، أو كُلِّ شَجَرٍ إلا العُنَّابَ ﴿نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾].

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾: ﴿جَعَلَ﴾ بِمَعْنَى صيرَّ، والذي جَعَلَ لنا من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نارًا هو الله عَزَّوَجَلَّ، وأراد المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [في جُمْلَة النَّاسِ] أنَّ هـذا الجَعْلَ ليس خاصًّا بالمخاطَبِيـنَ؛ أي: بِرَسُـولِ الله ﷺ وأصْحابـه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، بل هو عامٌّ لكلِّ أحَدٍ، فهو جعل لهم في جُمْلَة النَّاس من الشَّجَرِ الأَخْضَر، المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [المَرْخ والعفَار]. وبناءً على كلامه تكون (أل) للعَهْدِ الذِّهْنِي، ويكون عامًّا أُرِيـدَ به الخاصُّ، ولكنْ سبق لنا أنَّ هذا خِـلافُ الظاهِرِ، وأن (أل) الأصْلُ فيها أنَّها تُفيدُ الجِنْسَ؛ أي: العُمُوم.

فالصَّـوَابُ أنَّ المُرَاد ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ﴾ أي: مِنْ كُلِّ شَجَـرَةٍ كمـا قال، وقوله: [إلا العُنَّابَ] لا نعرف عن هذا شيئًا هل أنَّه مُسْتَثْنًى، وأنَّ العُنَّابَ لا يُمْكِنُ أن تأتِيَ منه النَّارُ، الله أعلم.

على كُلِّ حالٍ: نَحْنُ نقولُ عِنـدنا الأَصْلُ: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ عامَّةٌ،

والشَّجَر الأَخْضَر في الرُّطوبَةِ، والرُّطوبَة يلْزَمُ منها البُـرُودةُ، والنَّارُ التي تَخْرُج من هذا الشَّجَر الرَّطْب الباردِ يابِسَةٌ وحارَّة، فهذا اليابِسُ الحارُّ متولِّدٌ من رَطْبٍ بارِدٍ، ولا يَخْفَى ما بَيْنَ الرُّطوبةِ والبُرُودَةِ وبين الحرارَةِ واليُبُوسَةِ من التَّنافُرِ العَظيمِ.

فإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يولِّدُ هذا الشَّيْءَ الذي بينه وبين المَوَلَّدِ منه من التَّنافُرِ ما هو ظاهِرٌ، فهو قادِرٌ على إحياءِ العِظامِ وهي رَميمٌ؛ لأن كَوْنَهُ يَخْلُق الضِّدَّ من الضِّدِّ أَبْلَغُ في القُدْرَة من كونه يَخْلُق الشَّيْءَ مِن لا ضِدٍّ، وهذا أَمْرٌ ظاهِرٌ.

إِذَن: هذا الدَّليلُ الثَّالِثُ على إمكانِ إحياءِ العِظامِ وهي رَميمٌ.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾: (الفاء) هنا عاطِفَـة و(إذا) فُجائِيَّةٌ؛ يعني: أنَّه بمُجَرَّدِ ما أنْ تَضْرِبَ عُودًا بِعودٍ مِنْ هذا الشَّجَرِ تَقْدَحُ النَّار، فتُوقَدُ منه، فلا يَحتاجُ إلى كبيرِ عَناءٍ، بل إنَّ الإيقادَ أَمْرٌ سَهْلٌ مُفاجِئٌ لِلْعَمَليَّة، والمفاجَأَةُ اسْتَفَدْناها من كَلِمَةِ ﴿فَإِذَآ﴾ وفي قولنا: ﴿أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ دليلٌ على اسْتِمرارِيَّةِ هذا العَمَلِ؛ لأنَّ الجُمْلَةَ الاسْمِيَّةَ تُفيدُ الثُّبوتَ والاسْتِمْرارِ، وهذا أَمْرٌ لا أَحَدَ يُنْكِره، فلا أَحَدَ يُنْكِر أنَّه يَتَوَلَّد من الشَّجَر الأَخْضَر نارٌ يُوقِدُ النَّاسُ منها.

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تَقْدَحونَ، وهذا دالٌّ على القُدْرَةِ على البَعْثِ، فإنَّه جَمَعَ فيه بين الماء والنَّارِ والخَشَـبِ، فلا الماءُ يطْفِئُ النَّار، ولا النَّارُ تَحْرِقُ الخَشَبَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ حيثُ يَتَولَّد من هذا الشَّيْءِ الرَّطْبِ البارِدِ شَيْءٌ حارٌّ يابِسٌ. فتولُّدُ الشَّيْءِ من ضِدِّهِ دليلٌ على كمالِ القُدْرَةِ؛ لأنَّ العادةَ أنَّ الضِّدَّينِ

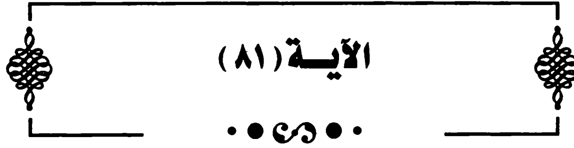
متنافرانِ، لا يلتقيانِ أبدًا، وهنا صار أَحَدُهُما يتولَّدُ من الآخَرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاسْتِدْلالُ بالأَشَدِّ على الأَخَفِّ؛ لأنَّ التَّنافُرَ بين الرَّطْبِ واليابِسِ، والحارِّ والبارِدِ، أَعْظَمُ من أن يُعادَ الخَلْقُ، أو تعادَ العِظامُ بَعْدَ رَميمِها، فالقادِرُ على هذا الشَّيْءِ قادرٌ على إحياءِ الموتى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ نِعْمَةِ الله علينا بِجَعْلِه من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نارًا، ووَجْهُ الدَّلالَةِ أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ وإلا لكان يكتفي، فيُقَالُ: (الذي جعَلَ مِنَ الشجر الأخضر نارًا) لكن ذلك لِمَصْلَحَتِنا، ففيه نِعْمَةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ على عِبادِهِ بهذه النَّارِ. وقد قَرَّر الله هذه النِّعْمَةَ بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة:٧١-٧٢] ولا أَحَدَ يُنْكِرِ ما في الطَّاقَةِ الحراريَّةِ من المنافِعِ العَظيمةِ للخَلْقِ، فأنْواعُها بل أجْناسُها لا تُحصَى، فضلًا عن أفرادِهَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَقريرُ الشَّيْءِ بالوَاقِعِ فبدلًا أن نُلْقِيَه تصورًا في الذِّهْنِ نذْكُرُ وَاقِعَه بالفِعْلِ، تُؤْخَذُ من قوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بيَّنَ أنَّه جعل لنا من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نارًا، وهذا يُعْطينا تصوُّرًا بأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل لنا من الشَّجَرِ الأخْضَرِ نارًا، نَسْتَفيدُ منها، ثم حقَّقَ ذلك بذِكْرِ الأَمْرِ الوَاقِعِ ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: تُحِسُّونَه بوَاقِعِكم، وتَلْمَسُونَه بأَيْديكُم.





قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١].

أجاب الله تعالى نَفْسَه بِنَفْسِه، وخَلْقُ السَّمواتِ والأَرْض أكبَرُ من خَلْقِ النَّاسِ؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] وهذا أمر معلوم بالحِسِّ والمشاهَدَة؛ فالبَشَرُ كلُّهُم لا يُساوُونَ كَوْكَبًا من الكَواكِبِ، فما بالُكَ بهذه الكواكِبِ والنُّجومِ التي لا يُحصِيها إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والسَّمواتُ العظيمَةُ التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]؟ والذي خلق السَّمَواتِ والأَرْضَ أفلا يكونُ قادرًا على خَلْقِ النَّاسِ؟

الجوابُ: بلى والله، فالذي خَلَقَ هذه الأجرامَ العظيمَةَ بما أَوْدَعَها من المصالِحِ العَظيمَةِ قادرٌ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بالأَوْلَى والأَحْرى، وهذا هو الدَّليلُ الرَّابعُ.

قال: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الخَلَّاقُ: الكَثيرُ الخَلْقِ] فجعَلَ فعَّالًا من صِيَغِ المبالَغَةِ، ولا شكَّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كَثيرُ الخَلْقِ، لكن يَنْبَغي أن نقول أيضًا: إنَّ فعَّالًا هنا نِسْبَةٌ؛ أي: إنَّه موصوفٌ بالخَلْقِ، ووَصْفُه بالخَلْقِ أَبْلَغُ مِن وَصْفِه بإيجادِ الخَلْقِ، أو بِفِعْل الخَلْق؛ يعني أنَّنا لو قلنا: فلانٌ نَجَّار. ماذا يفيد قولنا: (إنَّه نَجَّار) إذا جَعَلْناه من بابِ النِّسْبَةِ، وماذا يُفيدُ إذا جعلناه من باب المبالَغَةِ؟ إذا جعلناه من

باب المبالَغَة: فالمعنى أَنَّه كثيـرُ النِّجارَة، فنجَّارٌ يعني كَثيـرَ النِّجارَة، ولكن هل هو مُجيدُها؟ وهل هو مُسْتَحِقٌّ لأن يُوصَفَ بهذه المهنة فيُقَالُ نَجَّار؟ وهل النِّجارَةُ وَصْفُهُ؛ بِمَعْنَى أَنَّه حاذِقٌ مُتْقِنٌ لها؟ لا يَلْزَم، قد يكون وقد لا يكون.

أما إذا قلت: (نَجَّار) على أنَّها نِسْبَة؛ أي: صاحِبُ صَنْعَة، فهو أَبْلَغُ في الوَصْفِ، والنَّجَّار؛ أي: ذو الصَّنْعَة المتقِن لها سَـواءٌ نَجَرَ كثيرًا أو قليلًا فهو نَجَّارٌ مُتْقِنٌ. فهنا يُمْكِنُ أن نقول: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ نَحْمِلُها على النِّسْبَة المفِيدَة لوَصْـفِ الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الصِّفَة العَظيمَة؛ أي: ذو الخَلْقِ المتْقَنِ على أكْمَلِ وَجْهٍ، ومع هذا فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اجْتَمَـعَ في حَقِّه الوَصْـفُ والفِعْل؛ يعني كَثْـرَة الخَلْق، فلا شَكَّ أَنَّ خَلْقَ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُحْصى أجناسًا، فضلًا عن الأنواع، فضلًا عن الأفرادِ، من ذا الذي يُحْصي أجناسَ الخَلْقِ؟ من ذا الذي يحصي أنواعَ هذه الأجناسِ؟ ومن الذي يُحْصِي أفرادَ هذه الأنواعِ؟ لا يَسْتَطيعُ أَحَدٌ أن يُحْصِيَ ذلك.

إذن: فقد اجتمع في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ الأَمْرانِ: النِّسْبَةُ الوَصْفِيَّةُ كَمالَ الوَصْفِ، والثاني: الكَثْرَة التي تُفيدُها صِيغةُ المبالَغَةِ، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خَلَّاقًا؛ أي: مِن وَصْفِه الخَلْقُ اللازِمُ له، وكذلك كثيـرُ الخَلْقِ، هل يَعْجِزُ عن أن يُحْيِيَ العِظامَ وهي رَميمٌ؟ لا.

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ العِلْمُ دليلٌ على القُدْرَةِ على الإعادَةِ؛ لأَنَّنَا قلنا: إنَّ عَدَمَ الإعادَةِ إمَّا أن يكون للعَجْزِ، وإمَّا أن يكونَ للجَهْلِ، فكلَّما وَصَفَ الله نَفْسَه بالعَليمِ فإنَّ ذلك يَعنِي أَنَّه قادِرٌ؛ لأَنَّه لا يَجْهَلُ كيف يَخْلُقُ، وكيف يُنْشِئُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الاسْتِدْلالُ بالأَشَدِّ على الأَخَفِّ؛ لأنَّ الله تعالى اسْتَدَلَّ بِقُدْرَتِه على خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْض على قُدْرَتِه على إحياءِ العِظامِ وهي رَميمٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعَظَمَتِه؛ حيث خلَقَ هذه السَّمَواتِ والأَرْضَ، بما فيهما من المصالِحِ والمنافِعِ والأَجْرامِ الثَّابِتَة وغَيْرِ الثَّابِتَة، وهذا دليلٌ على كمالِ قُدْرَتِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ. وقد خَلَقَ الله تعالى السَّمَواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ، ومع عَظَمَتِها وسَعَتِها وكِبَرِها قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨] أي: مِنْ تَعَبٍ وإِعياءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على الفلاسِفَةِ الذين يقولون بِقَدَمِ الأَفْلاكِ؛ وَجْهُ ذلك أَنَّه قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: أَوْجَدَها من العَدَمِ، ومَعْلومٌ أنَّ المُوجِدَ ليس بقَديمٍ، والقَديمُ عِنْدَهم هو الأَزَلِيُّ الذي لا بِدايَةَ له، فالسَّمَواتُ والأَرْضُ كانت مَعْدُومة، ثم أُوجِدَتْ بقُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأمَّا من قال: بِقِدَمِ الأَفلاكِ، وأنَّه لم تَزَلْ ولا تزال هذه الطَبيعَةُ، فإنَّه ظالِمٌ لا يعلم عن هذا شيئًا؛ لأَنَّه بَنَى الأَمْرَ على غَيْرِ دليلٍ عَقْلِيٍّ ولا نَقْلِيٍّ، بل إنَّ الدَّليلَ العَقْلِيَّ والنَّقلِيَّ يدلُّ على إمكانِ حُدوثِ هذه الأفلاكِ وأنَّها حادِثَةٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَوازُ إِجابَةِ السَّائِلِ نَفْسَه في الأَمْرِ المُحَقَّق المتَقَرِّر؛ لِقَوْلِه: ﴿بَلَىٰ﴾.

إذ قد يقولُ قائِلٌ: إنَّ إجابَةَ المتَكَلِّمِ نَفْسَه لا مَعنَى لها؛ لأن إِجابَتَهُ دَعْوى، أو تَقْرِيرٌ لدَعْوَى ادَّعاها.

فيُقَالُ في الجواب: إذا كان الأَمْـرُ ثابتًا وَاقِعًا فإنَّ إجابَتَهُ نَفْسَـه لا تأتِي بشَيْءٍ جَديدٍ سوى أنَّه يُقَرِّر ما كان وَاقِعًا معلومًا للمخاطَبِ؛ ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

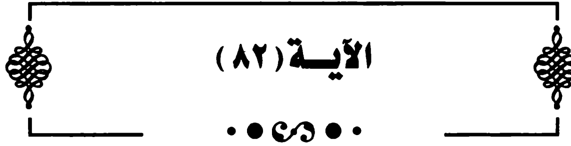
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: في هذه الآية فائِدَةٌ نَحْوِيَّةٌ وهي: أنَّ جَوَابَ الاسْتِفْهامِ المقْرُونِ بالنَّفْيِ، إذا أُريدَ إثباتُهُ يُقَالُ فيه: ﴿بَلَىٰ﴾ ولا يُقَالُ: نَعَم؛ لأَنَّكَ لو أَجَبْتَ بنعم، لكان ذلك تَقْريرًا لنَفْيِ المَنْفِيِّ، مثاله:

لو قلتُ: أَلَيْسَ زَيْدٌ بقائِمٍ؟ فقلْتَ: نَعَم، يعني قَرَّرْتَ النَّفْيَ ليس بقائمٍ، فإن قلتَ: بلى، فقد أَثْبَتَّ القِيامَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الخَلْقَ وَصْفُ الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو مُتَّصِفٌ به أَزَلًا وأَبدًا؛ لِقَوْلِه: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو مَوْصـوفٌ بالخَلْقِ من قَبْلِ أن يَخْـلُقَ؛ لأنَّ صِفَـةَ الخَلْقِ أَزَلِيَّةٌ والمَخْلوق حادِثٌ، فهو عَزَّوَجَلَّ مُتَّصِفٌ بالخَلْقِ؛ ولهذا قلنا: إنَّ النِّسْبَةَ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ أَظْهَرُ من كونِها للمُبالَغَة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: وَصْفُ الله تعالى بالعِلْم الأَزَلِيِّ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾ ولا شَكَّ أنَّ الله تعالى مَوْصـوفٌ بالعِلْمِ أَزَلًا وأَبدًا، فإنَّه لم يَزَلْ ولا يَزَالُ عالِمًا، لم يَسْبِقْ عِلْمَهُ جَهْلٌ، ولا يَلْحَقُه نِسْيانٌ؛ كما قال موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢].





الآية (٨٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

• • • •

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ شَأْنُهُ] يعني: شأْنُهُ وحالُهُ إذا أراد شيئًا أن يقولَ له: ﴿كُن﴾ فيكوُن، فلا يَحْتاجُ إلى إحْضارِ آلاتِ بِناءٍ مثلًا، أو إلى جُنُودٍ يُساعِدُونَه، ولا إلى أن يَعْمَل بِيَدِه عَزَّوَجَلَّ، بل يَقولُ: ﴿كُن﴾ فيكونُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [شَأْنُهُ] قد يُنازَعُ فيها، ويُقَالُ: إنَّ المُرَادَ بالأَمْرِ أَمْرُ التَّكْوينِ؛ يعني أَمْره أن يَقولَ: ﴿كُن﴾ بُدونِ أنْ يُكَرِّر كما في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] فجعَلَ الأَمْرَ واحِدَ الأَوامِرِ. والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُريدُ أن يَجْعَل الأَمْرَ واحِدَ الأُمُورِ.

ويُمْكِنُ أن نقول بالأَمْرَينِ جَميعًا؛ نقول: شأْنُه عَزَّوَجَلَّ في تمام قُدْرَتِه أن يقول للشَّيْءِ: (كن) فيكونُ، وأَمْرُه إذا أراد الشَّيْءَ أن يقول: (كن) بدونِ تكْرار، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: خَلْقَ شَيْءٍ ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فَهُو يَكونُ]. والأَوْلى أَلَّا نُقَيِّدَ ﴿شَيْـًٔا﴾ بالخَلْقِ، بل نقول: إذا أرادَ شيئًا خَلْقًا أو إِعْدامًا، فالأَوْلَى إبقاءُ الآيةِ على إِطْلاقِها ﴿شَيْـًٔا﴾ سواءٌ كان خَلْقًا

أو إيجادًا أو إِعْدامًا وإِتْلافًا. ولكنَّ الذي حَمَل المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن يقول: [خَلْقَ شَيْءٍ] لأنَّ السِّياقَ لِلاسْتِدْلالِ على الخَلْقِ، وهو الإيجادُ؛ فَلِهذا خَصَّها به، ولكِنَّنا إذا قلنا: إنَّها على إِطْلاقِها فإنَّها لا تَمْنَعُ الخَلْقَ كما لا تَمْنَعُ الإِعْدامَ. فالأَوْلَى أن يُقالَ: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أي إيجادَ شَيْءٍ وخَلْقَه، أو إِعْدامَهُ.

وقد يُعْتَذَرُ عن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيُقالُ: إنَّ الإِعْدامَ فيه نَوْعُ خَلْقٍ؛ لأنَّ إتْلافَ الشَّيْءِ القائِمِ خَلْقٌ؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك:٢] مع أنَّ الموتَ عَدَمٌ وفَناءٌ، والأَمْرُ في هذا سَهْلٌ.

قال: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: ﴿كُن﴾ هنا الظَّاهِرُ أنَّها تامَّةٌ، وإذا جَعَلْناها ناقِصَةً صار المعنى: كُنْ كذا؛ أي: تحَوَّل إلى كذا، لكِنْ إذا جعلناها تامَّةً صار المعنى أَشْمَل؛ لِتَشْمَل ما أرادَ الله تعالى تحويلَهُ من شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، وما أرادَ الله إيجادَه أَصْلًا. يعني ﴿كُن﴾ أي: أن يُوجَدَ ويَتكَوَّن، أو (كُنْ كذا) أي بأنْ يكونَ الطَّويلُ قَصيرًا، والقَصيرُ طَويلًا وما أَشْبَه ذلك، فإذا جَعَلْناها تامَّة صار هذا أَشْمَل ﴿فَيَكُونُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقول: [فَهُوَ يَكُونُ، وفي قراءةٍ بالنَّصْبِ عَطْفًا على ﴿يَقُولَ﴾] قراءتان سَبْعِيَّتان لأنَّه قال: [في قِراءَةٍ] واصْطِلاحُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا كانَتِ القِراءَتانِ سَبْعِيَّتينِ أن يقول: [وفي قِراءَةٍ] وإذا كانت إِحْداهُما شاذَّةً قال عن الشَّاذَّةِ (قُرِئَ).

في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ على قِراءَةِ الرَّفْعِ الفاءُ هنا لِلاسْتِئْنافِ، وجُمْلَة (يكونُ) خبرٌ لمبتدأٍ مَحْذوفٍ، والتَّقْدِيرُ: فهو يكون، أمَّا على قِراءَةِ النَّصْبِ فهي معطوفةٌ على ﴿أَن يَقُولَ﴾ للشَّيْءِ: كن فيكونَ، والفاءُ على كلا الوَجْهَيْنِ دالَّةٌ على التَّرْتيبِ والتَّعْقيبِ؛ يعني أنَّ الشَّيْءَ يكون فورًا بدونِ تَأْخيرٍ، وقد بَيَّنَ الله تعالى سُرْعَةَ هذه الفَوْرِيَّةِ في قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠] ولَمْحُ البَصَرِ ليس شَيْءٌ أَسْرَعَ

منه، وأَمْرُ الله عَزَّوَجَلَّ واحِدٌ كَلَمْحِ البَصَر، وإذا كان هذا أمرَ الله وشأْنَ الله فهل إذا قال للعِظامِ الرَّمِيمَةِ: كوني إنْسَانًا سويًّا هل يَمْتَنِعُ عليه ذلك؟ لا؛ ولهذا قال الله تعالى في سورة النَّازِعاتِ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، وقال تعالى في هذه السُّورَة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الاسْتِدْلالُ بعُمُومِ قُدْرَتِه عَزَّوَجَلَّ وتَمامِها على قُدْرَتِه على إحياءِ الموتى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التَّامَّة التي لا يضاهيها ولا يُقارِبُها قُدْرَة؛ لأَنَّه إذا أرادَ شيئًا لم يتكَلَّفْ لإِحْضارِ الموادِّ أو غَيْرِها مِمَّا يتكوَنَّ به هذا الشَّيْءُ، وإنَّما يقول: ﴿كُن﴾ فيكون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثْباتُ الإرَادَة لله لِقَوْلِه: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ وإرَادَةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال أَهْلُ العِلْمِ تَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: شَرْعِيَّةٍ، وكَوْنِيَّةٍ.

فالشَّرْعِيَّة: هي التي بِمَعْنَى المَحَبَّة.

والكَوْنِيَّةُ: هي التي بِمَعْنَى المَشِيئَة.

والفَرْقُ بَيْنَهُما من حيثُ الأَثَرُ:

١- أنَّ الإرَادَة الكَوْنِيَّةَ لا بدَّ فيها من وُقُوعِ المُرَادِ.

٢- أنَّ المُرَاد فيها قد يكون مَحْبوبًا لله، وقد يكون غَيْرَ مَحْبوبٍ لله.

أما الإِرَادَة الشَّرْعِيَّة: فقد يَقَعُ فيها المُرَادُ، وقد لا يَقَعُ، ولا يكون المُرَادُ فيها إلا مَحْبوبًا لله.

فإذا قال لك قائل: هل اللهُ يُرِيدُ الكُفْرَ؟

فقلْ له: أَمَّا شَرْعًا فلا، وأَمَّا كَوْنًا فَنَعَمْ.

ولو قال لك قائِلٌ: هل الله يريدُ الإيمانَ؟

فَقُل: نعم يُرِيدُه شرعًا، وقَدَرًا إنْ وَقَعَ؛ لأَنَّه إذا وَقَعَ فقد أراده قَدَرًا، وإذا لم يَقَعْ فلا نَعْلَمُ هل أرادَهُ قَدَرًا أم لا؟ بل نقول: إِنَّه الآن لم يُرِدْهُ قَدَرًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ القَوْلِ لله؛ لِقَوْلِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ كَلامَ الله عَزَّوَجَلَّ يكونُ بِحَرْفٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿كُن﴾ فإنَّ (كُنْ) كَلِمَة مُكَوَّنَةٌ من حَرفَينِ، وإثباتُ أَنَّه بِصَوْتٍ؛ لِقَوْلِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فهذا الخِطابُ مُوَجَّهٌ لِمَا أرادَهُ الله، وهو يَقْتَضِي أن يكون هذا المُرَادُ سامِعًا لهذا القَوْلِ، ولا سَمَاعَ إلا بصوتٍ.

فيكون في الآية رَدٌّ على قَوْلِ الأشاعِرَة في كلامِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ يقولون: إن كلامَ الله هو المعْنَى القائِمُ بِنَفْسِه، وأنَّ ما يُسْمَع من الأَصْواتِ والحُرُوفِ هو عبارةٌ عن كلام الله، ويرون أنَّ هذا المَسْمُوعَ مَخْلوقٌ؛ ولهذا قال بَعْضُ المُحَقِّقينَ منهم، أو المُنْصِفينَ منهم: إِنَّه في الحَقيقَةِ لا فَرْقَ بَيْنَنا وبين المُعْتَزِلَة في كَلام اللهِ؛ لِأَنَّنَا مُتَّفِقون على أنَّ ما بَيْنَ دَفَّتَيِ المصْحَفِ فهو مَخْلوقٌ. فإذا كانوا مُتَّفِقينَ على هذا، فإنَّ قَوْلَ المُعْتَزِلَةِ قد يكون خَيْرًا من قولِهم؛ لأنَّ المُعْتَزِلَة يقولون: إنَّ ما بينَ دَفَّتَي المصْحَف كلامُ الله. فكُلُّهُم يقولون: إنَّه مَخْلوقٌ، لكن المُعْتَزِلَة يقولون: إِنَّه كلامُ اللهِ، والأَشاعِرَة

يقولون: إنَّه عِبارَةٌ عن كلامِ اللهِ، فإضافَتُه إلى الله على رَأْيِ الأَشْعَرِيَّةِ مجازٌ لا حَقيقَةٌ.

وعلى كُلِّ حالٍ: في الآيَـةِ رَدٌّ على الأَشْعَـرِيَّةِ في تَفْسيـرِهِم لكلامِ الله عَزَّوَجَلَّ، وحَقِيقَةُ الأَمْـرِ أَنَّهُم لا يُثْبِتـونَ الكَلام؛ لأَنَّهُم إذا جَعَلـوا الكَلامَ هو المعْنَـى القائِمَ بالنَّفْسِ فكأَنَّما جَعَلـوا الكَلام هُو العِلْمَ؛ لأَنَّ العِلْمَ هو المعْنى القائِـمُ بالنَّفْسِ، أَمَّا الكلامُ والقَوْلُ فهو أَمْرٌ زائِدٌ على ذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أَمْرَ الله عَزَّوَجَلَّ إذا وُجِّهَ لشَيْءٍ فإنَّ هذا الشَّيْءَ يكونُ كما أمر؛ لِقَوْلِه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي فيكونُ على ما أَمَرَ الله به؛ في العَيْنِ والوَصْفِ، فإذا أرادَ الله إيجادَ شَيْءٍ قال: ﴿كُن﴾ فكان على حَسَبِ ما أراده الله عَزَّوَجَلَّ.



الآيــة (٨٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

(سبحان) بِمَعْنَى تَنْزِيهًا، وهي اسْمُ مَصْدَرٍ، والمصدر: تَسْبِيحٌ، وهي مُلازِمَةٌ للنَّصْبِ على المفْعولِيَّةِ المُطْلَقَة دائمًا، وملازِمَةٌ أيضًا لِلإضافَةِ حتى لو قُطِعَتْ عن الإضافَةِ لفظًا فهي مُضافَةٌ تقديرًا. و(سُبْحانَ) معناها: التَّنْزِيهُ؛ أي: إنَّ الله مُنَزَّهٌ عن النَّقْصِ في صِفاتِهِ، وعن مُماثَلَةِ المخْلوقينَ، فمثلًا يُنَزَّهُ أن يكونَ وَجْهُه كَوَجْهِ المَخْلوقِ، ويُنَزَّهُ أن يَعْتَرِيَ صِفاتِهِ نقْصٌ بأيِّ وَجْهٍ، فمثلًا: العِلْمُ؛ عِلْمُ البَشَرِ ناقِصٌ ابتداءً، وانتهاءً، وشمولًا: ابتداءً؛ لأنَّه مَسْبوقٌ بالجَهْلِ، وانتِهاءً؛ لأنَّه ملحوقٌ بالنِّسيانِ، وشمولًا ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] لكِنَّ عِلْمَ الله عَزَّوَجَلَّ كامِلٌ من هذه الوُجُوه كلِّها ابتداءً وانتهاءً وشمولًا، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالِمٌ بعِلْمِه الذي هو مَوْصوفٌ به أَزَلًا وأَبَدًا، وهو لا يَنْسَى كما قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] وعِلْمُه شامِلٌ لكُلِّ شَيْءٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥]، ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

فالله تعالى مُنَزَّهٌ عن النَّقْصِ في صِفاتِهِ الثَّابِتَة له، ومُنَزَّهٌ عن مماثَلَةِ المَخْلوقينَ،

وقلنا: مُماثَلَة ولم نَقُلْ مُشابَهَة، والفَرْقُ واضِحٌ:

أوَّلًا: أنَّ المُماثلة هي التي جاء نَفْيُها في القُرْآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ولم يَقُلْ: (ليس كَشِبْهِهِ شَيْء)، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

ثانيًا: أنَّه ما مِنْ شَيْئَيْنِ موْجُودَيْنِ إلا وَبَيْنَهما نوعٌ من التَّشابُهِ، ولولا ذلك ما فَهِمْنا من صفاتِ الله شيئًا.

فمثلًا: الوُجُودُ للمَخْلوقِ ولِلْخالِقِ، بَيْنَهُما تشابُهٌ من حيثُ أَصْلُ المعْنى، وإن كان هذا يَخْتَلِفُ.

العِلْمُ: عِلْمُ الخالِقِ وعِلْمُ المخْلوقِ، بينهما تشابُهٌ من حيث أصْلُ المعنى لكنَّهما يختلفانِ.

فإذا نُفِيَتِ المشابَهَةُ مُطْلَقًا فهذا نَفْيٌ للوُجُود في الوَاقِع.

ثالثًا: أنَّ المشابَهَةَ صار نَفْيُها عند كَثيرٍ من النَّاسِ نفيًا للصِّفاتِ؛ لأنَّ كثيرًا من أَهْلِ التَّعْطيلِ يَصِفونَ مَنْ يُثْبِتُ الصِّفَات بالمُشَبِّهَةِ، فإذا قُلْتَ: مِن غَيْرِ تَشْبيهٍ يعني من غَيْرِ إثباتٍ؛ لأنَّ كُلَّ مُثْبِتٍ عِنْدَهم مُشَبِّهٌ.

فلهذا كان التَّعْبيرُ بِنَفْيِ التَّمْثيلِ أَوْلَى من التَّعْبيرِ بِنَفْيِ التَّشَبُّه من ثلاثة أَوْجُه.

فتَنْزيهُ اللهِ عن كلِّ نَقْصٍ دليلٌ على قُدْرَتِه على إحياءِ العِظامِ وهي رميمٌ؛ لأن عَجْزَه عن إحياءِ العظامِ وهي رميمٌ نَقْصٌ ينافِي التَّنْزيهَ، فإذا ثَبَتَ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مُنَزَّهٌ عن كُلِّ نَقْصٍ، لَزِمَ من ذلك تَنْزيهُه عن العَجْزِ عن إعادةِ هذه العظامِ.

﴿بِيَدِهِۦ﴾ أي: بِتَصَرُّفِه مع إثباتِ اليَدِ، فنحن نقول في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١] وما أَشْبَهَها ليس المعنى أنَّ المُلْكَ في يدِ الله عَزَّوَجَلَّ، لكنْ في تَصَرُّفِهِ

مع ثُبُوتِ اليَدِ؛ كما قلنا في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] بِمَرْأًى منَّا، مع ثُبوتِ العَيْنِ؛ لأنَّ السَّفينَةَ لَيْسَتْ في وَسَطِ عَيْنِ الله عَزَّوَجَلَّ حاشا وكلَّا، فالمُنْكَرُ أن تقولَ: بيده؛ أي: أَمْرِه، بدون أن تُثْبِتَ اليَدَ، أمَّا إذا قلتَ بيده بِتَصَرُّفِه وتَدْبيرِهِ مع ثُبوتِ اليَدِ، فهذا هو المُرَادُ.

﴿مَلَكُوتُ﴾ كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَصْلِ ﴿مَلَكُوتُ﴾: [مَلَك لكنْ زِيدَتِ الوَاوُ والتَّاءُ للمُبالَغَةِ] أي: زِيدَتْ للمبالَغَةِ في مِلْكِ الله لكلِّ شَيْءٍ، لأنَّ مِلْكَ الله لكُلِّ شَيْءٍ مِلْكٌ تامٌّ لم يُسْبَقْ بِعَدَمٍ، ولا يُلْحَقُ بزَوالٍ، بينما مِلْكُ غَيْرِه مِلْكٌ ناقِصٌ، بالأَصْلِ لم يَمْلِك هذا الشَّيْءَ ثم مَلَكَه بعْدُ، ومع مِلْكِه إياه فإنَّ هذا المِلْكَ قابِلٌ لِلزَّوالِ، ثم إنَّ مِلْكَه إيَّاه ليس مِلْكًا مُطْلَقًا يَفْعَلُ فيه ما يشاء، بل هو مِلْكٌ مُقَيَّد، أمَّا مِلْك الله فَهُو تَامٌّ؛ ولهذا جاءت الواو والتاء للمُبالَغَةِ ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي مُلْكُ كُلِّ شَيْءٍ.

وقوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ دليلٌ على قُدْرَتِه على إحياءِ العِظامِ وهِيَ رَميمٌ؛ لأنَّ الذي يَمْلِك كلَّ شَيْءٍ مِلكًا مُطْلَقًا -مُبالَغًا فيه بالواوِ والتَّاءِ- قادِرٌ على أن يُحَوِّلَ هذا المَمْلوكَ إلى ما شاء؛ ولِهَذا فَسَّر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ المِلْكِيَّةَ هنا بالقُدْرَةِ، فقال: [أي: القُدْرَةُ على كُلِّ شَيْءٍ]، ولكنَّ هذا الكلامَ فيه نَظَرٌ، بل نقول: مالِكٌ لكُلِّ شَيْءٍ، وإذا مَلَكَه مِلْكًا مُطْلَقًا فهو قادِرٌ على أن يَتَصَرَّفَ فيه كما يشاءُ.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُرَدُّونَ في الآخِرَة] أي: إليه لا إلى غَيْرِه لِيُجازِيَكُم، ووَجْهُ الدَّلالَةِ من هذه الجُمْلَةِ على القُدْرَةِ على إحياءِ العِظامِ وهِيَ رَميمٌ أنَّه لا رُجُوعَ إلى الله في الآخِرَة إلا بَعْدَ إحياءِ هذه العِظامِ الرَّميمِ، ولو قلنا: بِعَدَمِ القُدْرَةِ لانْتَفَى الرُّجُوعُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا انتفى الرُّجُوعُ إلى الله تعالى صار وُجُودُ الدُّنْيَا كُلِّها عَبَثًا ولَعِبًا، وهذا لا شَكَّ أنَّه منافٍ لِكَمالِ الله عَزَّوَجَلَّ، فمُجَرَّدُ رُجُوعِنا

إلى الله تعالى يَلْزَمُ منه القُدْرَةُ على الإحْياءِ. ولا يُمْكِنُ أن نقولَ بِعَدَمِ الرُّجُوعِ؛ لأَنَّا إذا قُلْنا بعَدَمِ الرُّجُوعِ لكان إيجادُ الخَلْقِ عَبَثًا، وهذا مُمْتَنِعٌ غايَةَ الامْتِناعِ.

فهذه عَشَرَةُ أدِلَّةٍ في هذه الآياتِ على قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ على إحياءِ العِظامِ وهي رَميمٌ، واللهُ على كلِّ شَيْءٍ قديرٌ، ولو لم يكن عِنْدَنا إلا هذه الجُمْلَةُ العامَّةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧] لكان كَافِيًا في بيانِ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على إحياءِ العِظامِ وَهِي رَميمٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَنْزِيهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كلِّ نَقْصٍ وعَيْبٍ، ويُؤْخَذُ من قوْلِه: ﴿فَسُبْحَـٰنَ﴾ ومَرَّ علينا في التَّفْسيرِ أنَّ الذي يُنَزَّهُ الله عنه أَمْرانِ:

الأَوَّلُ: النَّقْصُ في صِفاتِهِ.

الثاني: مُماثَلَةُ المَخْلوقِينَ.

فعِلْمُه عَزَّوَجَلَّ لا ينالُهُ نَقْصٌ، لا من حيثُ الشُّمولُ، ولا من حيثُ السَّبْقُ، ولا من حَيْثُ اللُّحوقُ، ولا يُماثِلُ عِلْمَ المَخْلوقينَ، وهكذا بَقِيَّةُ الصِّفَاتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَلَكوتَ السَّمواتِ والأَرْضِ وكُلِّ شَيْء فَهُو بيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو مالِكٌ لكُلِّ شَيْءٍ، ولا أَحَدَ يَشْرَكُهُ في مُلْكِه، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَرْجِعَ الخلائِقِ إلى الله؛ لِقَوْلِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا الرُّجُوعُ

يَشْمَلُ الرُّجُوعَ إلى اللهِ يوم القِيامَة، والرُّجُوعُ إلى الله تعالى في أَحْكامِ الخَلْقِ الكَوْنِيَّةِ والشَّرْعِيَّةِ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَانُ حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك بكونِ الرُّجُوعِ إليه، وأَنَّه لا بُدَّ من الرُّجُوعِ إلى الله؛ لأَنَّه لَوْلا هذا الرُّجُوعُ لكان خَلْقُ الخَلْقِ عبثًا لا فائِدَة منه، إذ إنَّه لولا هذا الرُّجُوعُ والمُجازاةُ على هذا العَمَلِ في هذا الرُّجُوعِ لكانَتِ الخَليقةُ خُلِقَتْ لِيُفْسِدَ في الأَرْضِ مَنْ يُفْسِدُ، وتَحْصُلُ الفِتَنُ والشُّرورُ، والنهايةُ لا شَيْءَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إِثباتُ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إِحياءِ العِظامِ وَهِي رَمِيمٌ، وذَلِكَ من عَشَرَةِ أَوْجُهٍ:

الأَوَّلُ: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإِنَّ فيه اسْتِدْلالًا بالأَشَدِّ على الأَخَفِّ.

الثَّاني: قَوْلُه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وعِلْمُه بكُلِّ خَلْقٍ يَقْتَضي أَنَّه عَزَّوَجَلَّ قادِرٌ على إحياءِ العِظامِ وهِيَ رَميمٌ.

الثَّالِثُ: قَوْلُه: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ فإِنَّ مَن جَعَلَ من هذا الأَخْضَرِ البارِدِ الرَّطْبِ نارًا وهي يابِسَةٌ مُحْرِقَة قادِرٌ على أن يُعيدَ الخَلْقَ؛ لأَنَّ جَعْلَ النَّارِ من الشَّجَرِ الأَخْضَرِ أَبْلَغُ في القُدْرَةِ.

الرَّابعُ: قَوْلُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فقُدْرَتُه على خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ دَليلٌ على قُدْرَتِه على إحياءِ العِظامِ وهي رَميمٌ؛ لأَنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ

والأَرْضِ أَعْظَمُ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ﴾.

الخامِسُ والسَّادِسُ: قَوْلُه: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ والخَلَّاقُ صِفَةٌ لازِمَةٌ له، وكَوْنُه خَلَّاقًا يَشْمَلُ أن يَخْلُقَ كُلَّ شَيْءٍ، وكَوْنُهُ عَليمًا يدلُّ على أنَّه لا يَخْفَى عليه شَيْءٌ مِنَ الخَلْقِ حتَّى يَعْجِزَ عنه.

السَّابِعُ: أنَّه لا يَسْتَعْصي عليه شَيْءٌ، بل إذا أَمَرَ بشَيْءٍ كان في الحالِ؛ لِقَوْلِه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

الثَّامِنُ: تَنْزِيهُ الله عَزَّوَجَلَّ عن كُلِّ نَقْصٍ، ومن المعلومِ أنَّ العاجِزَ عن إِعادَةِ الخَلْقِ ناقِصٌ، فإذا كان الله تعالى مُنَزَّهًا عن كلِّ نَقْصٍ، كان ما وعَد به من إحياءِ العِظامِ وَهِي رميم وَاقِعًا.

التَّاسِعُ: قوله: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومَنْ بِيَدِهِ مَلْكوتُ كُلِّ شَيْءٍ فإنَّه مالِكٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، والمالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ قادِرٌ على أن يُوجِدَ المَعْدومَ، ويُعْدِمَ المَوْجُودَ.

العاشِرُ: قَوْلُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإنَّ هـذا هو نَتِيجَةُ الخَلْـقِ؛ أن يُبْعَثَ الخَلْـقُ ويُرْجعونَ إلى الله لِيُجازِيَهُم بما عَمِلوا.

وإلى هنا انتهى تَفْسِيرُ هَذِه السُّورَةِ العَظيمَةِ، واللهُ أَعْلَمُ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلى نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعينَ.



فهرس الأحاديث والآثار

الحديث **الصفحة**



فهرس الفوائد

الفوائد		الصفحة



فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

